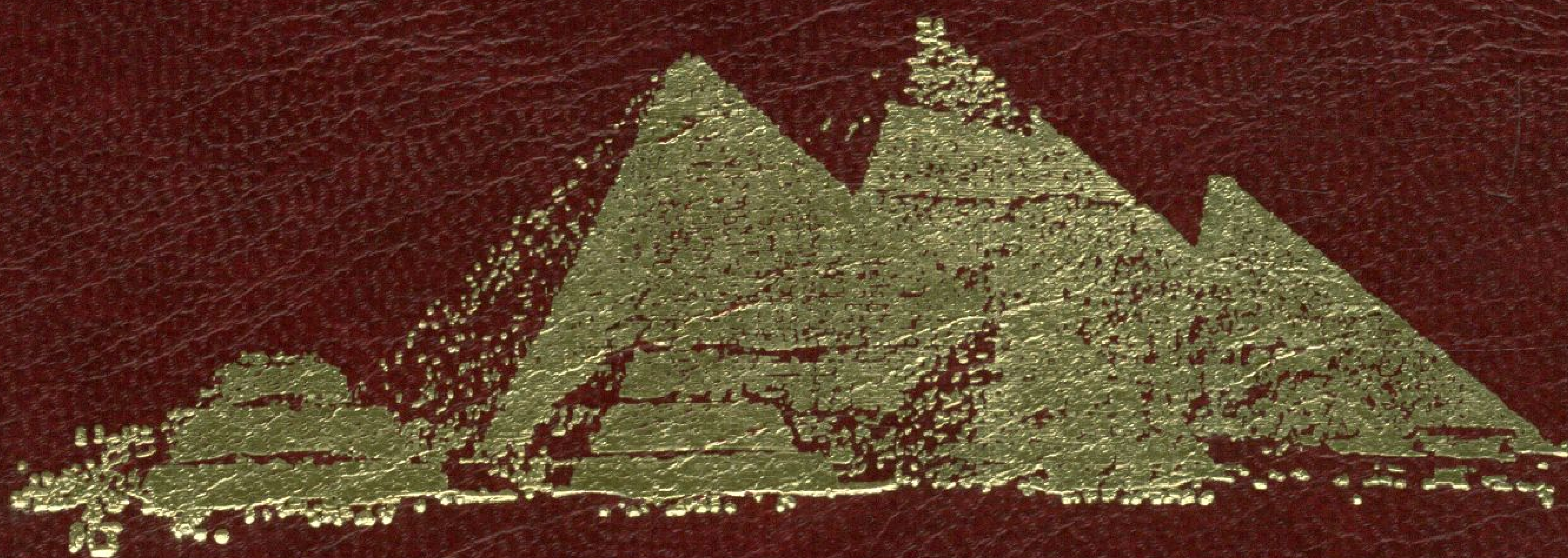
مَوْسُوعَة

تَارِيخُ مِصْرَ





موسوعة

التاريخ المصري

(١٣)

ميخائيل شاروبيم بك

موسوعة

التاريخ المصري

المجلّد الثالث عشر

الكافـــــــي

في تاريخ مصر القديم والحديث

الجزء الثالث ـ ١ ـ

عن فترة من ١٥١٢م إلى سنة ١٨٠٠ م

٩٢٢هـ إلى سنة ١٢٢٠ هـ

دار نوبليس

اسم الموسوعة:	موسوعة التاريخ المصري
اسم الكتـــاب:	الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث الجزء الثالث ـ ١ ـ
اسم المؤلــف:	ميخائيل شاروبيم بك
قيـاس الكتـاب:	١٧ × ٢٤
عدد الصفحات:	٢١٦
عدد صفحات الموسوعة:	٨٨٤٠
مكـان النشـر:	بيروت
دار النشر والتوزيع:	دار نوبِليس
تلفاكس:	٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١
هاتــف:	٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ ـ ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١
صندوق بريـد:	٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان
بريد إلكتروني:	info@nobilis-int.com
الطبعة الأولى:	٢٠١٢

EAN 9786144031339

ISBN 978-614-403-133-9

المحتويات

﴿تمت﴾



(المقالــة السابعــة)

(فيمن هم الترك وفى نسبهم
وفيمن تفرع عنهم من المماليك والأمــم
إلى ظهور ملوك آل عثمان)

اعلم أن الترك أمة من أقدم الأمم وأعظمها، وقد اجتمعت كلمة أكثر المؤرخين من عــرب وأعجــام على أنهم من ولد يافث بن نوح وأبــوهم ترك هو الذى سمــاه هيرودتس المؤرخ باسم ترجيشاوس وجاء فى التوراة باسم توجرما.

قال ابن الأثيــر: والترك من ولد تيرش أو طيراش بن يافث وقــيل أيضا إن ترك هذا إنما هو من ولد طوج بن أفــريدون ينتهى إلى جومــرت أوكيــومرت ويرجع إلى تيرش بن يافث بن نوح قال: قال ابن خلدون: وينسبهم العرب إلى غامور بن سويل بن يافث وهو غلط لأن غامور مصحف من كومر أو جومر فأبدل العرب الكاف غينا فصارت غامــور وجومر هذا من ولد توجرما وقال مؤرخــو التتر المغول: بل هم من ولد تتر ومغول وهما أخوان من نسل ترك بن يافث وهم لا يقصدون بذلك إلا إعلاء شرف عائلتهم أ. هـ .

وقد ذكر هيرودتس المؤرخ وبلنــيوس وبمبيونيوس ميلا اسم التــرك قديماً وذكروا أيضا فى ومواضع أخر باسم توغريوس فصحــفه الكتاب وأهل النقل إلى أمورغيوس ويقــال إن بلنيوس ســماهــم أيضا ترسى وســماهم بمبيــونيوس باسم برسى وكــان البزانطيون أى الروم المشــارقة يسمونهم باسم فرس أو انغرد يعــين المجر. قال بعض

الكتاب: مع أنه لم يكن بين الترك والفرس قرابة ولا بين الفرس والمجر. قال العلامة البستانى صاحب دائرة المعارف ما محصله: وقد خرجت من جبال التابى قبائل تركية وتفرقت فى أنحاء آسية العليا التى هى الآن تركستان فسماها الصينيون باسم توكو كما سمى الفرس بلاد تركستان باسم توران فكان لفظ ترك أو تورانية اسما جنسيا للقبائل المتوحشة وصارت كلمة توران عند جماعة اليونان بلفظ تيران ومعناها طاغية أو عات أ.هـ .

وقد ورد فى بعض الروايات أن أغورخان بن قراخان هو الذى أسس بفتوحاته وشرائعه دولة الترك وشيد ركن تمدنها وأن أوغورخان هذا كان معاصر للخليل إبراهيم عليه السلام وأنه ترك عبادة الأصنام ولاذ إلى عبادة أصح منها ثم ركب على أخيه فقاتله قتالاً دينيا ومازلت الحرب قائمة بينهما زهاء سبعين سنة وهو يقاتل أخاه حتى ظفر به وهزمه شر هزيمة فخضع له حينئذ سائر تركستان وهو القسم الممتد من ارتلاز وسيرام إلى بخارى وخلف أوغورخان هذا ستة بنين فلما مات اقتسموا المملكة بينهم وكان لكل واحد منهم أربعة أولاد فكانوا آباء أربع وعشرين قبيلة تركية فسكن منهم ثلاثة فى تركستان ولم يلبثوا أن اكتسحوا كل البلاد الواقعة بين جيحون وسيحون وتقدموا نحو جنا القلعة والطونة وعاثوا وأفسدوا فكانوا يلقبون بالمدمرين قال بعض الكتاب: وقد سمى بعضهم هذه الأمة بالتتار أيضا ولكن التتار فرع منهم، وقال آخرون: إن من الترك أهم فروع العائلة التورانية وآخرون يقولون إن اسمهم مرادف للتورانية وزعم بعضهم أنهم من الأمة الإيرانية مع أن المتأخرين تحققوا أن لا اتصال لهم بهذه الأمة ألبتة وكان أول ظهورهم فى آسية الشمالية والوسطى بين رعاة الطونة والتتر الذين أكثروا من شن الغارة على الصينيين عدة قرون قبل الميلاد المسيحى وبعده وفى القرن السادس ظهرت طائفة منهم أيضا فى آسية وأصلها على ما يقال من البلاد المسماة الآن تركستان فوطئت بساط السلام آونة ثم عادت فجدّدت حروبها مع أهل الصين شرقا وأهل فارس جنوبا ولما كانوا كلهم أخلاطا مؤلفين من لفيف قبائل متباينة فى الأخلاق والعادات ميالة بالطبع إلى الغزو والغارات جافية متوحشة لم تتفق لهم كلمة وانفصمت عروة اتحادهم فتفرقوا فى تلك الأنحاء الواسعة واستوطنوها على ما هم عليه من الخشونة فكان ذلك داعيا لضعفهم ولما كانت سنة أربع وأربعين وسبعمائة للميلاد المسيحى استظهرت على مملكتهم أمة منهم يقال لهم الويغور قال بعض أهل التحقيق: وهم أول قبيلة تركية استعملت لغة

مكتتبة وكانوا أولا بوزيين تمجسوا على مذهب زرادشت ثم أسلموا فى القرن التاسع والعاشـر ، هذا ما كان من أمـرهم فى الشرق ، أمـا ما كان من أمـرهم فى الغرب فإنهم فى أواسط القـرن التاسع انحطوا وتضعـضعوا وسادت عـليهم طائفة الفرغـيز وهى طائفة منهم، وقيل بل هى من التتر فلما ظهر جنكيز خان الذى كان على يديه انحطاط دولتهم فى آسـية الوسطى أيضا وإذلالها صارت من هـذا الحين سائر الدول القائمة بتلك الأنحاء وفى جهة العراق ومـا وراءها أيضا من الممالك الإسلامية تترية بعد أن كـانت تركيـة بيد السلاجـقة وغيـرهم ومازالوا على هذه الحـال إلى موت تيمورلنك فظهروا فى ممالكه واستولوا على أرمـينية وما بين النهرين ولبثوا هكذا إلى أواسط القرن السادس عشر للميلاد حـتى قام عليهم الصوفية وطردوهم وظهرت فى تلك الأيام الأزبكيـة، وهى أمـة يقـال إنهـا بقـايا الويغـور كـانت نازلة فى جنوب تركستان الصينيـة تحت جبال تيان شان فاستولت على تركسـتـان الشرقية وما جاورها من المدن والبلدان إلى حـدود الفـرات ولم يمض عليهـا قـرن أوبعض قرن حـتى استظهرت عليـها أمة أخرى تركية تعـرف بالتركمان. قال أصـحاب التاريخ : وليس للترك بقية مهمة الآن إلا الأزبكية والتركمان المقيمون الآن فى مواطنهم القديمة .

واعلم أن أشهر الدول الـتركية التى ملكت ببلاد الإسـلام والروم مما وراء النهر وخراسان هم بنو ساسان وقد ملكوا زهاء مائة وسبعين سنة وكان انقراضهم فى سنة تسعـين وثلاثمائة للهجرة وبنو سـبكتكين وهم المعرفون بالدولة الغـزنوية لاتخاذهم مدينة غزنة قاعدة لمملكتهم وقد ملكوا بلاد السامانية وكانت مدة ملكهم مائة واثنتين وسبعين سنة ثم انقرضوا فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة للهجرة، ثم نشأت الدولة السلجـوقيـة فكانت مدة ملكهم مـائة وأربعين سـنة ابتداؤها من سنة تسع وثمـانين وخمسـمائة للهجرة وهى أعظم دوله وأوسـعها كلمة ثم تفرع منهـا عدة دول أخرى منها الدولة الخـوارزمية التى قام على رأسـها خوارزم شاه وهذه قـد ملكت ما وراء النهر بعد السلاجقة وكانت مدة ملكهـا مائة وثمانيا وثلاثين سنة وانتهاؤها سنة ثمان وعشرين وستـمائة للهجرة وقد ملك حلب والشام فـرع من هذه الدولة أيضا يعرف بدولة تتش بن ألب أرسـلان وكان أوّلهم أتسز بـن أبق ملك حوالى سنة أربعـمائة وثمان وستين ومازالوا إلى أن انقرضوا على يدى تمرتاش بن إيلغازى سنة ست عشرة وخمـسمائة ومنهم أيـضا بنو أرتق ملوك ماردين وديار بكر وأولـهم أرتق بن أكسب ولكنهم لم يلبثوا أن انقرضوا على يد هولاكو سنة سبـعين وسبعمائة للهجرة ومنهم

الأتابكية ملوك حلب والشـام وأولهم قسيم الدولة آق سنقـر مملوك السلطان ملكشاه تولى الملك فى صدر سنة اثنتيـن وثمانين وستمائة للهجـرة ومنهم دولة بنى طغتكين بالشام وأولهم طغتكين أحد رجال تتش بن ألب أرسلان ملك فى القرن الخامس ثم انقـرض ملكهم بعـد أواسط القرن الـسادس ومنهم فـرع آخـر ملك فى بلاد الروم وأولهم قطلمش تولى الملك في أواسط الخامس ثم انقـرضوا بظهور الدولة العثـمانية وذلك حوالى سنة تسع وتسعين وستمائة للهجرة أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية .



(المقالة الثامنة)

(فى تأسيس الدولة العثمانية وفى ظهور ملوكها إلى مجئ السلطان سليم إلى ديار مصر واستخلاصها من أيدى المماليك الشراكسة المعروفين بدولة المماليك الثانية)

قد علمت مما تقدم كيف اجتمعت كلمة بعض أصحاب التاريخ على أن ترك الذى هو جد الأتراك هو من ولد يافث بن نوح عليه السلام ثم هم يقولون أيضا بأن أوغز بن قراخان الذى هومن ولد ترك هذا كان ملكا جليل القدر عظيم الشوكة تسلط على بعض البلاد فى أيام الخليل إبراهيم عليه السلام وتصرف فيها فكانت تركستان التى هى توران داخلة تحت سلطانه قالوا: وانقسمت مملكة أوغز هذا بعد موته إلى خانيات منها ثلاثة ويقال لها الأسهم الثلاثة فاختصت بالأوغز الشرقى إلى حدود الصين ثم ثلاثة أخرى ويقال لها الحاطمة ، إحداها خانية الجبال والثانية خانية البحر والثالثة خانية السماء أو خانية القبة الزرقاء ومن هذه الخانية نشأ سبط كابى الذى جاء منه آل عثمان فلما كانت سنة خمسمائة للهجرة أى سنة ست ومائة وألف للميلاد شبت نيران الحروب بين أسباط تلك الخانيات واشتدت وعلا لهيبها فأبادت لفيفهم أو كادت ومزقت من بقى منهم كل ممزق فسار أحد أولاد كابى المذكور إلى ماهان واستوطنها فاجتمع حوله بعض بقايا تلك الأسباط وخضعوا لكلمته ولبث ما شاء الله ثم مات عن عدة بنين منهم كابى ألب وكان عظيما مهيبا ثم مات كابى ألب

المذكور عن ابن اسمه سليمان وكان سليمان هذا مغازيا حسن التدبير مهيبا مطاع الكلمة فلما كان حوالى سنة إحدى وعشرين وستمائة للهجرة أى حوالى الجيل الثالث عشر للميلاد قدم جنكيزخان سلطان المغل فى عسكر جرار ونزل على خراسان وضيق عليها حتى أخضعها فلم يطق سليمان شاه بن كابى ألب المذكور الصبر على ذلك وكان مقيما بماهان كما تقدم فرحل عنها على رأس خمسين ألفا من قومه إلى أرزنجان وخلاط من بلاد الأرمن ولبث مهاجرا سبع سنين حتى طرق السلاجقة الغز خراسان وخوارزم وفتحوها فلما علم بذلك قفل بمن كان معه إلى بلده فبينما هو يجتاز الفرات عند جعبر إذ غرق فحزن عليه قومه وبنوا له قبرا يقال إنه باق إلى يومنا هذا يعرف بترك مزارى وخلف سليمان شاه المذكور أربعة بنين وهم سغور زنكى وكونطغدى وأرطغريل ومعناه المستقيم وكوندز فانقسموا مع من كان معهم من القوم بعد دفن سليمان شاه وافترقت كلمتهم فمنهم من شاء العود إلى الوطن ومنهم من فضل الغربة والنزول على بعض الجهات الغربية وهؤلاء قد انضم إليهم الأمير أرطغريل والأمير كوندز وكانوا زهاء أربعمائة عشيرة فيها أربعمائة وأربعة وأربعون فارسا مدججين بالسلاح فساروا فى طريقهم قاصدين الجهات الغربية وبينما هم على هذا الحال إذ رأوا فى طريقهم جيشين يقتتلان قتالا عنيفا وكان أحدهما قليل العدد والعدد وكان هذا الجيش الضعيف للسلطان علاء الدين السلجوقى من ولد ملكشاه بن قلج أرسلان والثانى من المغل الذين هم أعداء للترك فمال الأمير أرطغريل بقومه إلى معاونة جيش السلطان علاء الدين وانضم إليه فاشتد القتال بين الفريقين شدة بالغة ومازالوا يقاتلون حتى دارت الدائرة على المغل وتم النصر للسلاجقة وجاء الخبر بذلك إلى السلطان علاء الدين ففرح واستدعى إليه الأمير أرطغريل وأحسن لقاءه وأدناه من مجلسه وخلع عليه وعلى أخيه كوندز وأنزلهما وقومهما بمراعى نومانية وأرمينية أو بجبال قراجاطاغ عند أنقرة وأخلص أرطغريل فى خدمة السلطان علاءالدين وبالغ فى طاعته وقاتل معه فى حروبه المتتابعة مع الروم والمغل وأبلى في كل منها بلاء حسنا فأقطعه أيالة عظيمة واقعة بين بلاده وبلاد الروم يقال لها سلطانية فنزل فيها بجماعة ممن لاذوا به وأحسن السيرة فى أهلها فعلت كلمته فلما كان حوالى سنة سبعمائة للهجرة أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف ميلادية مات أرطغريل وقيل بل كانت وفاته حوالى سنة تسع وتسعين وسبعمائة للهجرة أى سنة ست وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية بعد أن تغلب على قوطاهية وأخذها من الروم سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين

ومـائتين وألف مـيلادية، وفـى قول بعض المؤرخـين من المتـقدمـين ومنهم المؤرخ جورجى فرانزس الرومى المولود بمدينة القسطنطينيـة إن أصل الدولة العثمانية آت عن ملوك الروم بالسلالة وملوك الفـرس بالكلالة. قال بعد كلام فلمـا كانت سنة ثلاثين ومائة وألف ميلادية خرج الإمبراطور يوحنا كـونيوس إمبراطور الروم ومعه ابن أخيه أوغسطس المدعو يوحنا أيضا لقتال الملوك السلجوقيين فقاتلهم أياما حتى تغلب على كثير من قلاعهم وحصونهم وأقام على هذا الحال حتى نفدت الذخيرة أو كادت وعز القوت فى تـلك الأصقاع البـاردة ومات أكـثر دواب الحمل والخـيل من قلة العلف فخاف الإمـبراطور شر العاقـبة إذا ظل على هذا الحال وجعل يدبر حـيلة للخلاص ورسم بتوزيع مـا بقى من الخيل على أعظم فرسانه وأشـدّهم بأساً وهم من طوائف الروم والإيطاليان وجعل يجول بين الصفوف وينتقى منهم من يتوسم فيه سمة الفتوة والشجاعة فبينما هو على هذا الحـال إذ رأى بين الصفوف فارسا من الطليان حسن الشكل أعجبـه منظره فنظر إلى ابن أخيه أوغسطس وقـال له: ادفع فرسك إلى هذا الشاب ليمتطيه فاستعظم أوغسطس هذا الأمر فشدّد عليه الإمبراطور فى ذلك فترجل أوغسطس عن فرسـه وهو يتميز غـيظا ودفعه إلى الشاب وسـار من ساعته مغـضبا قاصـدا ملك العجم فلمـا علم ملك العجم بقـدومه ومـا وقع له مع عمـه فرح به وأحسن لقـاءه وقربه إليـه ورفع منزلته فدان أوغـسطس بدين الإسلام فـزوَّجه ملك العجم بابنـته وأقطعهـما بلادا كثـيرة وأجزل عطاءهمـا، وكان أوغـسطس هذا شابا جميـلا رقيق الشمائل عـارفا بعلوم اليونان ولغة الـعرب مهذبا طلق الوجـه كريما مقدامـا لين الجانب فلقبـه الفرس بالشلبى وأحبـه الناس كثيرا ومـالوا إليه بقلوبهم فعلت كلمته وطارت شـهرته وعمت مهابته سائر مدن آسـية وولدت له زوجته ولدا فسماه سليمـان وهذبه وعلمه العربية واليونانية وبالغ فى تهذيبـه فترعرع وشب على مكارم الأخلاق وأحسن الطباع فأحبتـه الرعية ومالت إليه فلما مات أبوه تولى مكانه وسار فى قومه سيـرة حسنة وكان ميالا إلى الفتح والجهاد فاسـتولى على الكثير من البلدان وضم إلى مملكتـه كثيرا من مملكة الروم المجاورة لـبلاده فاتسع نطاق ممـلكته وارتفعت كلمتـه وطار صيته فى الآفاق. قـال: فكان أوغسطس هذا الذى هو يوحنا جدّا للأمير أرطغريل خان الذى هو أبو الأمير عثمان رأس ملوك آل عثمان، وأوهم بعض أهل التـاريخ من المتأخـرين ومنهم أدواردس فوكسوك الذى ترجم تاريخ أبى الفرج المـلطى إلى اللاطينية وجـعله هدية لكرلوس الثانى مـلك الإنكليز عـام ثمان وأربعين وسـتمائة وألف ميـلادية أى عام ثمان وخمـسين وألف هجرية فقـال بعد

كلام، : ولم يتسن لأصحاب التاريخ إلى الآن معرفة شيء حقيقي عن سليمان شاه جد آل عثمان ولا إلى من ينتهي نسبهم وحاصل ما نقلوه من أخباره هو أنه لما تغلب جنكيزخان ملك التتر على أكثر البلاد ودان له أكثر مدن آسية خرج سليمان شاه المذكور حوالى سنة إحدى عشرة وستمائة للهجرة فى نفر من قومه وسار إلى تخت الدولة السلجوقية وكان معه أربعة بنين وهم سنقور زنكي وكدنطغدى وأرطغريل وكوندز فبينما هم يعبرون الفرات إذ غرق سليمان شاه المذكور فافترق بنوه واختلفت كلمتهم فذهب اثنان منهم وهم سنقور زنكي وكدنطغدى ببعض القوم إلى الجهة الجنوبية من الفرات وسار أرطغريل بك وكوندز مع من بقى إلى تخت السلطان علاء الدين السلجوقى صاحب قونية ونزلوا فى جواره فأحلهم محلا رحبا وأقطعهم قرجيطاغ فمازالوا بها حتى مات أرطغريل حوالى سنة سبع وثمانين وستمائة هجرية أى سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف ميلادية أهـ

وقال العلامة ابن خلدون بعد كلام طويل: والظاهرأن ملوك بنى عثمان كانت إلى هذا العصر من أعقاب على بك وعلى بك صهر محمد باك أحد أمراء التركمان من بنى جق أو أقاربه يعنى أعقاب أقاربه قال: ويشهد بذلك اتصال هذه الإمارة فيهم يعنى الإمارة على التركمان مدة هذه المائة سنة قال: فلما اضمحل التتر من بلاد الروم واستقر بنو ارتنا بسيواس وأعمالها غلب هؤلاء التركمان على ماوراء الدروب إلى خليج القسطنطينية ونزل ملكهم مدينة برصا من تلك الناحية وكان يسمى أرخان ابن عثمان جق فاتخذها داراً لملكهم ولم يفارق الخيام إلى القصور وإنما ينزل فى خيامه فى بسيطها وضواحيها إلى أن قال أهـ.

قلت : ومع اجتماع كلمة بعضهم على أن الترك إنما هم من ولد يافث بن نوح عليه السلام واختلاف السواد الأعظم منهم فيمن هو جد آل عثمان الأول فقد عادوا بعد تأويل وتعليل إلى القول بأن سليمان شاه هو رأس هذه العائلة العظيمة التى دوخت بحروبها وغاراتها المتتابعة ثلاثة أرباع المعمور من الأرض وقلبت تخت الممالك العظيمة وأبادت الكثير من الأمم والشعوب الذين قاموا فى وجهها فاستولت على ممالك الدولة العباسية وعلى بعض مملكة الدولة الغزنوية لآل سبكتكين والدولة السلجوقية فى الروم وفى كرمان والشام ودولة المماليك فى مصر والشام ودولة الأتابكية فى الموصل ثم الفرنجة فى بعض مدن الشام وقارة أوروبا وجزائر العرب وجزء عظيم من قارة أفريقية وجزائر بحر الروم وغيرها مما هو باق بعضه فى حوزتها إلى يومنا هذا وأنه بموت سليمان شاه المذكور ظهرت كلمة ابنه أرطغريل واتسعت

شهرته ودوّخ أكثر البلدان المجاورة لولايته الصغيرة التى أقطعه إياها علاء الدين ومازال على دأبه من الغزو والجهاد وتوسيع أرجاء مملكته كل أيام حياته حتى مات فى سنة ثمانين وستمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه فى هذه الإمارة زهاء اثنتين وخمسين سنة بالتبعية لسلاطين قونية السلجوقيين.

وبموته قام بعده ولده الأمير عثمان وكان يقال له عثمان جق كما رواه ابن خلدون فحذا حذو أبيه فى الغزو والجهاد ولبث يقاتل الروم ويهاجم بلادهم حتى استخلص من أيديهم بلادا كثيرة ووقعت هيبته فى قلوبهم وخافوه فأرسل إليه سلطان السلجوقيين منشورا ولواء أبيض وطبولا إعلانا بإمارته وولايته على تلك الأصقاع ولقبه بالغازى فعلت من ذلك الحين كلمته وكبرت مهابته وأحسن السياسة والتدبير ومازال مثابرا على الغزو والجهاد وفتح البلدان وتدويخ المدن حتى أحس بزوال الدولة السلجوقية ورأى من اختلال أحوالها وزوال هيبة القيصرية الرومية وضعضعة أمورها بسبب الخلاف الواقع فى أمر الدين بين جماعة المسيحيين ما دفعه إلى طلب الملك ومال به إلى جانب الظهور والاستبداد بملك السلجوقيين فجعل حينئذ يمهد الأسباب ويأتى على كل أمر منها من أقرب الأبواب حتى قدر الله بانقراض الدولة السلجوقية فى سنة تسع وتسعين وستمائة هجرية أى سنة تسع وتسعين ومائتين وألف ميلادية واندرست معالمها من الأناطولى ولم يبق أحد من سلاطينها واستقل كل من كان تحت حكمها من الأمراء وتقاسموا البلاد فاختص الأمير عثمان المذكور بجزء من مملكة بروسة وخطب له فى بعض أعمالها ولما استقرت به الإمارة أحسن السياسة ورتب أمور البلاد على ما فيه المصلحة ثم تجرد للغزو وفتح المدن والأمصار، وكان شهما جليل القدر عارفا بفنون الحروب والقتال ففتح الفتوحات العظيمة بنفسه وعلى يدى ولده أورخان بك وأخذ كثيرا من المدن القياصرة فكبرت مملكته واتسعت أرجاؤها وظهرت وعرفت من ذلك الحين بالدولة العثمانية ثم نقل تخت مملكته هذه إلى مدينة ينى شهر وأقام بها على أحسن ما يكون من الصولة والبأس حتى مات فى سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلثمائة وألف ميلادية وكان كريما عالى الهمة أبىّ النفس جوادا قيل ولذلك لم يترك بعد موته شيئا لا من الأموال ولا من النفائس التى جمعها فى غزواته وفتوحاته الكثيرة ولم يوجد عنده إلا بعض الملبوس ومسبحة كانت أعز شىء لديه وكانت مدة ملكه خمسا وعشرين سنة وقيل بل سبعا وعشرين .

وقام بالأمر بعده ولده أورخان الغازى تولى السلطنة فى السنة التى مات فيها أبوه سنة ست وعشرين وسبعمائة هجرية أى سنة خمس وعشرين وثلاثمائة وألف ميلادية فأحسن التدبير ونظم الأمور وعدل فى الرعية فاجتمعت القلوب على محبته وولى أخاه علاء الدين الوزارة فقام بها خير قيام وأخذ فى تنظيم الأمور وسن القوانين وإعلاء شأن المملكة وكان الغازى أورخان المذكور محبا للغزو والفتح كأبيه ميالا لتوسيع نطاق المملكة ففتح مدينة بروسة وبالغ فى تحسينها بالمبانى الفاخرة والآثار العجيبة ثم نقل كرسى مملكته إليها ولم تقعده كثرة حروبه عن تنظيم عسكره وترتيبهم على أسلوب جديد بعد أن كانوا فى أيام أبيه أخلاطا من فرسان التركمان وغيرهم فأنشأ وجاق الانكشارية ورتبه وأحسن ترتيبه فكان له عونا على كثرة الفتوح والمغازى وهابه الملوك وبلغت شهرته مبلغا عظيما ولكن عاد أولئك الانكشارية بعد قليل فصاروا أعداء لمن تولى السلطنة فكان السلطان لا يأتى أمرا إلا بإشارتهم ولا يعمل عملا إلا برضا كبارهم فتبدل خيرهم شرا ونفعهم ضرا وكثرتهم وبالا ومازلوا على هذا الحال من التصرف فى معظم الأمور واختصاصهم بالرياسة والسياسة حتى أذلهم السلطان محمد الثانى ومزق شملهم وفرق كلمتهم وشردهم تشريدا ، ولما دانت للسلطان أورخان الأمور عمد إلى غزو بلاد اليونان فجهز عليها جيشاً عظيما للغاية وقاتلها ففتح مدنها وبلدانها وأحسن معاملة أهلها فمالت إلى محبته القلوب واجتمعت على طاعته الخواطر وسار فى غزواته يرافقه الأقبال حتى بلغ خليج القسطنطينية وبوغاز كاليبولى وكان الإمبراطورية الرومية فى هذا الحين آخذة فى الانحطاط إلى حضيض الدمار لاسيما بعد أن ضعضعتها الحروب الداخلية التى سببتها فتنة يوحنا كاتا كوزين نائب الإمبراطور يوحنا باليولوغوس ووصيه، وتحرير الخبر بالإيجاز أنه لما كثر عبث كاتا كوزين المذكور بأمور الدولة وأساء التصرف أبغضه الناس بغضا شديدا وهمّ الروم بخلعه فلما آنس منهم ذلك راسل آل عثمان واستمدّهم فأمدوه وقويت عزيمة الترك على التوغل فى وسط أوروبا فغزوا وفتحوا عدة مدن منها وكثيرا من القلاع والحصون واستولوا عليها وتصرفوا فيها وسار الأمير سليمان أكبر أولاد السلطان أورخان فاجتاز بوغاز شنق قلعة فى سنة ستين وسبعمائة هجرية أى نحو سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وألف ميلادية وفتح مدينة غاليبولي التى هى مفتاح القسطنطينية ثم اخترمته المنية، فحزن عليه أبوه حزنا عظيما وأفرط فى البكاء والنحيب فمات غما فى السنة التى مات فيه ولده أى سنة اثنتين وستين وسبعمائة هجرية .

فقـام بالأمر بعده ولده السلطان مـراد الأول وكان شجـاعا مهيـبا مغـازيا فلما استقـرت به السلطنة عمـد إلى فتـح أدرنه ففـتحـها وسـار إلى الصرب والبلغـار فأخضعهـما وكانت بلاد الأناطولى لم تزل مستقلة فى حكمهـا تابعة لبعض الأمراء من الترك يتصـرفون فى حكمها كمـا يشاؤون فحاربهم وأخـضعهم وأدخلهم تحت طاعته وزوّج ابنه الأمير بايزيد بابنة أمير كرمـيان تزلفا إلى ولاة آسية الصغرى وتقربا منهم ليتسنى له بذلك ضم بلادهم إلى أملاكه، فـفاز بذلك وضم إلى بلاد مقاطعة كرمـيان وغيرها من مـدن آسية الصغـرى واستولى على مـدينة كوتاهيا وكان أمـير كرميان وهبهـا لابنته يوم زفافها ثم سار بعسكره بعد ذلك للحـمل على مقاطعتى مقدونيـة وبلاد الأرنؤد فأخضع كثـيرا من مدنهما واسـتفحل أمره واتسـعت كلمته وتهيب منه جـميع الأمراء المجـاورين له فنهض أهل الصرب والقـلاخ وأهل دلماطيا والمجر والبلغار وتحالفوا على قتاله وإيقـافه عند حده وخرجوا فى جيش جرار فركب عليهم وقاتلهـم جميعا وهزمـهم وشتت شملهم وأبلى فيهم بلاء حـسنا وبينما هو يغدو ويروح فى ساحة القتال ويكر بجواده أذ وثب عليه جندى من البلغار كان بين جثث القتلى وطعنه بخنجر فى أحـشائه فمات لحينه فتقهقـرت عساكره وانكفوا عن القتـال. قال بعض أصحاب التـاريخ: وهذا القرن هو الدور الأول للدولة العثمـانية فإنها فى مـدة المائة سنة هذه عظم أمرها وتمكنت وثبتت أركانهـا وظهرت فى مظهر الدول الكبار بعد أن كانت إمارة صغـيرة ولم يتم لها هذا إلا بمحافظة سلاطينها على وصية الغازى عثمان قالوا: وذلك أنه لما حضرته الوفاة دعا إليه ولده أورخان وأوصاه بوصـايا ثلاثة فقـال له: يا بنى تمسك فى كل أمـورك بالشريعـة الغراء وشـاور فى المهمات أهل الرأى والدهاء، وأعط كل ذى حق حقـه من التكريم والإنعام لاسيما العلماء الأعلام الذين هم دعائم الدين مصداقا لقول صاحب الشريعة خير الناس من ينفع الناس. وتنبـه لما هو أعظم من ذلك هو التعظيم لأوامـر الله والرأفة بعـباد الله واطلب خير النتـائج من إعلاء كلمة الله والغزو لوجه الله فإنك خليـفتى من بعدى أهـ.

قالوا فكانت هذه الوصية سنة مرعيـة بين سلاطين آل عثمان يتلقاها الخلف عن السلف والملك لله يؤتيه من يشاء.

ولما مات السلطان مـراد الأول قام بالأمر بعـده ولده السلطان بايزيد الأول فى السنة التى مات فيهـا والده وكان بطلا مقداما عارفا بفنون الحـرب والقتال وضروب السياسة ميـالا إلى الغزو والجهاد فلما استقرت به السلطنة عـمد إلى إخضاع ما بقى

من الممالك الصغيرة التى كانت إلى هذا الحين مستقلة فى الأناطولى فدوخها وأخضعها لسلطانه ثم سار فى عسكر جرار إلى أيالات مقدونية والبلغار والروم إيلى ففتحها وأدخلها تحت طاعته فكبر أمره وعظمت هيبته ودانت له الأمور فلما أنس من الأيام النصر تهيأ لفتح القسطنطينية وإخضاع ممالك الفرنجة فزحف بجيش كبير نواحى أوروبا واستولى على مدينة سالونيك وشن الغارة على بلاد المجر وانتصر على جيوش الفرنجة فى موقعة هائلة ثم سار إلى القسطنطينية فحاصرها وكان إمبراطورها يومئذ مانوئيل فخاف وهاله كثرة عساكر السلطان بايزيد فأرسل إلى من جاوزه من الملوك يطلب منهم المدد على قتال الترك فخاف السلطان بايزيد من اتحادهم وخشى عاقبة أمرهم فعقد مع الروم صلحا لعشر سنين وأن يعطوا له فى كل سنة ثلاثين ألف ريال وأن يجعل فى القسطنطينية قاضيا من المسلمين ويبنى فيها مسجدا ثم رحل عن القسطنطينية ولبث قليلا حتى تبين من الفرص أنفعها فعاد إلى حصارها وشدد فى الحصار ولم يراع ميثاقا ولا عهدا وبينما هو يراسل الرمى على أسوارها وحصونها إذ جاءته الأخبار بركوب تيمورلنك بعسكره إلى بلاده وفتح الكثير منها وضمها إلى سلطنة التتار فاضطرب السلطان بايزيد من ذلك واستعظمه جدا ورحل عن القسطنطينية ليدفع تيمور لنك عن بلاده فالتقى الفريقان عند مدينة أنقره واقتتلا قتالا عنيفا يوما كاملا وقد مات فى ذلك اليوم خلق كثير جدا حتى خاضت الخيول فى الدماء ثم انكشفت المعمعة عن نصرة تيمورلنك وهزيمة السلطان بايزيد وسقوطه فى قبضة تيمورلنك فسجنه فى قفص من الحديد ومازال فى سجنه هذا إلى أن مات سنة خمس وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: وكان قد تغلب السلطان بايزيد فى آخر أيامه هوى النفس فتهافت على ما لا يليق من الإسراف والتبذير والاسترسال فى اللهو والخلاعة وغير ذلك من دواعى التأخير فاغتنم تيمورلنك هذه الفرصة وسار على مملكة بايزيد فى سبعمائة ألف مقاتل فقابله السلطان بايزيد وقاتله فوقع فى يده أسيرا وفرح ملوك أوروبا بسقوط السلطان بايزيد فى قبضة تيمورلنك فرحا عظيما وأرسلوا إلى تيمورلنك رسائل التهانى فكان ممن أرسل ذلك شارلس الثالث ملك الفرنسيس فرد عليه تيمورلنك ردًا حسنا جدا وأوصاه خيرا بمن يقدم إلى بلاد الفرنسيس من تجار الفرس كما أنه ضمن لتجار الفرنسيس الذين يقومون على بلاد فارس كمال الراحة والرفاهية.

(مطلب)

(ما جرى بعد موت السلطان بايزيد من الاختلال)

ولما مات السلطان بايزيد كاد يختل نظام الملك إذ قامت الفتنة بين أولاده واستبدّ كل واحد منهم بقسم من مملكة أبيه فتجزأت المملكة إلى عدّة إمارات صغيرة وجرى عليها ماجرى لدولة آل سلجوق وخرجت عن الطاعة فى خلال هذه الفتنة ولايات البلغار والصرب والقلاخ واستمر النزاع بين أولاد السلطان بايزيد زهاء إحدى عشرة سنة وكان أحد أولاد بايزيد المدعو عيسى قد استبدّ بحكم البلاد الواقعة على مقربة من أنقرة وسينوب والبحر الأسود فوثب عليه أخوه محمد وقتله بعد حروب يطول شرحها واستولى على جميع تلك الأصقاع وسار بلا منازع من إخوته إلى آسية الصغرى واستخلص أخاه موسى وكان فى أسر تيمورلنك وسيره فى جيش عظيم إلى قارة أوروبا لقتال أخيه سليمان فلم يقو عليه بل انهزم أمامه وعاد إلى آسية مدحورا ثم أصلح حال جيوشه وعاد بهم مرة ثانية لقتال أخيه سليمان المذكور فالتقى الجمعان واقتتلا قتالا شديدا فقتل سليمان خارج أسوار مدينة أدرنة وتم الظفر للسلطان محمد، وكان آل عثمان لما اشتدّ الخصام بين أولاد السلطان بايزيد وعمت الفتنة واستفحل أمرها اختاروا الأمير سليمان هذا سلطانا عليهم فى مملكة أبيه التى بقارة أوروبا فبايعوه بالسلطنة وولوه أمورهم ولكنه كان ضعيف الرأى سيء التصرف منهمكا فى الملاذ مولعا بالملاهى والفجور خامل الفكر فلم تطل سلطنته حيث مات فى سنة اثنتى عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة عشر وأربعمائة وألف ميلادية، ولما تم الظفر لموسى المذكور سار بمن معه من العساكر وركب على بلاد الصرب وعاقب أهلها على خروجهم وتمردهم وقاتل سمسون ملك المجر حيث أنجد أهل الصرب عليه وكاد يظفر به فظهر من هذا الحين نبله وعلت كلمته واتسعت شهرته فداخله الطمع وطمحت نفسه إلى الاستقلال بالملك والخروج عن طاعة أخيه السلطان محمد وأخذ جميع بلاد أبيه التى بقارة أوروبا وسار بعسكره لحصار القسطنطينية فحاصرها وضيق عليها ليفتحها ويجعلها تخت ملكه فأحس السلطان محمد بما وراء ذلك وخشى العاقبة وأتت إليه رسل قيصر الروم تشكو من فعال أخيه موسى وتستنجليه فسار إلى القسطنطينية فى جيش عظيم جداً وقاتل أخاه فكانت الحرب بينهما سجالا ثم تقوّى السلطان محمد بعسكره فزحزح الأمير موسى عن القسطنطينية وتحالف

السلطان محمد مع قيصر الروم وأمير الصرب على إذلال الأمير موسى وتمزيق شمل من معه من الجنود فأعملوا الفتنة وبثوا الدسائس بين عسكر الأمير موسى حتى نفرت منه قلوب الجند وخانه كبار القواد ثم ركب عليه السلطان محمد بعسكره وانتصر عليه نصرة عظيمة وفر موسى هاربا فتبعه فارس من فرسان أخيه محمد وقتله واحتز رأسه وأتى به إلى أخيه وذلك سنة ست عشرة وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ثلاث عشرة وأربعمائة وألف ميلادية وفى رواية أنه قتل بين يدى أخيه صبرا.

(فصل)

(فى استقلال السلطان محمد الغازى بالملك)

ولما مات الأمير موسى انفرد محمد بالسلطنة على ما بقى من ملك آل عثمان وبايعه الناس كافة فكان هو الخامس من ملوك آل عثمان على المتفق عليه عند أصحاب التاريخ وقد عرف عندهم بالسلطان محمد چلبى الغازى وكان ملكا جليل القدر واسع المعرفة حليما فصفت له الأيام ودانت له الأمور وجاءت إليه رسل ملوك الفرنجة برسائل التهانى والتبريك فأكرمهم وأحسن وفادتهم وأخذ يمهد الأمور ويدبر أحوال المملكة فعقد الصلح مع الأجانب وقوى معهم روابط المودّة والاتحاد وحافظ على محالفة مانوئيل قيصر الروم الذى لولاه لخيف على ملك آل عثمان من الدمار وردّ إليه جميع ما أخذه أسلافه من القلاع والحصون الرومية فمالت إليه الخواطر واجتمعت على محبته القلوب وعلت كلمته وكان عادلا ذا شفقة على الرعية موفقا فى غزواته ونقل كرسى مملكته إلى مدينة أدرنة وأنشأ السفن البحرية وجعل لها جنودا يقاتلون على ظهور تلك السفن وأعاد رونق السلطنة إلى ما كان عليه بعد أن كاد يتولاها الدمار بأسباب غارات تيمورلنك ، وظهر فى أيامه رجل اسمه بدر الدين من كبار علماء زمانه وكان متوليا القضاء فى عسكر الأمير موسى أخى السلطان محمد فلما انهزم عسكر الأمير موسى وتمزق شملهم حكم على بدر الدين القاضى المذكور بملازمة مدينة أزنيك فلبث بها حينا ثم هرب منها واختفى خبره أياما ثم ظهر يدعوإلى مذهبه وهو المساواة بين الناس على اختلاف طبقاتهم فى الأموال والمتاع وعدم التفريق فى ذلك بين الغنى والفقير والمسلم والمسيحى فتبعه خلق عظيم من المسلمين والمسيحيين وكان يقول إن الناس جميعا إخوة لأب واحد وأم واحدة

فذاع خبره وكثرت أحزابه ولبى دعوته القاصى والدانى وخيف على بهجة الدولة العثمانية من الزوال بسبب دعوته فسير إليه السلطان محمد جيشا عظيما ومقدمه ابن أمير البلغار الذى كان أسلم وتولى العمالة على مدينة سمسون فخرج عليه أحد زعماء مذهب بدر الدين المذكور فى جيش كبير وقاتله وهزم عسكره شر هزيمة وقبض على ابن أمير البلغار وقتله فلما جاء الخبر بذلك إلى السلطان محمد اضطرب واستعظم هذا الأمر جدا وجمع جيشا عظيما وجعل رئيسه الوزير الأول بايزيد فسار بايزيد لقتال ذلك الزعيم فلاقاه على مقربة من أزمير وكان بدر الدين قد سار إلى بلاد مقدونية فاقتتلت عساكر الوزير مع عساكر بدر الدين واشتد القتال بين الفريقين وانكشف عن هزيمة عسكر بدر الدين وسقوط مقدمهم المدعو مصطفى فى قبضة الوزير فأمر بقتله فقتلوه بين يديه وقتلوا عددا كثيرا ممن كانوا معه وسيروا من يقبض على بدر الدين فى بلاد مقدونية فتحرز بدر الدين وكانت بينهم وبينه وقائع كثيرة وحروب يطول شرحها ثم قبض عليه وقتل شنقا فى سنة عشرين وثمانمائة هجرية أى سنة سبع عشرة وأربعمائة وألف ميلاديه بعد استصدار فتوى في شأن ذلك. قال عمر فى تاريخه ونص الفتوى من أتاكم وأمركم جميعا على رجل يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه، فسكنت بقتله الفتنة وزالت أسبابها واطمأنت قلوب الناس وبقى السلطان محمد عزيزاً مهيباً محبوباً مطاعاً إلى أن أدركته الوفاة سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة وألف ميلادية. قال بعض كتاب الأخبار: والسلطان محمد هذا أول من أرسل الهدية إلى أمير مكة قدرا من الذهب فى كل عام للنفقة على فقراء مكة والمدينة وهى التى يطلق عليها اسم الصرة الآن ولكنها لم تكن تبلغ ما بلغته الآن وقال آخران: السلطان سليم الأول هو أول من أرسل الصرة المذكورة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بعد فتح الديار المصرية وإزالة دولة الجراكسة الثانية والقول الأول هو الذى عليه المعول.

وبموت السلطان محمد چلبى قام بالأمر بعده (ولده السلطان مراد الثانى) بويع له بالملك سنة أربع وعشرين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى عشرين وأربعمائة وألف ميلادية وعمره يومئذ ثمان عشرة سنة فلما استقرت به السلطنة قام بتدبيرها أحسن قيام ووسع نطاقها وأبرم صلحا مع أمير القرمان وقرر اتفاقا مع ملك المجر على هدنة خمس سنوات وتفرغ لتدويخ من عصى وخرج عن الطاعة من ولايات آسية فلم يتم له ذلك حتى جاءته رسل مانوئيل قيصر الروم فى طلب العهد منه على

آن لا يحارب القيصرية الرومية بوجه ما وأن يسير إلى القسطنطينية اثنين من أولاد السلطان محمد الغازى رهينة على وفاء العهد فإن أبى ذلك أطلق القيصر سراح الأمير مصطفى ابن السلطان بايزيد وكان الأمير مصطفى المذكور قد اختفى خبره ولم يوقف له على أثر بعد واقعة أنقرة التى أسر فيها أبوه السلطان بايزيد الأول ثم ظهر فى أيام السلطان محمد الغازى عقب واقعة بدر الدين الخارجى وطالب أخاه السلطان محمد بالملك وأعانه على ذلك أمير القلاخ تعظيما للفتنة وإضراما لنارها فأغار الأمير مصطفى المذكور على إقليم تساليا من أملاك اليونان فطاردته جنود أخيه السلطان محمد ففر إلى سلانيك وكانت قد عادت إلى مملكة الروم مع غيرها من بعض الأيالات التى أرجعها السلطان محمد إلى قيصر الروم ونزل على عاملها مستجيرا فأجاره وطلبه السلطان محمد فلم يجبه قيصر إلى ذلك ووعد أنه يبقيه عنده ولايفك سراحه مادام السلطان على قيد الحياة فقبل السلطان منه ذلك ورتب لأخيه شيئا فى كل سنة فلبث فى جوار قيصر حتى سير قيصر رسله إلى السلطان مراد فى طلب ذلك العهد فامتنع السلطان مراد من إجابة قيصر إلى ما طلب فسير قيصر الأمير مصطفى المذكور ومعه عشر مراكب حربية فأتى بها وحاصر مدينة جاليبولى وضيق عليها فاستسلمت وامتنعت عليه قلعتها فأحاطها بطائفة من العسكر ليمنع عنها المدد وسار بمن بقى معه يريد أدرنه فسير إليه السلطان مراد جيشا عظيما ومقدمه وزيره بايزيد فلما التقى الجمعان برز الأمير مصطفى أمام صفوف ابن أخيه السلطان مراد ونادى على العسكر وخطب فيهم وقال: إنه هو أولى بالملك وأحق بالسلطنة من ابن أخيه واستنهض العسكر إلى نصرته فلبت الجيوش دعوته وقاموا لنصرته وقبض جماعة منهم على بايزيد وزير السلطان وقتله ثم سار الأمير مصطفى للقاء السلطان وكان السلطان متحصنا مع عسكره عند نهر صغير فلم يقترب الأمير مصطفى من ذلك المكان حتى وقعت الفتنة بين عسكره وخانه بعض قواده وتركه أغلب العسكر فكرّ راجعا إلى جاليبولى ولم يدخلها حتى قبض عليه بعض أتباع السلطان وأتوا به إليه فأمر به فقتلوه شنقا ولما سكنت الفتنة بموت الأمير مصطفى عمد السلطان مراد إلى الانتقام من قيصر الروم فسار إلى حصار القسطنطينية بجيش جرار وحاصرها وضيق عليها أياما ثم عاد عنها مدحورا لقيام الفتنة وخروج بعض الأيالات عن طاعته ومازال يراقب الفرص حتى مات مانيوئيل قيصر وخلفه على سرير الملك يوحنا باليولوغوس فراسل يوحنا المذكور فى دفع مبلغ من المال فى كل عام جزية وأن يسلم إليه جميع البلاد التابعة للقسطنطينية ويستثنى من ذلك

القسطنطينية وضواحيها أو أنه يتأهب لقتاله فقبل يوحنا هذه الشروط وسلم إلى السلطان مراد جميع القلاع والحصون التى كانت إلى هذا الحين فى حيازة الروم على سواحل البحر الأسود وسواحل الروم ايلى ومملكتى مقدونية وتساليا ثم ركب بعد ذلك بعسكره واستخلص أيضا جميع المدن والبلدان التى هى داخل برزخ كورنثوس ومازال يتقدم فى غزواته حتى توغل فى بلاد المورة وضم أكثرها إلى أملاكه، ولما شاع بين ملوك أوروبا خبر فتوحات آل عثمان ومثابرة ملوكهم على الغزو والجهاد خافوا من سقوط القسطنطينية فى قبضة الترك ومن زحفهم على بقية الممالك المسيحية فنهض عند ذلك أوجينيوس البابا وشرع فى عقد محالفة بين ممالك الفرنجة على مقاومة الترك ومنعهم وقام لادسلاس ملك بولونيا والمجر وأخذ على نفسه مقاومة الترك وجيش لذلك جيشا عظيما ومقدمه يوحنا هودياس القائد الشهير وانضم إلى هذا الجيش جمهور من الحربيين والمتطوعة من الفرنسيس والجرمانيين وساروا للقاء الترك فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا عنيفا ظفر فيه يوحنا فى معركتين عظيمتين واستظهر على الترك فخشى السلطان مراد شر العاقبة وعمد إلى المصالحة فتقررت القاعدة على أن ينسحب السلطان مراد بمن بقي من جيوشه فانسحب راجعا إلى كرسى مملكته فلما سكنت الفتن وزالت أسباب القلاقل خلع السلطان نفسه عن الملك وتنازل عنه لولده محمد فبايعه الناس وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ولقبوه بالفاتح واعتكف السلطان مراد عن الناس واعتزلهم والتزم العبادة والتهجد فلما علم لادسلاس صاحب بلونيا والمجر بخبره خالف العهد ونبذ الهدنة ظهريا وتقدم بعساكره لقتال الترك وحبب إلى ملك القرمان شن الغارة عليهم أيضا ليقعوا بين نارين فتقدم عند ذلك كبار الدولة إلى السلطان مراد فى رجوعه إلى منصب السلطنة لرد العدو عن البلاد فعاد إلى المنصب وجيش جيشا عظيما وسار به لقتال الأعداء فالتقى الفريقان عند مدينة وارنه واقتتلا قتالا عنيفا وثبتت جيوش المسيحيين أمام عسكر الترك واشتد القتال شدة بالغة وجرى الدم بين الصفوف مجرى الماء. قال بعض كتاب الأخبار: وكانت العساكر المسيحية قليلة فى هذه الواقعة لانفصال المحاربين من الفرنسيس والألمان عنهم بعد نصرتهم الأولى وكان لادسلاس فى حومة القتال ينادى على العساكر ويحرضهم ويستنهض هممهم ويكر بين المواكب وصفوف الترك كأنه الأسد الضارى حتى أصابه سهم فسقط ميتا وذاع خبر موته بين جنوده ففترت هممهم وتفرق شملهم فهمّ مقدمهم هودياس بجميع شتاتهم والرجوع بهم إلى ساحة القتال فلم يفلح وقد أعمل فيهم الترك القتل بحد السيف فكانت قتلاهم

زهاء عشرة آلاف فى هذه الواقعة الهائلة على ما رواه بعض أصحاب التاريخ وعاد السلطان مراد بعد هذه الواقعة وراية النصر تخفق على رأسه وتنازل عن السلطنة ثانية لولده وعكف على العبادة فلم ترض بذلك جماعة الانكشارية وأبوا إلا عوده إلى المنصب فعاد إليه كارها ثم لم يلبث أن جيش جيشا عظيما وسار به إلى بلاد الارنؤد ليضمها إلى مملكته وكان ممن تولى الحكم على شيء من تلك البلاد بالتوريث أمير اسمه يوحنا كاتريو فلما علم بقدوم السلطان مراد بجيوشه وتحقق أن لا قبل له على رده راسله فى أمر الصلح وعاهده على دفع الجزية فأجابه السلطان إلى ذلك وعاهده وأبقاه على ما بيده من البلاد وأخذ أولاده الأربعة رهينة عنده فاختلط ثلاثة منهم بمماليك السلطان حتى صاروا لا يمتازون عنهم فى شيء والتزم رابعهم وهو أصغرهم واسمه جورج بخدمة باب السلطان وما زال حتى تقدم وارتقى المناصب العالية لشجاعته وبأسه وذكائه ثم أسلم بعد ذلك وتجرد للغزو والجهاد وعرف باسم اسكندر بك فكانت له مواقع هائلة وحروب عظيمة فى خدمة الترك قال بعض كتاب الأخبار: ثم عاد بعد ذلك فندم على ما فرط منه من قتال المسيحيين وارتد إلى دينه وتعصب وصار من أكبر أعداء المسلمين وأشد المبغضين لآل عثمان فحرض الأهالى على الخروج وشق عصا الطاعة فكان من وراء ذلك من الحوادث والخطوب ما لا محل لذكره هنا، وركب أيضا السلطان مراد على قسطنطين صاحب المورة وباقى الأقاليم المتاخمة لتلك البلاد فدوخهم وأخضعهم لملكه ورتب عليهم الجزية وجرت بسبب ذلك حروب هائلة كثيرة بينه وبين الأرنؤد والمجر ومازال يغزو ويفتح البلاد حتى أصابته سكتة فمات فى سنة خمس وخمسين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة إحدى وخمسين وأربعمائة وألف ودفن بمدينة بورسه .

فقام بالأمر بعده ولده (السلطان محمد الثانى) بايعه أهل الدولة فى اليوم الذى مات فيه أبوه فكان سابع سلاطين آل عثمان. قال أصحاب التاريخ: وهو من أعظمهم همة وأعلاهم قدرا وكان بطلا مقداما شجاعا قوى الجنان موصوفا بالمغازى والحروب وكان أبوه السلطان مراد قد أوصاه قبل موته أن لا يغمد له سيفا ولا يبطل له جهاداً حتى يفتح مدينة القسطنطينية فجيش جيشا عظيما وأخذ يتأهب لحصارها وكان نظام القيصرية الرومية فى هذا الحين على شفا جرف هار بسبب المنافسات الدينية ولذلك أصبحت القيصرية فى غاية الضعف فزالت هيبتها وانحطت عظمتها فلم يبق للقيصر من السلطنة إلا مجرد الرسوم والعادات البسيطة. قال بعض كتاب الأخبار: وبلغ من خلل أحوال الامبراطورية الرومية وانحطاط قدرها أنه لما وردت

الأخبار إلى القسطنطينية بأن السلطان محمد الثانى ابتنى قلعة بوغاز كسن وكان قد ابتناها لغرض سد خليج القسطنطينية على سفن الإمبراطورية والتضييق عليها خاف الروم واضطربت أحوالهم وعقدوا للمذاكرة فى ذلك مجلسا كبيرا فى كنيسة أيا صوفية فلما اجتمعوا أخذوا يتزاحمون ويتقدم بعضهم على بعض فى الجلوس ولم يراعوا درجات بعضهم فأدى بهم ذلك إلى السباب والملاكمة وانفرط عقد اجتماعهم ولم يعملوا عملا يذكر اهـ.

وكان الإمبراطور على القسطنطينية يومئذ قسطنطين دراغايس بن إيمانوئيل فأرسل إلى السلطان محمد رسلا يستعطفونه ويستميلونه إلى تقرير قاعدة للصلح فطردهم السلطان ولم يسمع كلامهم وأخذ فى التأهب والاستعداد ورسم ببناء الحصون والقلاع على شاطئ بوغاز القسطنطينية فزاد خوف قسطنطين وهاله الأمر جدا وأرسل إلى السلطان سفراء آخرين يقول على أيديهم إن ماوراء بناء هذه القلاع إلا القتال وإضرام نار الحرب فإن لم تراع ما كان بين بلادى وبلادك من العهود والمواثيق وتقرر بيننا قاعدة للصلح فذاك إليك وقد فوّضت أمرى إلى الله فإن هداك سبحانه وعطف قلبك كان ذلك غاية المراد وإن كان قد قضى لك بفتح القسطنطينية فلا مفر مما قدره وقضاه وإلا فلا أسلم فيها وفىَّ لسان ينطق فلما وصلت رسله وقالوا للسلطان مقالته لم يلتفت لقولهم وشدد فى بناء الحصون والقلاع وبالغ فى التأهب والاستعداد فكتب قسطنطين إلى دول الفرنجة يطلب منهم المعونة والإسعاف ويستحثهم على نصرته وأقسم أنه ينجز لهم ما وعدهم به أسلافه من ضم الكنيسة الشرقية إلى الكنيسة الغربية فسر البابا بذلك سرورا عظيما وسير إليه نجدة عظيمة من طوائف الفرنجة فأغضبت فعال قسطنطين جماعة الروم لكراهتم ضم كنيستهم الشرقية إلى الكنيسة الرومانية لما بين الفريقين من العداوة القديمة والشحناء المستمرة ونقموا على إمبراطورهم وتفرقوا عنه وخذلوه وفضلوا سقوط المدينة فى أيدى المسلمين على خلاصها وضم الكنيستين إلى بعضهما وقال الدوق نوتاراس كبير وزراء القسطنطينية يومئذ جهارا أحب إلىَّ أن أرى فى هذه المدينة يريد القسطنطينية تاج السلطان محمد من أن أرى فيها إكليل لبابا ثم تخلى أكثرهم عن حماية أسوار المدينة وتفرقوا عنها فلم يبق منهم إلا نحو عشرة آلاف بين روم وفرنجة وبينما هم على هذا الحال من فتور الهمة واختلاف الكلمة وتفرق الرعية عن راعيها إذ أقبل السلطان محمد فى مائتين وستين ألف من المقاتلين وذلك فى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية أى سنة سبع وخمسين وثمانمائة هجرية ومعه عمارة حربية مؤلفة من ثلاثمائة

سفينة كبيرة فنزل بجيوشه على أسوار المدينة وحاصرها من جميع الجهات وأرسل إلى قيصر يطلب إليه أن يسلم البلد تحت شروط كلها شدة وإهانة فأبى قسطنطين وصمم على القتال جهد الاستطاعة فغضب السلطان محمد لذلك وأمر فشددوا فى الحصار وجاءت الأخبار إلى قسطنطين بعزم السلطان على الهجوم على الأسوار وأخذ المدينة عنوة فى يوم كذا فهاله الأمر جدا وجمع إليه خواصه وكبار قومه ومن كان عليهم معتمدة من الروم وشكا إليهم حاله وبالغ فى الشكوى وبكى وانتحب وعظم البلوى فبكوا جميعا لبكائه وأقسموا على الذب والدفاع واقتحام نار الوغى حتى يقضى الله أمر كان مفعولا ثم قاموا وتعانقوا وقبل بعضهم بعضا قبلة الوداع وطلعوا على الأسوار وتحصنوا فيها وكذلك فعل قسطنطين وكان ممن لبى دعوة قسطنطين وقام لنصرته على المسلمين أهالى جنوه فسيروا لنجدته عمارة بحرية ومقدمها الأمير جوستنيانى فأتى بها يريد الدخول إلى مياه القسطنطينية فعارضته السفن التركية فاقتتلوا قتالا عنيفا وانتصر جوستنيانى نصرة عظيمة فدخل المينا غانما فاستعظم السلطان هذا الأمر جدا وصمم على إدخال مراكبه إلى المينا أيضا ومحاصرة المدينة برا وبحرا. قال بعض الكتاب: وفكر كثيراً فى هذا الأمر فخطر على باله أن ينقل المراكب على البر حتى تجتاز السلاسل الحديد الموضوعة على مضيق البوغاز فمهد لذلك طريقا على البر طوله فرسخان وقيل أكثر وغطاه بالخشب وصب عليه الزيت والدهن ونقل عليه فى ليلة واحدة أكثر من سبعين سفينة. **قلت**: ولعل فى ذلك مبالغة، ولما حل الأجل المعهود هجم عساكر المسلمين على الأسوار هجمة الأسود وكانوا زهاء مائة وخمسين ألفاً من الأبطال المشهود لهم فلقيهم الروم بقلوب مطمئنة واشتبك القتال وحمى الوطيس فخرت الأبطال من فوق الأسوار وكان قسطنطين قائما ما بين النارين ينادي على الروم بالتجلد والثبات وإعمال السيف فى أعناق الأعداء وهو يقاتل قتال الأبطال والمسلمون يندفعون على الأسوار من كل فج عميق فلما أيس قسطنطين من الظفر وأيقن بالغلبة وسقوط المدينة فى أيدى المسلمين نزع عنه أسلحته المذهبة وألقى بنفسه بين صفوف المسلمين فقطعوه بحد السيف ولم يعلموا من هو فلما شاع بين من بقى على الأسوار من الروم خبر موت قسطنطين انفشلوا فظفر بهم المسلمون وتغلبوا على الأسوار وأخذوها ثم اقتحموا المدينة وأعملوا فى أهلها السيف ودخلوا كنيسة القديسة صوفية وقد كان فيها بطرق القسطنطينية يصلى وحوله خلق عظيم وقتلوا من فيها بحد السيف ولم يبقوا على أحد ونهبوا وأسروا وأحرقوا وخربوا ما فى المدينة من الأبنية العظيمة والآثار

الفاخرة وأحرقوا جميع مكاتبها فكان عدد ما أكلته نار الحريق منها مائة ألف مجلد وعشرين ألفا.

ورأى السلطان محمد من أبنية القسطنطينية ومراسمها ومنتزهاتها ما حبب إليه نقل كرسى مملكته إليها فنزح الروم عنها فرارا من الترك وكادت تخلو من السكان فرسم لكل من عاد إليها من الروم أن يبقى على دينه وعاداته ولا يتعرض له أحد بسوء فلم يأت إليها إلا القليل بل كثر النازحون منها لاسيما بعد إقامة الأذان والصلاة فى كنيسة أيا صوفية وتبديل حالها فهال السلطان هذا الأمر واستعظمه وأتى إليها بكثير من أهل القرى والضواحى ثم أقام للروم بطركا ليجتمعوا حوله وسلم له عصا البطريكية وخاتمها كما كانت تفعل القياصرة فى سالف الأزمان وقسم ما فى المدينة من الكنائس بين النصارى والمسلمين وجعل لكل فريق منهم حدا لا يتعداه وفرض على النصارى قدرا من المال يقومون به إلى الخزينة السلطانية فى كل عام. قال بعض كتاب الأخبار: وبقى الحال على ذلك زهاء ستين سنة حتى جاء السلطان سليم الأول فنسخه وسيرهم على ما أراد.

(مطلب)

قيام البابا كالستوس الثالث وحثه المسيحيين على قتال السلطان محمد

ولما استقامت للسلطان محمد الأمور بعد فتح القسطنطينية عمدا إلى فتح جزيرة رودس فسير إلى أهلها يتهددهم ويطلب منهم الجزية وكان عظيمهم يومئذ يوحنا دولستيك فأرسل إليه يوحنا يقول: كف عنا فوالله إن فرسان رودس لم يأخذوها إلا بسيوفهم ومعونة الله سبحانه وتعالى ولم تطأ أرجلهم أرضنا بعناية أحد من ملوك الأرض فلن نسلم لك فيها وفينا رمق، وعرض للسلطان محمد بعد ذلك ما شغله عنها فوجه عنايته إلى فتح الصرب فسار إليها فى جيش عظيم وتوغل فى جوفها فقام عند ذلك البابا كالستوس الثالث يستنهض جميع ملوك المسيحية على قتال المسلمين ويحضهم على استخلاص البلاد من أيديهم ويحثهم على الجهاد فى سبيل الله وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان محمد فسار فى مائة ألف وخمسين ألفا من الجند المدربة وحاصر مدينة بلغراد وضيق عليها برا وبحرا حتى كادت تسقط فى يديه وطارت الأخبار بذلك إلى الآفاق فأخذت حمية الدين أحد رهبان القديس فرنسيس

فطاف يحث النصارى ويحضهم على الجهاد واستخلاص بلغراد من أيدى المسلمين وأكثر من التطواف والحض والمناداة فاجتمع حوله زهاء أربعين ألفا من الجنود النمساوية فسار بهم إلى القائد هونيادس الشهير قائد الجيوش المجرية وجعله المقدم عليهم فسار بهم هونيادس وقاتل السلطان محمد قتالا عنيفا للغاية فانتصر عليه وأتلف سفنه الحربية وأغرق أكثرها فلبث السلطان محمد يهاجم المدينة أربعين يوما فلم ينل منها ورجع بمن بقى من عسكره وقد مات منهم خلق عظيم وأصابت هونيادس قائد العساكر المسيحية بعد نصرته جراحات بليغة فاعتل ومات بها بعد انسحاب السلطان محمد بعسكره فلما علم السلطان بموته فرح وسير وزيره محمد باشا إلى فتحها فحاصرها ولبث يقاتل عليها سنة ونصف سنة حتى تم له النصر وسقطت فى يده فخسرت بذلك استقلالها وأصبح حكمها حكم بقية المدن التى وقعت فى قبضة العثمانيين.

(مطلب)

زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وما كان من وراء ذلك

ولما تمت سنة إحدى وستين وثمانمائة هجرية أى نحو سنة ست وخمسين وأربعمائة وألف ميلادية زحف السلطان محمد على ولاية أثينا وفتحها بعد حروب هائلة وضمها إلى أملاكه واتفق فى هذه الأثناء أن وقع الخلاف ما بين الملك توما والملك ديمستريوس باليولوغوس أخى قيصر الروم بشأن مملكة المورة التى كانا يحكمانها بالاشتراك معا ويدفعان عنها الخراج للسلطان محمد واشتد بينهما الخصام واستفحل أمره فقامت الحرب بينهما على ساق فظفر توما بدمتريوس وهزمه فاستنجد دمتريوس بالسلطان محمد وطلب منه المدد وزوّجه بابنته ليستميله إليه فلبى لذلك دعوته وأنجده على توما وسير إليه جيشاً ضخماً فهرب توما بعد انهزامه شر هزيمة وخلا الجو لدمتريوس فجعل يتصرف فى الأمور ولكن لم تكد تستقر به الراحة بعد تلك الحروب الهائلة حتى داخل السلطان الطمع ومالت نفسه إلى ضم مملكة دمتريوس إلى بلاده فركب على دمتريوس بخيله ورجله وقبض عليه ونفاه إلى إحدى الديارات واستولى على بلاد المورة إلا بعض الحصون التى كان سلمها توما إلى البابا وأهل البندقية قبل فراره من وجه دمتريوس ، ولم تأت سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وستين وأربعمائة وألف ميلادية إلا وقد زالت آثار السلطنة

المشرقية العظيمة ولم يبق منها سوى مملكة طرابزون فعمد السلطان محمد فى تلك السنة إلى أخذها وضمها إلى مملكته وجيش جيشا وسار به إليها وقاتلها حتى أخضعها لحكمه ودخلت فى عداد ممالكه ثم سار منها فأخذ ولاية سنوب وجاء بصاحبها داود كومومين أسيرا إلى القسطنطينية ومثل به شر تمثيل ثم أمر فقتلوه صبرا وكان قد اتهمه بمكاتبة ملك فارس والتألب معه وقتل كذلك أولاده بين يديه وكانوا ثمانية وعاد إلى القسطنطينية ظافرا غانما، ثم جيش بعد قليل جيشا عظيما وسار به لقتال أمير الفلاخ وكان سبب ذلك تعدى بعض أهالى الفلاخ على جماعة من التجار العثمانية النازلين هناك فلما علم صاحب الفلاخ بحضوره أرسل إليه رسلا فى طلب الصلح وقيامه بدفع جزية فى كل سنة قدرها عشرة آلاف دوكا وأن يصادق على جميع الشروط التى تقررت فى معاهدة سنة ست وتسعين وسبعمائة هجرية أى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة وألف ميلادية ما بين السلطان بايزيد وأمير الفلاخ يومئذ فقبل السلطان محمد الثانى بذلك وانسحب بجميع جيوشه وكان هذا القول من أمير الفلاخ خدعة ليتمكن من عقد محالفة مع ملك المجر على قتال الترك فلما تم له ما أراد وعلم السلطان بالخبر سير إليه رسولين يسألانه فى ذلك فقبض عليهما وقتلهما ثم لم يلبث أن زحف فى جيش عظيم وأغار على بلاد بلغاريا التى هى من أملاك آل عثمان فعاث فيها وأفسد وخرب وأحرق وعاد بخمس وعشرين ألف أسير فسير إلى السلطان رسلا فى طلب فك الأسرى والرجوع إلى الطاعة وعدم مخالفة العهد فلما مثلوا بين يديه قيل إنه أمرهم بخلع عمائمهم عن رؤوسهم إجلالا له وتعظيما فأبوا ذلك فأمر بأن تسمر عمائمهم على رؤوسهم بمسامير من حديد ففعلوا بهم ذلك وهم بين يديه وجاءت الاخبار إلى السلطان بما وقع لرسله فكاد يتميز غيظا ونادى فى جنده بالتأهب ثم خرج فى مائة ألف لقتال أمير الفلاخ ومازال حتى اخترق جوف بلاده ووصل إلى مدينة بخارست عاصمة مملكته بعد أن هزمه شر هزيمة ومزق شمل عسكره فهرب صاحب الفلاخ ونزل على ملك المجر مستجيرا فنادى السلطان محمد بخلعه من منصب الإمارة وأقام أخاه راوول مكانه وكان راوول هذا قد تربى فى حضانة السلطان محمد وللسلطان به ثقة فصارت بذلك بلاد الفلاخ تابعة لأملاك السلطنة العثمانية.

وركب فى سنة سبع وستين وثمانمائة هجرية أى سنة اثنتين وستين وأربعمائة وألف ميلادية على البوسنا لامتناع أميرها عن دفع الجزية فحاربه وانتصر عليه وقتله هو وولده بعد قتال عنيف للغاية فدانت له بقتله جميع بلاد البشناق وكبر الأمر على

صاحب المجر فهم باستخلاص البوسنا من أيدى العثمانيين وخرج فى عسكر عظيم فركب عليه السلطان فى جيش جرار وهزمه وفرق شمل عساكره فعاد خائباً وشدد السلطان على أهل البوسنا فسلبهم جميع ما كان لهم من الامتيازات والحقوق وأدخل فى الصفوف الانكشارية زهاء ثلاثين ألفاً من شبان البوسنا وشدد على كبار أهلها وأشرافهم فتدين أكثرهم بالدين الإسلامى وصارت البلاد ولاية كبقية الولايات الداخلة فى حكم آل عثمان، ولما كانت سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية أى سنة ثلاث وستين وأربعمائة وألف ميلاديه ابتدأ الخلاف بين العثمانيين وأهل البنادقة وكان سبب هذا الخلاف أن عظيما من العثمانيين هرب إلى ناحية كورون التابعة للبنادقة فطلب فلم يسلموا فيه وامتنعوا وقالوا إنه تنصر واعتنق الدين المسيحى فلا يحل اعتباره عبدا رقيقا وكان فى نفس السلطان أن يشن الغارة على جميع أعمال البندقية ويضمها إلى أملاكه فاتخذ ذلك حجة للقتال وجيش جيشا عظيما وسار به فى سنة خمس وسبعين وثمانمائة هجرية ونزل على جزيرة اغريبوز المعروفة أيضا بارجوس يريد قتالها فقاتله أهلها قتالا عنيفا وأرسلوا يستنجدون حكومتهم فسيرت لنجدتهم عمارة عظيمة فوصلت إلى بلاد المورة وأنزلت البر من بها من الجنود والمقاتلة فتقوت بهم عزائم سكانها وثاروا معهم على من كان عندهم من عسكر السلطان فأجلوهم عن البلاد ثم رمموا ماكان تهدم من أسوار برزخ كورنشيه وحاصروا مدينة كورنشيه واستخلصوا مدينة اغريبوز فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره جدا وزحف فى زهاء ثمانين ألفا فخاف أهل البندقية وسقط فى أيديهم وتركوا البرزخ المذكور ورجعوا القهقرى فوصل السلطان بعسكره ودخل البلاد بعد قتال خفيف واسترجع كل ما أخذوه وأرجع الأمور إلى سابق مجراها.

واشتد بغض أمم أوروبا للعثمانيين وكرهوا جوارهم فقام البابا بيوس الثانى يدعو المسيحيين إلى قتال المسلمين ويستحثهم على نصرة الدين ومحو آثار العثمانيين من قارة أوروبا وأكثر أتباعه من النداء والتحريض فهاجت الخواطر وامتلأت القلوب بغضا فقام صاحب ألبانيا بعسكر جرار وشن الغارة على المملكة العثمانية وقاتل العثمانيين قتالا الأبطال فخرب وأحرق وأهلك الحرث والنسل وأراق الدماء الكثيرة ومازال يقاتل حتى أدركته المنية فمات سنة ثمان وستين وثمانمائة هجرية حتف أنفه وقد كان من أشد خصوم العثمانيين وألد أعداء سلاطين آل عثمان فحاربهم خمسا

وعشرين سنة لا يغمد له فيهـا سيف ولا ينثنى له عزم ولم يقو السلطان محمد على قمعه وإدخاله تحت الطاعة.

(مطلب)

فيما أصاب عسكر السلطان فى بلاد البغدان وفى هزيمتهم

وسير السلطان بعد ذلك بقليل عمارة حربية لفتح مينا آق كرماز ففتحتها وأقلعت السفن تريد مصاب نهر الدانوب لإعادة الكرة على بلاد البغدان وأخذها فلاقته العساكر البغدانية وفى مقدمها الأمير اصطفن الرابع صاحب البغدان عند نهر الدنواب فاجتاز السلطان النهر فلم تقف أمامه عساكر اصطفن وتقهقروا خديعة ومكرا ولم يقاتلوا السلطان فتبعهم السلطان بعساكره وساق خلفهم بخيله ورجله حتى دخلوا فى غابة كثيفة للغاية لا تعرف مفاوزها فلم يمهلهم اصطفن المذكور حتى انقض عليهم بعسكره وقهرهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ففر السلطان ونجا وتمزق شمل من بقى من عسكره وانتصر اصطفن فى هذه الموقعة نصرة عظيمة وكان ذلك فى سنة إحدى وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ست وسبعين وأربعمائة ألف ميلادية ففرح المسيحيون بنصرة اصطفن فرحا عظيما وسير إلى الباب رسولا يهنئه بالنصر ويقول له إن البابا قد سماه من هذا اليوم بطل النصرانية وحامى حمى الديانة المسيحية .

(مطلب)

حصار سفن السلطان لرودس والرجوع عنها

وجهز فى سنة خمس وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة ثمانين وأربعمائة وألف ميلادية عمارة أخرى عظيمة وعليها مائة ألف مقاتل وشيء كثير من الذخيرة ومعدات الحرب وسيرها مع ميشطس باشا أحد العائلة الباليولوغية الإمبراطورية الرومية وكان قد اعتنق الدين الأسلامى بعد فتح القسطنطينية فسار بها إلى جزيرة رودس وحاصرها وضيق عليها وأقام تحت أسوارها تسعين يوما فلم ينل منها فجاءه الأمر بالارتحال عنها فارتحل ولم يقدر الله للسلطان محمد قتالها بعد ذلك. قال

أصحاب التاريخ: ولما وصلت عمارة السلطان محمد إلى جزيرة رودس كان صاحبها قد تمكن من إبرام صلح مع سلطان مصر وباى تونس بعد أن وقعت الحرب بينهما وبينه أياما كثيرة ليتفرغ بذلك إلى دفع غارات العثمانيين عن الجزيرة التى هى مقر رهبنة القديس يوحنا الأروشليمى فحاصرتها عمارة السلطان محمد حصارا تاما ومنعت عنها المدد وضيقت عليها من كل جانب ووالت الرمى عليها بالمكاحل فكان أهلها يصلحون فى الليل ما تخربه المدافع من أسوارها فى النهار فطال حصارها تسعين يوما وفى كل يوم يهجم العثمانيون على الأسوار فلم تنل منها وقد قتل منهم خلق كثير للغاية فلم يبق إلا القليل وجاء مرسوم السلطان برفع الحصار والارتحال عنها فارتحلوا.

(مطلب)

وفاة السلطان محمد وولاية ابنه بايزيد

ومازال السلطان محمد على قدم الغزو والجهاد لاينكف عن القتال وتدويخ البلاد حتى أدركته المنية وهوسائر بعسكر جرار لقتال ملك فارس مات فى مدينة ازنكميد فى سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية فى سلخ ربيع الأول وله من العمر ثلاث وخمسون سنة فكانت مدة سلطنته إحدى وثلاثين سنة.

قال أصحاب التاريخ : وله الفعال المأثورة فى داخل بلاده فهو الذى دعا الحكومة العثمانية بالباب العالي وقسم هيئتها إلى أربعة أقسام وهى الوزير وقاضى عسكر والدفتردار والنيشانجى أى كاتب سر السلطان ورتب وظائف الجند على أسلوب جديد فجعل لطائفة الانكشارية كبيراً سماه الأغا وسلمه حراسة القسطنطينية وضبط أحوالها الداخلية وآخر لأصحاب المكاحل وآخر لما تحتاجه الجيوش من الذخيرة والمونة ومعدات الحرب واهتم بترتيب وظائف القضاء وسن القوانين النظامية المناسبة للزمان والمكان، وأعقب ولدين وهما بايزيد وجم فبايع الناس بايزيد بالسلطنة فى اليوم الذى مات فيه أبوه وهو الرابع من ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة هجرية أى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فأخذت له البيعة العامة فى خلال سنة ست وثمانين هجرية وكان سلطاناً جليل القدر عالماً شاعراً لبيباً مواظباً على العلم حسن السيرة. قال أصحاب التاريخ:

لما مات السلطان أبو الفتح محمد وكان أكبر أولاده بايزيد وولى عهده من بعده مقيما باماسيا يحكمها من قبل أبيه أخفى الوزير قرمانى محمد باشا خبر موت السلطان حتى يأتى ابنه بايزيد المذكور ولكنه لما كان بينه وبين أصغر أولاد السلطان مودة ومحبة أكيدة وكان يفضله على بقية إخوته سير إليه سراً من يعلمه بخبر موت أبيه ويستقدمه على عجل ليسلمه مقاليد السلطنة قبل أخيه بايزيد فشاع خبر ذلك بين الناس وعلم به جماعة الانكشارية فثاروا على الوزير وقتلوه وعاثوا يومئذ فى المدينة وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وولوا الأمير كركود ابن السلطان بايزيد السلطنة مكان أبيه حتى يأتى أبوه فلما كان الثالث عشر من ربيع الأول وصل الرسول إلى بايزيد وأعلمه بخبر موت أبيه فركب فى اليوم الثانى فى أربعة آلاف وسار مجداً فدخل مدينة القسطنطينية بعد مسير مائة فرسخ وستين فرسخاً فى تسعة أيام فخرج أمراء الدولة وكبارها وأعيانها للقائه ودخل المدينة فى أبهة وجلالة عظيمة للغاية وأخذ فى مباشرة الأمور. أما الأمير جم فإنه لما وصل إليه الخبر بموت أبيه ركب من فوره فى جماعة من أصحابه وسار قاصداً مدينة بروسة فمانعه من دخولها من كان بها من المرابطين فقاتلهم بمن معه وانتصر عليهم نصرة عظيمة ودخلها عنوة وأقام بها ولم يستقر به المقام حتى جاءه أخوه السلطان بايزيد فى جيش عظيم وقاتله وقهره وساق خلفه بخيله ورجله حتى أوصله إلى تخوم ديار مصر فلما رجع ظافراً منصوراً سأله الانكشارية أن يبيح لهم بروسة لينتقموا منها فلم يوافقهم على ذلك ولكنه خاف عاقبة أمرهم فأقطع كل رجل منهم قرشين.

وأقام جم بمصر ما شاء ثم عاد إلى حلب واتحد مع الأمير قاسم بك آخر سلالة أمراء القرمان على قتال أخيه بايزيد فلم ينالا شيئاً فراسل أخاه فى طلب الصلح بشرط أن يقطعه بعض الولايات ليقيم بها فلم يقبل بايزيد منه ذلك فخاف جم العاقبة وسار إلى جزيرة رودس وطلب إلى رئيس رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى أن يساعده على أخيه بايزيد فقبله عنده وأنزله منزلاً رحباً فجاءت وفود السلطان بايزيد إلى رئيس الرهبنة وكلموه فى أمر جم المذكور وأنه إن بقى عندهم بالجزيرة تحت الحفظ تعهد لهم السلطان بعدم مس استقلال جزيرتهم مدة حياته وأن يحمل لهم فى كل سنة مبلغاً من المال قدره خمسة وأربعون ألف دوكا فقبل الرئيس ذلك ووفى بالوعد فلم يمكن جماً من الخروج ولم يسمح له بالذهاب إلى ملك المجر ولا إمبراطور الألمان وقد كان كل منهما يطلبه ليتخذه واسطة لتذليل السلطان بايزيد وإذهاب هيبته وسيره إلى مدينة نيس ليبقى بها محجوراً عليه لا يفارقها ثم نقله إلى

شمبـرى وجعل بعد ذلك ينتقل من بلد إلى آخر من بلدان فـرنسا زهاء سبع سنوات فلما كانت سنة خمس وتسعين وثمانمائة هجرية بعثه رئيس رهبنة القديس يوحنا إلى البابا توسان الثامن ليبقى عنده فراسل البابا السلـطان بايزيد فى أمره وطلب إليه أن يبـعث بالمال الذى كان يحـمل فى كل سنة إلى رئيس رهبنة القـديس يوحنا فأجـابه السلطان إلى ما طلب وظل الأمر على ذلك حتى مات البـابا توسان وقام بعده البابا إسكندر بورجا واشتغل السلطان بايزيد بما جاءه من أخبار إغارات شارل الثامن ملك الفرنسـيس على بلاد إيطاليا وعقده النـية على فتح القسطنطينـية وقد اشتـدت رغبة شارل فى ذلك نبعث البعوث إلى بلاد مقـدونية واليونان لإضرام نار الفتنة والخروج على السـلطان بايزيد فلما علم ملك نابولى وجمهـورية البنادقة بما ينويه شارل خافوا من تعـاظم شأن دولة الفـرنسـيس واستـفحـال أمرها وأرسلـوا إلى السلطان بايزيد يحذرونه شر العاقبة ويحثونه على الأخـذ بأسباب التأنى والحزامة وأن يسير إلى بلاد إيطاليا طـائفة من عسكره ليـصد بهـا جيوش ملك الفـرنسيس فـأحس شارل بذلك وأكبره فسار إلى مدينة رومة وحـاصرها وضيق عليها من كل جانب وطلب من البابا إسكندر أن يسلمـه جما أخـا السلطان بايزيد فلم ير بدا من تسليـمه فســار جم مع جيوش الفرنسيس حيث ساروا حتى أدركته المنية فى مدينة نابولى فدفنوه فى بلدة من بلاد إيطاليا ثم نقل إلى مقابر أجداده بمدينة بروسه.

(مطلب)

وتاقت نفس السلطان بايزيد إلى فتح الديار المصرية

وتاقت نفس السلطان بايزيد إلى فتح الديار المصرية وضمها إلى أملاكه فسار فى جيش عظيم لقتال سلطانها فـالتقيـا جهة القـرمان واقـتتلا قتـالاً شديداً فلم يفلح السلطان بايزيد وراسلهـما باى تونس بالكـف عن القتـال بدعوى أنه لا يصح قـيام الحرب بين ملكين مسلمين فتقـررت بين الفريقين قاعدة للصلح وعاد السلطان بايزيد بعـسكره وعادت كـذلك العسـاكر المصـرية وبينما هو يغـزو ويحارب ويفـتح المدن والأمصار والتـوفيق ملازمه إذ قامت الفـتنة داخل بلاده بخروج اثنين من أولاده عن طاعته وإضـرامهم نار الحرب. قال بعض كـتاب الأخبار: وقد كـان له ثمانية أولاد

ذكور مات منهم خمسة فى حداثتهم وعاش ثلاثة وهم كركود وأحمد وسليم وكان كركود مولعاً بالعلوم والآداب ميالاً لمخالطة العلماء والأدباء فكانت العساكر لا تميل إليه لهذا السبب وكان الثانى عاقلاً رزيناً محبوباً من الأمراء والأعيان موقراً عند كبير الوزراء مكرماً وكان الثالث ميالاً للغزوات والحروب فكانت طوائف الجنود والانكشارية تحبه وتجتمع عند كلمته ولذلك ولى السلطان بايزيد كلا منهم منصباً يليق بحاله فولى الأمير كركود إحدى الولايات البعيدة وولى الأمير أحمد ولاية اماسيا وولى الأمير سليماً ولاية طرابزون فلم يقبل الأمير سليم هذا المنصب واستصغره وسار من طرابزون إلى كافا وسير منها رسلاً إلى أبيه يطلب إعطاءه إحدى الولايات الكبرى من مملكته التى فى أوروبا فاستعظم السلطان ذلك وأكبره ولم يجبه إلى ما طلب وردّ الرسل كما حضروا فكبر الأمر على الأمير سليم وركب فى جيش من التتار وسار لقتال أبيه فأرسل أبوه كذلك جيشاً لإرهابه فلم يرعو واشتد فى التأهب والاستعداد لإضرام نار الوغى فخشى السلطان شر العاقبة وأجابه إلى ما طلب وعقد له الولاية على مدينتى ودين وسمندريه فداخل نفس الأمير كركود من ذلك ما داخلها وأغار على ولاية صاروخان وجعلها له مقراً حتى لا يكون بعيداً عن تخت مملكة أبيه عند الحاجة.

(مطلب)

خروج الأمير سليم على أبيه السلطان بايزيد فى طلب الملك

ولم يستقر بالأمير سليم المقام فى سمندرية حتى تاقت نفسه إلى ارتقاء منصب السلطنة والانفراد بالملك فسار من سمندرية فى جيش إلى أدرنه واستقر بها ونادى بسلطنته عليها وطير الأخبار بذلك إلى الآفاق فلما وصل الخبر إلى السلطان بايزيد هاله جداً وأغضبه فسير جيشاً لإخضاع الأمير سليم وإرجاعه إلى الطاعة فقاتله فانتصرت عساكر السلطان بايزيد وفر الأمير سليم إلى بلاد القرم واختفى وتفرق من كان معه من العساكر والأحزاب، ولما تم للسلطان بايزيد النصر على ابنه سليم سير جيشاً آخر لقتال ولده كركود بصاروخان فخرج كركود لقتال عسكر أبيه فالتقى الجمعان واقتتلا فانهزم أصحاب كركود شر هزيمة واختفى كركود حتى كان من أمره

ما سيذكر في محله. ولم يكد يتم الظفر للسلطان حتى قامت طوائف الانكشارية على قدم وساق وسألوه العفو عن ولده سليم وإرجاعه إلى ولاية سمندرية فطاولهم فأكثروا من الإلحاح وشددوا وأرهبوا وهددوا ومازالوا حتى أجابهم السلطان إلى ما طلبوا وسير إلى الأمير سليم فرمان الرضا والولاية على سمندرية كما كان فظهر الأمير سليم عند ذلك من مخبئه وسار فى نفر يريد سمندرية فخرج للقائه جماعة من الانكشارية وساروا فى ركابه وعرجوا به إلى القسطنطينية ودخلوها فى كبكبة وضجة زائدة ومازالوا على ما هم عليه من الجلبة والصياح حتى صاروا تحت قصر السلطان بايزيد وسيروا إليه جماعة يطلبون إليه خلع نفسه والتنازل لولده الأمير سليم عن الملك وأكثروا من النداء والصياح وشددوا فى الطلب فاجتمع الناس وكثر الزحام وعلت الضوضاء وعم الخوف سائر من في المدينة واشتد الهرج فخاف السلطان بايزيد شر العاقبة وأجابهم إلى ما طلبوا وخلع نفسه فى اليوم الثامن من صفر سنة ثمان عشرة وتسعمائة هجرية أى سنة اثنتى عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ سبع وستون سنة.

وفى رواية أنه لما قامت الفتنة فى داخلية البلاد بخروج اثنين من أولاده عن طاعته أمر بقتلهما فقتلا فكثرت لذلك القلاقل وعلت كلمة الانكشارية فعاهدوا الأمير سليما بالملك وكلموه فى أمر السلطنة فاجتاز بوغاز القسطنطينية لاستخلاص الملك من أبيه فحاربه أبوه وهزمه فهرب إلى بلاد القرم وأقام بها ثم قصد القسطنطينية ثانية فى جيش وجرى بينه وبين أبيه وقائع كثيرة فلما اشتد الحال بالسلطان بايزيد خلع نفسه من السلطنة وعهد بها إلى ابنه سليم المذكور وسار إلى أدرنة فدس له ابنه من سقاه السم خوفاً من رجوعه إلى دست السلطنة فلما مات بايعوا بعده السلطان سليمًا البيعة العامة واستقرت به السلطنة فقبض على أخويه أحمد وكركود وقتلهما ومثل بهما ليخلو له الجو ثم سار لقتال ملك فارس ثم كان ما كان من انتشاب الحرب بينه وبين السلطان قانصوه الغورى صاحب مصر وتغلغله بعساكره فى داخل البلاد حتى وطئت خيله القاهرة وتصرفه فى الأمور بعد أن بدد شمل عساكر الملك الأشرف طومان باى وظنه موت الأشرف مع من قتل من الأمراء والأجناد والمماليك فى الواقعة التى حصلت عند الريدانية كما مر بك بيان هذا كله فى محله.



(المقالة التاسعة وفيها فصول)

(الفصل الأول)

(فيما جرى بعد دخول السلطان سليم القاهرة وفى سلطنته على ديار مصر ولبسه شعار الخلافة)

لما استقر بالسلطان سليم المقام بالقاهرة بعد انتصاره على السلطان الملك الأشرف طومان باى ومن معه من كبار الأمراء والمماليك وتبديد شملهم وإعمال السيف فيمن بقى منهم ظن موت السلطان الملك الأشرف وأن قد دانت له البلاد فعمد إلى ترتيب الأمور وتقرير قواعدها ورسم فى يوم الثلاثاء رابع المحرم افتتاح سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة هجرية بتقليد بعض أصحابه المناصب العالية وأمر ونهى وقضى يومه هذا فى أنس وصفاء وهو لايعتقد إلا هلاك الأشرف ، فما أذن لوقت العشاء من ليلة الأربعاء حتى أطبقت عساكر الأشرف على السلطان سليم من كل جانب والأشرف ينادي فيهم بالحمل وإعمال السيف وأن لا يبقوا أحداً فاندفعت عساكر الأشرف على عساكر السلطان اندفاع الوحوش الضوارى وأعملوا فيهم السيف وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأحرقوا بعض خيامهم وبحثوا عن السلطان سليم فلم يقفوا له على أثر من شدة الظلام وهرع العامة وعياق بولاق من النوتية وغيرهم وأحاطوا بخيام عسكر السلطان وصاروا يرجمون بالمقالع وفيها الحجارة وكثر الصياح وعلت الأصوات واشتدت الجلبة واستمروا على هذا الحال الليل كله حتى مطلع الفجر فتمزق عساكر السلطان سليم كل ممزق وتفرقوا فى الشوارع والحارات يريدون النجاة وذهب فريق منهم إلى ناحية النصرية فلاقاهم الأمير عيلان الدوادار الكبير عند الميدان وقاتلهم

قتالاً عنيفاً ومازال حتى استرد منهم الطريق من رأس الجزيرة الوسطى إلى قنطرة باب البحر وإلى قنطرة قديدار واستمر القتال بين الفريقين من مطلع الفجر إلى ما بعد الغروب واشتدت عزائم الجراكسة وقويت قلوبهم فأفحشوا فى قتل العثمانيين وأخرجوهم من جميع الأماكن التى كانوا مختفين بها وجعلوا يحتزون رؤوسهم كما فعلوا بهم عند الريدانية وكانوا يأتون بالرؤوس بين يدى السلطان الملك الأشرف وهو يستحث المماليك على القتال والأخذ بالثار وأصبحوا يوم الأربعاء الخامس من المحرم والقتال قائم على ساق بين الفريقين والمناداة من السلطان الملك الأشرف متواصلة بالقبض على كل من يجدونه من عساكر السلطان سليم فجد الناس كافة فى طلبهم والقبض على من يجدونه منهم فكان يوماً شره مستطيرا، ورتب السلطان سليم من بقى من عسكره ونادى فيهم بالقتال فقويت قلوبهم وصدموا المماليك عند بولاق وجزيرة الفيل صدمة قوية للغاية فأجلوهم عنها وأخذوهما وهجموا على زاوية الشيخ عماد الدين بالنصرية وقبضوا على من كان بها من المماليك الشراكسة وأحرقوا البيوت التى حول الزاوية وقتلوا جماعة كثيرة من العامة والنساء والأطفال والشيوخ وأجلوا من بقى من المماليك عن النصرية فتوجهوا إلى قناطر السباع ونزل الأشرف طومان باى إلى جامع شيخون بالصليبة وأخذ يجمع من تفرق من عسكره ثم رسم بحفر خندق فى راس الصليبة وآخر عند قناطر السباع وآخر عن راس الرميلة وآخر عند جامع ابن طولون وآخر عند جزيرة البقر ورسم بإحراق خان الخليلى فمنعه بعض الأمراء من ذلك ثم قسم عساكره إلى أربع طوائف. طائفة تقاتل عند قناطر السباع وطائفة عند الرميلة وطائفة عند جامع ابن طولون وطائفة عند راس الصليبة ولكن قد كان الخوف استولى على قلوب عساكره ففترت هممهم وكبر خوفهم لمثابرة عسكر السلطان سليم على القتال وكان القتلى من الفريقين مطروحين فى الطرق من بولاق إلى قنطرة السباع وإلى الرميلة وإلى تحت قلعة الجبل وبقى الحال على هذا الوصف إلى يوم السبت ثامن المحرم فلم يشعر السلطان الملك الأشرف إلا وقد اختفى من بقى من أصحابه ولم يبق معه فى ساحة القتال إلا بعض العبيد الرماة والمماليك السلطانية وقليل من الأمراء فلما رأى أنه مأخوذ لا محالة ترك القتال وهرب إلى بركة الحبش وشاع الخبر بفراره فانقض عسكر السلطان سليم على الصليبة وأحرقوا جميع البيوت التى حولها من درب ابن عبد العزيز وقتلوا كثيراً من العامة وأفحشوا فى القتل والنهب والإحراق وعاثوا فى البيوت والمساجد والأضرحة سعياً

وراء المماليك فمن وجدوه منهم ضربوا عنقه فى الحال وفعلوا بالجامع الأزهر ما لا يحسن وكذلك فعلوا بجامع الحاكم وجامع ابن طولون وغيرهما من الجوامع فكانت الكلاب من كثرة الرمم تنهش فيها نهشاً وتمزقها تمزيقاً وكان المنظر مدهشاً مريعاً جداً والناس فى شاغل عن دفن تلك الجثث لانتشار عسكر السلطان سليم فى الحارات وقتلهم كل من يجدونه فى طريقهم.

ورسم السلطان سليم بالمناداة فى العسكر بالكف عن القتل وإراقة الدماء فانكفوا وعاد السلطان إلى خيمته فى الجزيرة الوسطى واشتغل الناس بدفن الموتى فكانوا لايكادون يميزون بعضهم عن بعض وانتشر البكاء والعويل فى مصر والقاهرة وقامت المآتم ببعض البيوتات الكبيرة فكان الخطب عظيماً والمصاب شديداً. وأخذ السلطان سليم بمشورة أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله العباسى وعمل بقوله فظهرت كلمة الخليفة يومئذ وعظمت شوكته ووقفت فى دهليزه الأمراء من المقدمين وأمراء الطبلخانات والعشروات فراراً من عسكر السلطان سليم وكذلك المخدرات من النساء وأصحاب البيوتات العالية ونزلت عنده خونده ابنة الأمير آق بردى زوجة السلطان الملك الأشرف طومان باى وقد فرض عليها السلطان سليم مبلغاً من المال غرامة فلم تقدر على وفائه واستغاثت بالخليفة على استرضاء السلطان فأخذ يتلطف به حتى تجاوز عن شيء منه وألزمت بإيفاء الباقى ومازال الحال فى شدة والناس فى خوف ما عليه من مزيد حتى يوم الثلاثاء حادى عشر المحرم نادى منادى السلطان سليم بالأمان لجميع من بقى من الأمراء المقدمين وأمراء الطبلخانات وأمراء العشراوات والمباشرين وأصحاب الوظائف الديوانية فخرجوا من مخبئهم وأتوا إلى معسكر السلطان فأمنهم ورسم لهم بالذهاب إلى مدرسة الغورى فلما اجتمعوا بها جاءت طائفة من العساكر العثمانية وأحاطت بالمدرسة فتخوف الأمراء من ذلك وظنوا الغدر بهم ثم رسم لهم بعد أيام بالصعود إلى قلعة الجبل فصعدوا إليها والجند تحرسهم فأقاموا بها تحت طلب السلطان فلما كان يوم الخميس عشرى المحرم صعد السلطان إلى القلعة فى موكب حافل للغاية وأمامه الجنائب والطبول والزمور وطوائف الجند من المماليك الذين كانوا مع خير بيك والغزالى والعساكر العثمانية ومرّ من الصليبة فانطلق العامة بالدعاء له.

ولما استقر به المقام رتب من قومه كشافا على الغربية والشرقية ونظر فى بعض المهمات من الأمور وقيد بعض المأمورين بمساحة الشرقية وكشف ما فيها من

أقطاعات المماليك الشراكسة وغير ذلك من الرزق والأوقاف وكذلك فعل بالغربية والمحلة وجميع الجهات القبلية. واحتجب عن الناس بالقلعة ولم يجلس على الدكة السلطانية للنظر فى الظلامات كما كانت تفعل ملوك مصر وسلاطينها قبله. وبينما هو على هذا الحال إذ جاءت الأخبار من الأقاليم القبلية بظهور السلطان الملك الأشرف طومان باى ومعه جموع كثيرة من المماليك والغلمان السود والعربان والعامة والكثير من الخيل والدواب والأسلحة وأنه عازم على المجئ إلى القاهرة ليقاتل السلطان سليماً ويجليه عن البلاد وشاع هذا الخبر بين الناس وتأكد بوصول مكاتبة من الأشرف إلى السلطان يقول له فيها:

وبعد فإن شئت أن أجعل الخطبة باسمك وكذلك السكة وأكون نائباً عنك بمصر وأحمل إليك فى كل سنة الخراج حسبما يقع الاتفاق عليه بيننا فارحل عن مصر إلى الصالحية أنت وعسكرك وصن دماء المسلمين بيننا ولا تحمل وزر إراقة دماء الشيوخ والنساء والأطفال بغير سابق ذنب وإلا فاخرج للقائى بعسكرك فى الجيزة والله سبحانه يعطى النصر لمن يشاء. فلما وقف السلطان سليم على ما فى المكاتبة جمع إليه أمير المؤمنين الخليفة المتوكل على الله والقضاة الأربعة وجماعة من وزرائه وكتب بحضرتهم صورة يمين إلى الملك الأشرف وكتب بخطه ووقع عليها ثم تكلموا فى الأمر طويلاً فوقع الاتفاق بينهم على تسيير الخليفة والقضاة الأربعة إلى الأشرف بذلك اليمين وخلع السلطان سليم على القضاة وأمرهم بالتأهب للسفر فنزلوا من عنده على ذلك، أما الخليفة فإنه امتنع عن السفر فرسم السلطان بتسيير دوادار بدلاً عنه فساروا ولما صاروا على مقربة من البهنسا خرج عليهم جماعة من الشراكسة وقبضوا عليهم وسلبوا ما كان معهم من متاع وسلاح وهدايا وخيول وجمال وغير ذلك. وقتلوهم فلم ينج منهم سوى القضاة الأربعة ودوادار السلطان ورجعوا إلى القاهرة وهم فى أسواء حال فلما علم السلطان سليم بما جرى لهم أمر فنقلوا معسكره من الجزيرة الوسطى إلى بركة الحبش ونزل فى يوم السبت حادى عشر صفر من قلعة الجبل ومعه الجم الغفير من العساكر والمباشرين والغلمان ورماة البنادق وقد أشيع خبر انحدار عسكر الأشرف طومان باى من البهنسا إلى ترسة بالجيزة فرسم السلطان بعمل سقائل على النيل بناحية طرا ومصر القديمة وبولاق لعبور العساكر عن الاقتضاء وأخذ فى التأهب والاستعداد وقد ظهرت عليه وعلى جميع قومه علامات الاضطراب وخاف الناس كثيراً لاسيما وهم لم يتناسوا ما حل بهم بأسباب الوقائع التى وقعت بالصلبية والناصرية وغيرهما.

ولما كان يوم الأربعاء ثانى شهر ربيع الثانى أمر السلطان سليم فجئ بجميع الأمراء الذين كانوا بقلعة الجبل وقد كانوا ظهروا بأمان من السلطان كما تقدم القول فأنزلوهم مكبلين بالحديد والجند من حولهم إلى بركة الحبش فلما مثلوا بين يدى السلطان أخبرهم بما فعله الملك الأشرف بالقضاة والدوادار وامتناعه من الصلح بعد أن طلبه وأكثر من تأنيبهم وتوبيخهم ثم أمر بضرب أعناقهم جميعاً فضربوا أعناقهم بين يديه وكانت عدتهم أربعة وخمسين أميراً ما بين مقدمى ألوف وأمراء طبلخانات وعشروات وغير ذلك وألقوا جثثهم للكلاب فكانت نساؤهم تسعى فى أخذها بدفع شيء من المال إلى الموكلين بالعمل ثم قام السلطان سليم من ساعته إلى بركة الحبش وعبر النيل بعسكره إلى الجيزة فجاءته الأخبار بوصول عسكر الأشرف إلى المناوات فأقام بالجيزة إلى يوم الخميس عاشر ربيع الثانى فظهرت طلائع عسكر الأشرف ولاقتها عساكر السلطان عند المناوات وقيل بل عند وردان فالتحم القتال بين الفريقين واشتد وحمى الوطيس والتقت السنابك بالسنابك والرماح بالرماح والصفاح بالصفاح فاستظهر المماليك على عساكر السلطان وقتلوا منهم خلقاً كثيرا وساقوهم حتى ألقى أكثرهم بأنفسهم فى النيل فماتوا غرقاً وكاد يتم النصر للأشرف طومان باى وعسكره وجموعه فجاءت فى وسط هذه الشدة لعساكر السلطان نجدة من أصحاب البنادق ورموا بالبنادق على المماليك واصلوا الرمى بشدة حتى ردوهم ومازالوا بهم حتى فرقوا جمعهم ومزقوا شملهم وعادت الهزيمة عليهم فولوا الأدبار وولى الأشرف مهزوما يريد قرية من أعلى تروجة اسمها البوطة فلما تم للسلطان سليم النصر عاد إلى القاهرة ودخلت عساكره ومعهم العدد الكثير من رؤوس القتلى وهم فى كبكبة عظيمة ثم نودى بالزينة فزينت البلد ثلاث أيام والناس مع ذلك فى شاغل بما سيكون من وراء ذلك لعلمهم بما هو عليه الأشرف من البسالة والجلد على الحروب، أما الأشرف فإنه نزل بقرية البوطة فأقام بها ثلاثة أيام وهو متحرز فى نفر من أصحابه ثم حضر إليه الشيخ حسن بن مرعى وشكر ابن أخيه مشايخ عربان البحيرة، وكان بين المذكور وبين الأشرف صداقة قديمة فدعاه حسن للضيافة وألح عليه فى ذلك فركن إليه الأشرف ونزل عنده فلما استقر به المقام طلب مصحفاً ووضعه بين يدى حسن واستحلفه عليه هو وابن أخيه أنهما لا يخونانه ولا يغدرانه ولا يدلان عليه ولا يخبران بخبره أحداً ولا يسعيان ضده عند السلطان سليم فحلفا على ذلك ثلاثا فطاب قلب الملك الأشرف وسكن جاشه وبات ليلته وأصبح وقد أحاط العربان

بالمكان الذى هو فيه وأحدقوا به من كل جانب فخاف من كان معه من الغلمان والمماليك وتفرقوا عنه وأرسل ابن مرعى المذكور الى السلطان سليم يعلمه بالقبض على الأشرف ففرح السلطان بذلك فرحاً عظيماً وسير طائفة من عسكره فقبضوا عليه وقيدوه بالحديد وأتوا به بين يدى السلطان وهو فى زى العربان فقام له السلطان إجلالاً وعاتبه ثم أشار إلى بعض الواقفين من أصحابه فخرجوا بالأشرف من حضرته وأدخلوه فى خيمة أعدت له وأقاموا حولها الحرس من الغلمان الرماة والانكشارية فلبث إلى يوم الاثنين ثانى عشرى ربيع الآخر نحو سبعة عشر يوماً والأخبار عنه بين الناس كل يوم فى شأن.

(مطلب)

قتل السلطان الملك الأشرف طومان باى

فلما كان يوم الاثنين المذكور أركبوه على اكديش بعد أن عبروا به النيل من انبابه إلى بولاق وهو مكبل بالحديد فى زى العربان الهوارة وأمامه زهاء الأربعمائة من العثمانيين وساروا من سوق مرجوش ومروا به من القاهرة فتسابق الناس لرؤيته وهم فى دعاء له وصياح وجلبة عظيمة وكان يحييهم بلطفه المعهود وهو لايدرى أين هو ذاهب فلما جاءوا به عند باب زويلة وقفوا له وأنزلوه عن الاكديش وأرخوا حبالاً قد نصبوها له على السبيل الذى هناك ووقفت حوله العساكر بالسيوف فلما رأى ما فعلوه قال أو أنتم قاتلى اليوم ؟ قالوا بلى فتبسم والتفت إلى من حوله من جمهور الناس وقال وهو ثابت الجنان راسخ القلب اقرءوا لى الفاتحة يا إخوانى ثلاثاً واعفوا عما فرط منى فضج الناس وارتفعت أصواتهم بالبكاء والنحيب وعلت الضوضاء وارتفعت أصوات النساء من أعالى البيوت والتفت الأشرف إلى الجلاد وقال له: تقدم وافعل ما شئت فالله ولى الأمر فتقدم الجلاد ووضع الحبل فى عنق الأشرف وجذبه فانقطع الحبل وسقط الأشرف فضج الناس وصاحوا وولولوا فرفعوه ثانياً فانقطع الحبل فاشتد صياح الناس وعلت أصواتهم بالبكاء ففارقته روحه فبكاه الناس بكاءً مرًا وكان عند ذلك مكشوف الرأس وعليه ثياب من الجوخ الأحمر وفوقها ملوطة وفى رجليه سراويل من جوخ أزرق ثم تركوا جثته معلقة ثلاثة أيام حتى فسدت وأنتنت فأنزلوها وساروا بها إلى مدرسة عمه السلطان الغورى فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه فى الحوش الذى خلف المدرسة. رحمة الله برحمته الواسعة.

قال أهل التاريخ: وقد كان شاباً حسن الوجه لا يتجاوز الرابعة والأربعين من العمر بطلاً مقداماً حازماً تولى النيابة فى القبة لما خرج عمه السلطان الغورى إلى قتال السلطان سليم بحلب فأحسن التدبير وأمن السبيل ودفع المظالم وأبطل الإحداثات والبدع وكان محباً للرعية شفوقاً كثير البر والإحسان وقوراً. قال بعض كتاب الأخبار: ولما جهز لقتال السلطان سليم حبب إليه بعض الأمراء أن يجبى الأموال من الرزق والأقطاعات معجلاً لنفقة الحرب فقال: لا ولا أجعلها نقطة سوداء فى صحيفة أعمالى وكانت مدة سلطنته ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوماً إذ كانت ولايته فى الرابع عشر من رمضان وهروبه فى التاسع والعشرين من ذى الحجة وهى كلها حروب وكروب وخطوب. روى أنه لما كثر ظلم مماليك الغورى وزاد عبثهم بأمور الرعية وكثر فسادهم فى الأرض أبغضهم الناس جداً وضجوا إلى الله يطلبون الخلاص، واتفق أن رجلاً من خيار الناس رأى جندياً من عسكر الغورى أخذ متاعاً من دلال ولم يرضه فى قيمته فتبعه الدلال يطالبه بحقه وهو ممتنع فقال الدلال بينى وبينك شرع الله فضربه الجندى بدبوس شج رأسه وسقط مغشياً عليه فرفع الرجل يديه إلى السماء وقال: إلهى أنت أعلم بما تفعل هذه الفئة فاحكم فأنت خير الحاكمين ثم نام فى تلك الليلة وهو حزين مما رأى فرأى فى منامه أن ملائكة نزلت من السماء وبأيديهم مكانس وهم يكنسون الشراكسة كنسا فاستيقظ مدهوشاً وإذا بقارئ يقرأ قوله تعالى: ﴿ **فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** ﴾ فعلم الرجل أن الله يأخذهم أخذاً وبيلاً فلم يمض إلا القليل من الأيام حتى قدم السلطان سليم وبدّد شملهم وأباد سلطانهم ومزقهم أيدى سبأ فزالت بموت الأشرف طومان باى دولة الشراكسة المعروفة فى عرف أصحاب التاريخ بالدولة الثانية فكانت مدة تصرفهم مائة سنة وإحدى وعشرين سنة وجملة سلاطينهم اثنان وعشرون سلطانا أولهم برقوق وآخرهم الأشرف طومان باى.

ولما دانت الأمور للسلطان سليم بموت الأشرف أخذ يرتب أمور البلاد على ما يشاء فجعل إدارة البلاد ثلاث طبقات وجعل فى كل طبقة منها رئيساً وجميعهم طوع أمر وزير الديوان الكبير ورتب هذا الديوان من والوالى المنتدب من قبل السلطنة على البلاد ومن بكوات سبع وجاقات عسكرية وخص الوالى المذكور بتبليغ الأوامر السلطانية إلى الديوان وحماية البلاد وتوصيل الخراج إلى الخزينة السلطانية وفصل الخصومات بين أرباب الديوان وبعضهم وإيقاف كل عند حده وخص أرباب الديوان

بنقض أوامر الوالى عند الحاجة وخلعه من المنصب عند الضرورة والتصديق على مايصدر منه من المراسيم الديوانية المتعلقة بأمور البلاد وقسم البلاد القبلية والبحرية إلى أربع وعشرين مديرية وولى جماعة من المماليك عليها فكان عليهم جمع الخراج وجباية الأموال ورد العربان عند خروجهم عن الطاعة وقيد هؤلاء الحكام ولم يطلق لهم العمل إلا بمشورة أرباب الديوان العالى ولقب أحدهم المقيم بالقاهرة بشيخ البلد، ثم قسم الخراج الذى يتحصل فى كل سنة إلى ثلاثة أقسام، الأول لمرتبات الجند من المشاة والفرسان والثانى لحاجات الحرمين والثالث للخزينة السلطانية وأقام من المرابطين لحراسة البلاد عشرين ألفا من المشاة واثنى عشر ألفا من الفرسان وجعل مقدمهم خير الدين أغا الانكشارى ورسم له بملازمة قلعة الجبل وعدم البراح منها. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يلتفت إلى تحسين أحوال الرعية ولا نظر فى رفع تلك المضار السائدة على أهل البلاد ولا خفف عنهم شيئاً مما أتت به الحروب المتوالية والخطوب المتراكمة فكان هذا كله أكبر الأسباب التى آلت بهذا النظام إلى الزوال وبشوكة السلطنة العثمانية إلى الضعف والذبول على توالى الأيام. ثم انتقل بخيامه من الجزيرة الوسطى إلى الروضة وابتنى له كشكاً فوق قاعات المقياس وهو مشرف على النيل والروضة والمقياس فكان يجلس فيه محتجباً إلا عن بعض خواصه وكبار دولته ثم نزل من ذلك الكشك وسكن فى دار الأشرف طومان باى التى خلف حمام العراقى المطل على بركة الفيل وكان سبب ذلك أن بعض الانكشارية تآمروا على قتله فأحس بذلك ونزل من الروضة وسكن فى الدار المذكورة وأمر فقبضوا عليهم وكانوا كثيرين وأعملوا فيهم القتل والتفريق والشنق على أبواب القاهرة كباب زويلة وباب النصر وباب الفتوح حتى أفناهم.

وجاءت الأخبار إلى السلطان سليم بتأهب ملك فارس لقتاله ورد ما أخذ من أملاكه فأهمه هذا الامر جداً وأخذ يتأهب للخروج من مصر إلى الشام فعرض جميع الخزائن وحواصل الحكومة وأخرج ما فيها من سلاح ومتاع وكراع وغير ذلك ونقل جميع التحف والنفائس التى بالديوان الكبير بقلعة الجبل وكذلك التى كانت فى قاعة البيسارية والدهيشة وغيرهما وجمع جميع الكتب التى كانت فى خزائن المدارس على اختلافها وخاف أن يترك أمير المؤمنين المتوكل على الله فى منصب الخلافة فتطمع نفسه فى السلطنة فقبض عليه ليحمله معه إلى القسطنطينية وقيل بل أمره بالشخوص إليها فخرج يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى وخرج معه ابنا عمه خليل

وهما أبو بكر وأحمد وخرج معه أيضا الناصرى محمد العلائى على بن خاص بيك صهر الخليفة وكذلك الشرفي يونس ابن الأتابكى سودون، وقبل خروج الخليفة نزع السلطان سليم منه الخلافة قهراً ولبس شعارها فى محفل حافل فخرجت فى هذا اليوم الخلافة من بني العباس إلى آل عثمان وزالت عنهم كما زال الملك من ديار مصر بزوال دولة الغورى فسبحان من بيده تصاريف الأمور وهو المعز المذل يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء إنه على كل شيء قدير.

وتأهب السلطان للرحيل عن مصر فسير أمامه إلى القسطنطينية من أولاد الملوك والسلاطين الذين كانوا بديار مصر وكبار الأمراء والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمباشرين والكتاب من القبطة وهم المعلم بانوب كاتب الخزينة السلطانية والمعلم يوحنا الصغير والمعلم أبو المكارم وغيرهم وكثير من الأعيان وكبار التجار وأرباب الصنائع من مثل المهندسين والبنائين والنجارين والحدادين والمرخمين وصغار الفعلة فساروا بهم فى يوم الجمعة سابع عشر رجب الفرد إلى الإسكندرية ثم إلى القسطنطينية وأنزلوا معهم شيئاً كثيراً من الرخام والعمد مما أنزلوه من قلعة الجبل والقاعات الكبرى وأخذوه من بيوت الأمراء والأعيان من القاهرة ومصر القديمة وكانت شيئاً كثيراً.

قال بعض كتاب الأخبار : كان عدد من خرج من الأمراء وأولاد الملوك والقضاة وغيرهم زهاء ألف وثمانمائة وقيل بل أكثر من ذلك جداً فكانت شدة عظيمة للغاية.

(مطلب)

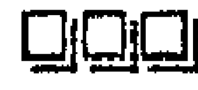
خروج السلطان سليم من مصر إلى مقر سلطنته بالقسطنطينية

ولما كان يوم الخميس ثالث عشرى شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة خرج السلطان سليم يريد الرحيل إلى القسطنطينية فسار من بيت الأشرف ومر من الصليبة إلى الرميلة وهو فى موكب وجلالة وأمامه العساكر والأجناد من المشاة والفرسان وطوائف الأمراء وكبار الجند وعدة جنائب حربية والأمير خير بيك نائب مصر وجان بردى الغزالى وكان السلطان راكباً على بغلة قيل إنها كانت للسلطان الغورى كان يركبها فى الأسفار وحوله جماعة الوزراء وبينهم يونس باشا والدفتردار فسار بموكبه على السور ومر بتربة الأشرف قايت باى ووقف أمام القبر لحظة لطيفة ثم مرّ من بين

المقابر إلى تربة العادل التى بالفضاء واستمر على ذلك حتى نزل بالمخيم الذى نصبوه له ببركة الحج ولم تعلم العامة بخروجه فى ذلك اليوم فلم تقف للقائه والدعاء إليه كعاداتهم فى مثل هذه المواكب، ثم سار من بركة الحج إلى الخانقاه السرياقوسية . قال بعض كتاب الأخبار : ولما وضع رجله بالركاب يريد المسير تقدم إليه خير بيك بمفاتيح البلد فردها عليه وقا له : وليتك إياها إلى أن تموت بها فشاوره على أن أبناء الشراكسة يريدون الدخول فى خدمة الأجناد فأجابه إلى ذلك فشاوره أيضاً فى إبقاء أوقاف الشراكسة وهى نحو عشرة قراريط من أرض مصر فأجابه بإبقائها على ما كانت عليه فاستاء وزيره وقال فنى مالنا وعسكرنا ونسلمهم بلادهم وندخلهم فى عسكرنا ونبقى أوقافهم يستعينون بها علينا. قال فغضب السلطان وقال أين الجلاد فضرب عنق الوزير ووضع رجل الثانية فى الركاب وسار. **قلت**: ويقال إن لقتل الوزير المذكور سببا آخر، ولما نزل السلطان الخانقاه لاطفوه وسألوه عن سبب قتل الوزير فقال عاهدناهم على أنهم إن ملكونا بلادهم أبقيناها لهم وجعلناهم عليها فهل يجمل بنا أن نخون العهد؟ وإذا أدخلنا أبناءهم فى جندنا فهم مسلمون أولاد مسلمين وأما أرضهم فأصلها ملك الفاتحين ومنهم من أوقف ومنهم من قامت ذريته من بعده فهل يجوز لنا أن ننازع الملاك فى أملاكهم وإنما أزلت الوزير كراهة أن يغير علىّ اعتقادى بتكرار كلامه.

وسار من الخانقاه يريد بلبيس فلما صار على مقربة منها أصابه مرض حال بينه وبين ركوب دابته فأرسل إلى الأمير خير بك يطلب منه أن يعجل بإرسال محفة فأرسلها إليه فركبها وسار إلى الشام لقتال ملك الفرس فأقام هناك أشهراً وقد اشتدت به علته فسار إلى القسطنطينية فكانت مدة إقامته بمصر ثمانية أشهر إلا أياماً وكان من يوم قتاله للسلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى فى مرج دابق إلى قيامه من القاهرة سنة واحدة وشهر واحد وقد تملك فى هذه المدة من الفرات إلى مصر والعراقين وما حولهما. قال بعض كتاب الأخبار: وكان دخول السلطان سليم بجيوشه إلى مصر من أكبر الضربات على البلاد وأهلها فقد هلك بسببه العدد العديد من الرجال والنساء والأطفال حتى الدواب وتخرب الكثير من المساكن والشوارع والحارات وكسدت التجارة وتعطلت الصناعة حتى بطل منها خمسون صنعة من أعظم الصنائع وأشرفها وزالت منها الخلافة كما زالت السلطنة وأصبحت أيالة تابعة لدار السلطنة العثمانية.

ولما ارتحل السلطان بعسكره إلى القسطنطينيـة اشتد به المرض وظهرت فى ظهره قرحـة عظيمة عـجز الأطباء عن عـلاجها فكانت توضع الدجـاجة فى قرحـته هذه فتذوب وشـوهدت معاليق أكبـاده من خلف ومازال يشتد به المرض حـتى مات سنة ست وعشـرين وتسعـمائة فكانت مـدة سلطنته تسع سنـين فتولى الملـك بعده ولده السلطان سليمان.



(الفصل الثانى)

(فى سلطنة السلطان سليمان ابن السلطان سليم)

ثم قام بـالأمر بعده ولـده السلطان سليمـان بويع له بالملك يوم موت أبيـه سنة ست وعشرين وتسعمائة هجرية أى سنة تسع عشرة وخمسمائة وألف ميلادية وعمره يومئـذ ست وعشرون سنة فكان عاشـر ملوك آل عثمان وكـان يوم مات أبوه مقيـماً بإقليم سارخان فأخفى الوزراء خبر موت السلـطان سليم حتى يحضر خوفاً من قيام الانكشارية وإضرام نار الفتنة فلما جاءه الخبر بموت أبيه سار إلى القسطنطينية فدخلها فى سادس عشر شوال وكانت طوائف الانكشارية فى انتظار قدومه فلما رأوه صاحوا بأصوات التهليل وطالبوه بالعطايا حسب العادة فطيب خواطرهم ووعدهم بالإحسان وفى غد ذلك اليوم أغدق عليـهم من إنعامه وطير الخبر بخـلافته إلى الآفاق وراسل جمـيع العمـال والولاة وأمراء مكة والمـدينة فى أمر الحكم بين الناس بالعـدل فكان يستهل رسائله بآية: ﴿**إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم**﴾.

وعلم السلطان سليـمان بما كان من إخلاص خـير بك فى خدمـة أبيه السلطان سليم فأعجبه ذلك ونظر إلى مصر نظرة الراغب فى فـلاحها فأخذ فى تقرير أمورها على أحسن القـواعد ورتب فيـها ديوانين ينظران فى مصـالح الرعية ويفـصلان فى الخصومات فكـان إذا انعقد هذان الديوانان جلس الوالى خلف ستار المنبر لـيسمع ما تدور عليه رحى الحديث بعد أن يرسم الكتخدا والدفـتردار بذلك فإذا تمت مباحثات المجلس رفع الكتخدا والدفتردار ما استـقر عليه الرأى إلى الوالى فيرسم بتنفيذه وبلا نقض ولا إبرام فيـقضيه الكتخـدا من الدفتردار. ويختص الديوان الكبـير من هذين الديوانين برؤية أهم الأمـور التى لا علاقـة لها بدار السلطنة العـثمانيـة فكان لذلك

يتألف من أغوات الوجاقات الست والدفترداريين والرزنامجيين والنواب فى جميع وجاقات العساكر وأمير الحاج وقاضى القضاة والمشايخ والعلماء والأشراف وأصحاب الفتوى الأربعة والأئمة الأربعة، وكان لا يجتمع إلا فى المهمات من الأمور ولا يصح اجتماعة إلا بناء على طلب الوالى وكانت تأتى إليه المراسيم السلطانية على يد الوالى. وأما الديوان الثانى فكان ينعقد كل يوم فى بيت الوالى من الكتخدا والدفتردار والأغا وكبار وجاق المتفرقة ونائب من كل وجاق فينظر فى الأعمال وما تحتاج إليه البلاد من الأمور النافعة. ورسم السلطان بأن يكون مقر الوالى بقلعة الجبل وأن لاتزيد ولايته عن سنة واحدة ثم تعطى لغيره ممن يقع الاختيار عليه ورسم أيضاً بإبطال بعض المكوس والمغارم وأزال بعض العوائد والرسوم وهيأ الحصون ومهد المسالك وزاد فى نظام الجند فأنشأ وجاقاً سابعاً ممن بقى من المماليك الشراكسة ورتب لكل وجاق ديواناً ينظر فى شئونه ويتألف هذا الديوان من كبار الوجاق وأفراد من ضباطه وكان لكل منهم لباس مخصوص وعلامة مخصوصة تدل على مرتبته ووظيفته وكان عدد جند هذه الوجاقات كلها عشرين ألفا وربما زادوا أو نقصوا وكان لوجاق الانكشارية الأفضلية على سائر الوجاقات وكبير مقدم على جميع كبارهم وله الكلمة النافذة عليهم فى كل حال وهم يبجلونه ولا يخالفون له أمراً.

(مطلب)

تقرير الأمير خير بك على عمالة مصر وما جرى له

ولما أتم نظام الأمور على ما أراد أقر خير بك على عمالة البلاد وأجاز له التصرف فى الأمور بما فيه المصلحة وأن يعدل فى الرعية ولا يحدث شيئاً من المغارم والمكوس فجعل خير بك يتصرف تصرف الملوك والسلاطين وبدت من دلائل الجفاء والشدة. قال بعض كتاب الأخبار: ثم لم يلبث أن طغى وظلم وأخذ الناس بالشبهات وأساء إلى طوائف الجند فأبغضوه وتربصوا به الشر فلما أحس منهم بذلك أخذ فى تدبير الحيلة وجمع إليه من بقى من طوائف المماليك الشراكسة وقربهم إليه وأدنى كبارهم منه وأباح لهم ركوب الخيل وحمل السلاح وقد كان ذلك محرماً عليهم منذ دخول السلطان سليم القاهرة بعسكره ورسم فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة وسوق السلاح وقلعة الجبل فشق هذا الأمر على طوائف الجند وأحسوا بما وراء ذلك من الخيبة إن هم ظلوا متقاعسين فقاموا قومة رجل واحد

وسيروا طائفة منهم فوقفوا لخير بك فى حوش الديوان وكلموه فى ذلك وأغلظوا عليه فى القول ومنعوه من الدخول إلى بيته وسبوه وهمّ بعضهم بقتله فأفلت منهم وانزوى فى بيته فعاثوا فى قلعة الجبل وأزعجوا من فيها وتطاولت أيديهم إلى النهب وثاروا على خير الدين نائب القلعة وهموا بقتله فأغلق دونهم الأبواب واختفى منهم فى ذلك اليوم فنزلوا إلى المدينة وتفرقوا وهم حاقدون على خير بك ناقمون عليه واشتدوا على الرعية فصاروا يشوشون على جميع الخلق بلا فرق ولا تمييز حتى على السوقة والباعة وكانوا يأخذون ما فى البيوت من الأبواب والشبابيك وخشب الأسقف للوقود وكان إذا احتاج أحدهم إلى وقود للحريق ذهب إلى أقرب البيوت لبيته وأخذ منه ما يحتاجه ليوم أو ليومه وغده على مرأى من صاحب البيت حتى أخذوا جميع ما فى الأماكن التى فى زقاق الكحل والسطاحي والتى فى الجسر وحكر الشامى والأزبكية من الأخشاب وكانوا يبيعون ما فضل منهم بأبخس الأثمان. قال بعض كتاب الأخبار: فضج الناس وعجوا واجتمع أصحاب البيوت وتبعهم العامة وساروا إلى بيت قاضى القضاة العثمانى وشكوا إليه من فعال أولئك الجند وصاحوا واستغاثوا وقالوا: ما يحل ذلك يامولانا فشق الأمر على القاضى وركب من ساعته وسار إلى بيت الأمير قايتباى الدويدار وأخذه وسار إلى خير بك بمقره وأعلماه بالخبر وأغلظ القاضى فى القول وهدد خير بك إن لم ينشط إلى العمل فجمع خير بك كبار الجند واختيارية الوجاقات وكلمهم فى ذلك فطيبوا خاطره وهوّنوا عليه الأمر وطلبوا منه أن يمنع فتح الحوانيت ليلاً فأمر فنادوا بذلك فكانت السوقة تقفل الحوانيت قبل غروب الشمس.

واتفق فى هذه الأثناء أن جاء رسول من دار السلطنة فى طلب بعض الأمراء المصريين وعدد من العساكر الشاهانية يعنى الانكشارية والأصبهانية نجدة ففرح خير بك بذلك ونادى فى العسكر بالتأهب للرحيل فغضبوا وظنوها خدعة من خير بك وأبوا الرحيل وزادوا فى الإفساد والإضرار بخلق الله فكانوا كلما أكثروا فيهم المناداة زادوا تمرداً وطغياناً ثم خرج منهم جماعة إلى الشرقية وآخرون إلى الغربية فعاثوا وأفسدوا وأحرقوا الحرث والنسل وانضم منهم جماعة أيضاً إلى بعض العربان وقطعوا السبل على المارة واختفى منهم جماعة بالقاهرة ومصر القديمة فشدد خير بك فى التفتيش عليهم وقبض على جماعة منهم وسجنهم فى قلعة الجبل ورسم لرسول دار السلطنة بالتأهب للسفر معهم بلا إبطاء فلما كانت الليلة التى قبضوا فى نهارها

عليهم اجتمع جميع الذين كانوا فى القلعة منهم بالحوش وكسروا باب القلعة ونزلوا منها ليلاً إلى مصر القديمة وركبوا بعض السفن التى وجدوها هناك وساروا إلى الصعيد متفرقين فخشى خير بك شر العاقبة ورسم للأمير قايتباى الدويدار بالخروج خلفهم بخيله ورجله وأن يقتل كل من لقيه منهم فى الطريق بغير معاودة فقام قايتباى ومعه الأمير جانم الحمزاوى والأمير على العثمانى وعبروا النيل إلى الجيزة فلبثوا بها يومهم حتى تكامل خروج عسكرهم ثم ساروا إلى ناحية الميمون بالقرب من جزيرة عدي فالتقوا هناك مع الانكشارية فقاتلوهم قتالاً عنيفاً وانتصر الأمير قايتباى عليهم نصرة عظيمة وحرق مراكبهم وقتل منهم خلقاً كثيراً بالمكاحل والبنادق وقبضوا على من بقى منهم وحزوا رؤوس كبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وعادوا إلى القاهرة ففرح خير بك بذلك ورسم لوالى القاهرة برفع تلك الرؤوس على أبواب المدينة فلم يمكنه كبار الانكشارية من ذلك وكادت الفتنة تقوم بالقاهرة، وخاف من بقى من الانكشارية والأصبهانية وانكمشوا وأطاعوا وخرج منهم طائفة كبيرة مع رسول دار السلطنة إلى الريدانية ثم رحلوا عنها بعد أيام إلى الشام مع بعض الأمراء المصريين الذين جاءهم الطلب فكانت هذه الوقعة أول فتن الانكشارية بعد أن تسلموا حراسة البلاد والذب عنها، ولما ظهرت الفتنة على النحو المذكور ضعفت شوكة خير بك وكادت هيبته تزول وطمع العربان فى البلاد وخرج حسن بن مرعى شيخ عربان البحيرة فى طائفة كبيرة من قومه وانضم إلى جماعة من عربان الشرقية وغيرهم وعاثوا فى بلاد البحيرة وأفسدوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا وقطعوا السبل على المارة وسار بهم ابن مرعى المذكور يريد القاهرة ووردت الأخبار بذلك إلى خير بك فاضطرب ونزل من قلعة الجبل إلى الميدان وعرض جميع المماليك الشراكسة والعساكر العثمانية واختار منهم جماعة وسيرهم مع الأمير قايتباى الدويدار والأمير خورشد كبير العثمانيين وكانت الأمور قد ضاقت جداً على أهالى الشرقية والغربية واتسع نطاق الفتنة واستفحل أمر الفساد وفعل أولئك الناس بالقرى ما لا يطاق من الجور وظهر عبد الدائم بن بقر وإخوته وهو من زعماء عربان الشرقية فعاث أيضاً وأفسد وخرب بلاداً كثيرة من الشرقية والغربية وعمت الفتنة البر والبحر فكبر خوف الأمير خير بك وشدد على قايتباى الدويدار وخورشد بالقيام إلى البحيرة أولا وقطع شأفة ابن مرعى وأصحابه فحثوا السير فلما أحس ابن مرعى بقدومهم وعلم أن لا قبل له على قتالهم أرسل أخاه شكرا إلى الأمير خير بك يطلب له الأمان فكتب إليه خير بك يؤمنه

وبعث إليه صورة يمين ليحلفه علـى يدى القاضى فخر الدين بن عوض وأرسل إليه كذلك قفطـان حرير مخمل وخلع على أخـيه شكر خلعة أخرى وكـتب إلى الأمير قايتباى أن يتربص بعساكره فتربصوا فى المكان الذى أدركهم فيه الخبر وجاء حسن بن مرعى صحبة القـاضى فخر الدين بن عوض وصعد إلى قلعة الجـبل فأكرم خير بك لقاءه وخلع عليـه خلعة سنية ثم أنزله فى موكـب حافل وعادت الأمور فى البـحيرة والغربيـة إلى سابق مـجراها واطمـأنت قلوب الرعيـة وتحول قايتـباى بمن مـعه من العساكر نـحو الشرقية فلما علم بقـدومه عبد الدائم بن بقر زعيم العـصاة بها أرسل إلى خيـر بك يطلب الأمان فأجـاب إلى ذلك وأرسل يستقـدمه فحضـر إلى القاهرة ومعه جماعة من العربان وحضر مـعه أبوه أحمد بن بقر فلما مثل بين يدى خير بك أكرم لقاءه ولقـاء أبيه وهمّ أن يخلع عليهمـا ويقرر عبد الدائم المذكور على شـياخة عربان الشرقيـة فقال أبوه: إن أنت فعلت ذلك أيها الأمير جـلبت على أهل الشرقية وبالاً ومكنت ولدى هذا من رقاب الأبرياء وزدت نار الفتنة إضرامـاً فعجب خير بك بكلامه وأمر فى الحال فقـبضوا على عبد الدائم وكبلوه بالحديد وقـبضوا على جميع من جاءوا معه مـن أصحابه وسلموهم إلى خير الدين بك نائب القلعـة ففرح الناس بذلك فرحاً لا يوصف لاسـيما أهل الشرقية والغـربية واطمأنت قلوب الخلق وزالت عنهم المخاوف ثم بعد أيام قلائل أخرجوا من أولئك العربان عدة أشخاص وأماتوهم شنقاً بعـضهم على قنطرة الحاجب وبعضـهم على رأس الحسينية وبعـضهم عند باب النصر وقتلوا آخرين بغير ذلك أيضاً. وأما حـسن بن مرعى شيخ عربان الغربية فإنه بعد أن خلع عليه خلعة الرضا وأعاده إلى الغـربية معززاً لم يلبث بها إلا قليلاً حتى دس خير بك إلى إينال السيفى طراباى كاشف الغربية بأن يقتله مع أخيه شكر فأخذا إينال المذكور يكاتب ابن مرعى ويتودد إليه ويظهر له غاية الإخلاص والمودة حتى أمن جانبه ومـال إليه ثم أدب له مأدبة عظيمـة فى بلدة قريبة من دمنهور ودعـاه إليها مع أخيه شكر فـأجابا دعوته وأتيا إليـه فأحسن لقاءهمـا وبالغ فى الترحيب بهـما حتى حضر الطعام فأكلوا جميعاً ثم انتقلوا إلى مجلس الشراب فشربوا فبينما هم كذلك إذ خرج على حسن وأخـيه جماعة من المماليك الـشراكسة من مكان كانوا مخـتفين به وعاجلوهما بضرب السـيوف واحتزوا رأسيهما فأرسل بهـما إينال الكاشف إلى خير بك ففـرح ورسم لوالى القاهرة برفعـهما على باب النصـر فرفعهـما وتزاحم الناس لمشاهدتـهما . قـال بعض كتـاب الأخبـار : وحسن بن مرعى هـذا هو الذى غدر

بالسلطان الملك الأشرف طومان باى وقبض عليه وسلمه إلى السلطان سليم واتفق إنه لما سار حسن المذكور إلى مأدبة الكاشف إينال السيفى كان راكباً على فرس السلطان الملك الأشرف التى كان أخذها يوم سلمه الى جند السلطان سليم بعد أن أقسم أنه لا يخونه ولا يدس عليه فلما احتز المماليك رأسه ورأس أخيه شكر ربطوهما فى عنق ذلك الفرس ودخلوا بهما القاهرة على هذه الصورة فعد ذلك من النوادر العجيبة فى بابها.

وفرح خير بك بموت ابن مرعى وعده من أكبر أسباب الظفر وبث العيون والأرصاد حول جماعة العربان فى البحيرة والغربية والشرقية وشدد فى ذلك فانكمشوا وخافوا وتمكن كاشف المنوفية من قتل شيخ العرب على الأسمر بن أبى الشوارب فاختفى من بقى من كبار العربان وأصحاب الكلمة فيهم وسلكت بعض الطرق التى قطعها العربان واطمأنت قلوب الناس ولكن لم تطل هذه الأيام حتى عاد عربان السوالم إلى الخروج بالشرقية وكاد يستفحل أمرهم وعاد الناس إلى التخوف فأعمل إياس كاشف الشرقية الحيلة للقبض على مشايخهم ومازال يتقرب منهم ويتودد إليهم حتى استدعاهم إلى مأدبة أعدها لهم فركنوا إليه واطمأنت من قبله قلوبهم وأتوا إليه فأكرمهم لقاءهم وأحسن وفادتهم ولم يقضوا معه يومهم حتى قبض عليهم وقتلهم وسلخ جلودهم وحشاها بالتبن وأرسل يعلم الأمير خير بك بالخبر فسير إليه خير بك طائفة من الانكشارية والأصبهانية والجراكسة فأحاطوا بمنازل عربان السوالم وقتلوا من وجدوه بها من الشيوخ والنساء والأطفال وغنموا ما فيها من الخيل والإبل والأغنام والإماء والعبيد والملبوس والمفروش وقبضوا على الشيخ نجم شيخ عربان العائد لاتهامه بإمداد عرب السوالم وأتوا برؤوس من قتلوا مع جلود المشايخ إلى القاهرة فتفرق من بقى وطلع جماعة إلى الجبال. ونزل جماعة إلى الصالحية فأحرقوها وأحرقوا ما جاورها من القرى والكفور وقتلوا ونهبوا أخذاً بالثأر واشتدت الفتنة وعمت جميع أنحاء الشرقية فولى خير بك أخا نجم شيخ عربان العائد شيخاً بدل أخيه نجم وجهز لقتال السوالم طائفة من الانكشارية والأصبهانية وأخرى من المماليك الشراكسة وطائفة من الرماة بالبنادق وبعض المكاحل وكان لما قبضوا على نجم شيخ عربان العائد قام أيضاً أصحابه وعاثوا فى بلاد الشرقية وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وانحدروا حتى أتوا على رأس المطرية فكانوا يقبضون على المارة ويسلبون ما يجدونه معهم فلما وصلت العساكر إلى الشرقية هرب من بقى من السوالم وأطاع

من كبارهم من لم يهرب وسلموا بأنفسهم إلى إياس كاشف الشرقية فنزل بهم إلى القاهرة ودخل بهم على الأمير خير بك فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضا وأقرهم على المشيخة بشرط الطاعة وحسن الولاء والإخلاص فى خدمة الدولة فأطاعوا.

(مطلب)

خروج الغزالي والي الشام عن طاعة السلطان وعزمه على الزحف على مصر وضمها إلى الشام

ورسم خير بك بشنق شيخ العرب أبو الشوارب فشنق ومعه آخرون من كبار العربان ثم عاد فعفا عن نجم شيخ العائد وأفرج عنه وولاه المشيخة ثانية وأطلق آخرين من كبار السوالم وكان الحامل له على ذلك ما ورد إليه من الأخبار بخروج جان بردى الغزالى والى الشام عن طاعة السلطان واستقلاله بملك الشام واتخاذه لنفسه شعار السلطنة، وأنه قد خضع له جميع الولاة والعمال وقبلوا الأرض بين يديه وزينت له جميع المدن والبلدان أياماً ثلاثة فلقب نفسه بالملك الأشرف أبى الفتوح وكتب إلى جميع الولاة يستحثهم على تجنيد الجند وإعداد آلات الحرب لقتال خير بك بمصر وأخذ البلاد منه وضمها إلى الشام كما كانت على عهد من سلف من الملوك والسلاطين. وكان الحامل له على قتال خير بك أنه لما هم بالخروج وشق عصا طاعة السلطان راسل خير بك فى ذلك وحبب إليه الخروج وألح عليه فى الطلب وهون عليه الأمر، فخدعه خير بك وسير كتب الغزالى إلى السلطان وعلم الغزالى بخبر ذلك فأكبره وأعظمه جداً وتجرد لقتال خير بك فخاف خير بك من هذه الأخبار وخشى سوء العاقبة فأطلق لذلك من أطلقهم من مشايخ وكبار العربان الذين كانوا فى السجون وعاهدهم وأمدهم بالأسلحة والكراع ورسم لهم بقتال جان بردى الغزالى فى طريقه قبل أن يصل إلى الديار المصرية فخرج منهم جماعة وساروا إلى الشام لمنع الغزالى ولومه وكان الغزالى قد جمع إليه جموعاً كثيرة من الأكراد وعربان جبل حوران ونابلس وعربان بنى عطا وبنى عطية وغيرهم من طوائف العربان وخرج من دمشق فى جيش عظيم للغاية وجموع كثيرة جداً يريد الديار المصرية فاهتم الأمير خير بك لذلك وعرض العساكر والأجناد وجمع طوائف الانكشارية والأصبهانية والكمالية المماليك الشراكسة وغيرهم ممن شاء الدخول فى خدمة الدولة وجماعة

كثيرة من المغاربة والروم أصحاب الحرف والصنائع وأكثر من جمع السلاح وإنشاء المركبات والعجلات لجر المكاحل ونادى فى هذه الجموع والأجناد بالتأهب والاستعداد.

(مطلب)

قتل الغزالي وإرسال رأسه إلى دار السلطنة

وبينما كان خير بك يجند الجنود ويكثر من جمع السلاح كانت رسل الغزالى تأتى إلى مصر بالرسائل إلى بعض الأمراء من الروم وبعض التجار والجواسيس تنقل من أخبار خير بك إلى الغزالى كل ما وصلوا إلى معرفته فأحس خير بك بذلك وشدد ومنع من دخول الأغراب إلى القاهرة إلا بعد البحث والتنقيب عن أحوالهم وقبض على بعض الروم من تجار خان الخليلى وأمر بقتلهم فقتلوا تحت قلعة الجبل بتهمة نقل الأخبار وكان من أمره أنه إذا نقل إليه أن أحد الناس مهما كانت درجته ذكر الغزالى فى مجلس أو تكلم عن زحفه على ديار مصر أو عن استقلاله بملك الشام أمر بصلبه على أحد أبواب القاهرة ثم أمر بإلقاء جثته للكلاب فتنهشها فخاف الناس جداً وانكمشوا وقل خروجهم إلى الأسواق وجلوسهم على الحوانيت، وجاءت الأخبار بوصول طلائع لموم الغزالى إلى اقطيا فجرد خير بك لقتالهم طائفة من الأصبهانية وأخرى من الكسالية فساروا من الريدانية إلى بلبيس ومنها إلى الصالحية فأفسدوا فى طريقهم وعاثوا ونهبوا الكثير من الضياع وعلى الخصوص ما كان منها حول بلبيس والصالحية وأخذوا ما فيها من الشعير والسمن والطيور وأذاقوا أهل البلاد مرارة الجسور وانقطع الوارد من الديار الشامية وسدت المسالك فى وجوه أصحاب التجارة فانكفوا وانقطعت العلائق مع أهل الشام وكتب خير بك بتحرير الخبر إلى دار السلطنة فاهتمّ السلطان بأمر الغزالى وجند لقتاله الجنود وسيرها على قدم السرعة ومقدمها الوزير فرحات باشا فلاقته العساكر السلطانية عند حلب الشهباء وكان الغزالى محاصراً لها فقاتلته قتالاً عنيفاً أياماً كثيرة ثم انتصرت عليه ومزقت شمل جنوده ففر وسار يريد الشام وقد كسر جسر الرستين فتبعته العساكر السلطانية وقاتلته خارج دمشق قتالاً شديداً أياماً مات فيه خلق كثير قيل عشرة آلاف وقيل أكثر من ذلك وضيق عليه العساكر السلطانية وسدّوا عليه المسالك حتى قبضوا عليه وقتلوه ذبحا كذبح الشاة وأخذوا رأسه مع رؤوس كثير من كبار قومه وأرسلوها إلى دار

السلطنة. قال بعض الكتاب: وكـان الغزالى هذا من مماليك الأشرف قايتبـاى اشتراه وأعتقـه وأخرج له خيلا وقـماشاً وصار من جملة المـماليك السلطانية ثم استـخدمه الأمير تغرى بردى الأستادار شادا على ضيعـة له بالشرقية يقال لها منية غزال فنسب إليها وقيل له جـان بردى الغزالى مضافاً لاسم تلك الضيعة ثم إن الأشـرف قايتباى قرره جمـداراً وجعله فى كشف الشـرقية ثم صار أمـير عشرة فى آخـر دولة الناصر محمـد بن قايتباى ثم تولى مـحتسباً للقـاهرة فى دولة السلطان الغورى ثم ولاه فى حجوبية الحـجاب بمدينة حلب فخرج إليها مـن يومه ثم نقله السلطان الملك الغورى إلى نيابة صفد وذلك سنة سـبع عشرة وتسعمائة ثم إلى نيابة حـماة فلبث بها حتى كان ما كان بين الغورى والسلطان سليم فانضم الغزالى بعسكره إلى جيوش السلطان سليم فولاه الـسلطان سليم الشام وجـعل له التحدّث على الشـام وحمـاة وحمص وصيدا وبيـروت وبيت المقدس ورملة والكرك وغيـر ذلك من الأعمال الشامـية فلما استقر به هذا المنصب تاقت نفسه إلى الاستقلال بملك الشام فصار يجند الجنود ويكثر من المعـدات وآلات الحرب وضم إليـه الكثـير من عـربان حـوران ونابلس والكرك وغيرهم واستمـال كثيراً من المماليك الجراكسة ممن كـانوا فى خدمة الدولة فى مصر فساروا إليـه ولحقوا بعسكره ولحق به أيضاً كـثير من الأكراد والتركمـان ومازال حتى بلغت جنوده اثنى عشر ألف مقاتل وبينهم كـثير من الرماة بالبنادق فزحف بهم يريد فتح المدن والأمصـار وألبس نفسه شعار السلطنة وتلقب بالملك الأشـرف أبى الفتوح وضربت السكة باسمه وخطب له على المنابر فى دمشق وغيرها من المدن قيل خطب له بدمشق جمعتين، وكان طائشاً عديم الرأى غـير بصير بعواقب الأمور كثير الأخذ بالشبهات كبـير البطش وكانت مدة ولايته على نيابة الشام ثلاث سنين وسـبعة أشهر إلا أياماً ولقد صدق من قال :

والنفس لا تنتهى عن نيل مرتبة ... حتى تروم الذى من دونه العطب

ولما جاءت الأخبـار بزوال ملك الغزالى وسقوطه فى قـبضة العساكر السلطانية وقتله فرح الأمير خير بك فرحاً عظيماً إذ لم يكن عنده من الجنود ومعدات القتال ما يقوى مـعه على مبارزة جـموع الغزالى وجيـوشه المنظمة لاسـيما وقد كـانت الفتنة ضارية بين كـبار جند خير بك ورؤسـاء عسكره وكان كلمـا أخرج طائفة وسيـر بها لقتـال الخوارج عاثت فى البـلاد وأهلكت الحرث والنسل وفعلت مـا لا تفعله جنود العدو إذا احتلت البلاد عنوة وكان يخاف جـداً من طوائف المماليك الشراكسة حيث

تحقق له أن بعض كبارهم مالوا عنه وانضموا إلى دعوة الغزالى وأنهم يراقبون الفرص ويتأهبون للخروج عند أول سبب، وعادت المواصلات التجارية ما بين مصر والشام بعد موت الغزالى وجاءت قوافل التجارة بأصناف البضائع على اختلافها وزالت وحشة الناس وسكنت خواطرهم بعد الخوف وزاد اطمئنانهم بوصول الأخبار من دار السلطنة بأن السلطان سليمان أجاز لمن كان أحضرهم أبوه من الأمراء المصريين والقضاة ونواب القضاة والشهود والعدول والمعتبرين والتجار وأرباب الحرف والصنائع من المصريين يوم خروجه من مصر بعد فتحها أن يعودوا إلى أوطانهم فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى حضر منهم من لم تخترمه المنية. قال بعض كتاب الأخبار: وقد ذاقوا الذل ألوانا وأصبح الأعيان والمباشرون منهم لا يملكون شروى نقير حيث نفدت أموالهم، وجاءت أيضاً خاتون سلطانة عمة السلطان سليمان ومعها ولدها الأمير مصطفى تريد الحج إلى بيت الله الحرام وكان حضورها فى كبكبة زائدة وخدم وحشم وكثير من الخصيان فقوبلت بغاية الاحتفاء والاحتفال وسار الأمير خير بك وجميع الأمراء وكبار المماليك فى ركابها حتى نزلت فى بيت مطل على بركة الفيل ورتبت لها ولخدمها المآكل والمشارب ووقف على بابها بعض الحجاب وزارها نساء الأمراء وقدمن لها التحف والهدايا النفيسة فلما خرج المحمل خرجت مرافقة له فى هودج وأمامه الخدم والحشم وبالغ أمير الحج فى تنظيم الركب وسير أمامه المركبات وعليها المكاحل والمدافع النحاس وأنفقت السلطانة فى الحرمين أموالاً عظيمة وشيئاً كثيراً من الأقمشة والغلال وتصدقت على الفقراء ونزلاء التكايا وكثر فى هذا الحين إفساد الانكشارية والأصبهانية بأسباب عدم صرف جماكيهم وتأخير مرتباتهم فنزعوا إلى الثورة وتعرضوا لخير بك فى طريقه وتحت القلعة وخاطبوه ببذئ القول وفحش الكلام وأقسموا أنهم ينهبون المدينة إن هو أصر على إيقاف صرف جماكيهم ومرتباتهم ووقف جماعة منهم على أبواب الأمراء يهددونهم إن لم يكلموا خير بك فى ذلك فكلموه وحذروه شر العاقبة فصرف لهم بعض المال على قدر الحاجة واعتذر بقلة ذات اليد وعجز المباشرين عن جباية الأموال وتعذر البيع والشراء وكساد الحال وبوار الكثير من المزارع وتشرد أصحابها بسبب فعال العساكر وعبثهم بالبلاد ثم شدد على المباشرين وطالبهم بالمال فانبثوا فى البلاد وطلبوا قسط الخراج معجلاً قبل وفاء النيل وزرع الأراضى وضيقوا على أهل البلاد وبالغوا فى التشديد وقد كان متحصل خراج مصر فى هذه الدولة أى دولة السلطان سليمان على ما قاله بعض الكتاب ألف

ألف دينار وثلثمائة ألف دينار ذهباً ومن الغلال ستمائة ألف أردب منها ثلثمائة ألف قمحاً وثلثمائة ألف شعيراً وفولاً وغير ذلك فى كل سنة.

(مطلب)

كم كان خراج مصر في دولة السلطان سليمان وما بعده إلى هذا الحين

(قلت): وكان خراج مصر على عهد المقوقس عظيم القبطة على ما رواه تقى الدين فى خططه مائة ألف ألف دينار وثمانين ألف ألف دينار وكانت مساحة أرضها على عهد الفراعنة مائة ألف ألف فدان وثمانين ألف ألف فدان تزرع غير البور وبلغ خراج مصر على عهد عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى السرح فى صدر الإسلام اثنى عشر ألف ألف دينار وفى أيام أحمد بن طولون أربعة آلاف ألف ألف دينار وثلثمائة ألف دينار غير ما يتحصل من المكوس والغلال، وجبى خراجها فى الدولة الإخشيدية فكان ألفى ألف ألف دينار وجبى خراجها فى أيام الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فكان اثنى عشر ألف ألف دينار (قلت): وهو اليوم عشرة آلاف ألف ألف وخمسمائة ألف وبضع مئات ذهباً أى جنيها، وكانت جوامك ومرتبات العساكر فى ذلك الحين درجات بعضها فوق بعض فكانت جمكية الأصبهانية منهم ستين ديناراً وخمسين وأربعين وثلاثين وعشرين فى كل شهر والانكشارية ما بين خمسة عشر واثنى عشر ديناراً فى كل شهر والصوباشية ثلاثين ديناراً فى كل شهر والكمالية ما بين اثنى عشر وعشرة دنانير فى كل شهر والمماليك الشراكسة سبعة دنانير فى كل شهر هذا عدا مرتبات الأمراء وكبار الجند وعظمائهم وكانت هذه الجوامك والمرتبات لا تصرف إلا من خراج الشرقية والغربية والبحيرة والأقاليم القبلية فقط دون الأموال الخارجة من الشغور كثغر الإسكندرية ودمياط ورشيد والبرلس وعبدة وغيرها فإنها كانت تحمل إلى خزائن السلطان مباشرة فلا يأخذ الوالى منها شيئاً حتى ولا للجهاد والغزو وكانت أيضاً بعض المغارم والمكوس تحمل كذلك إلى خزينة السلطان فلا يأخذ الوالى منها شيئاً وسرى ذلك إلى ما كان مقرراً على الرزق والاقطاعات والأرزاق الأحباسية والأوقاف وترك الأموات من طوائف الترك والمماليك الشراكسة، ثم تعدى ذلك أيضاً إلى ما كان مقرراً لنواب القضاة والشهود على عقود الأنكحة فقيدوا به قاضياً مخصوصاً اسمه القسام فضرب على عقد البكر ستين نصفاً والثيب ثلاثين نصفاً كانت تحمل إلى الخزينة السلطانية.

(مطلب)

إبطال السلطان سليمان لقضاة المذاهب الأربعة

ولما كانت سنة ثمان وعشرين وتسعمائة رسم السلطان سليمان بإبطال قضاة المذاهب الأربعة من التصرف فى القضاء بديار مصر وتسليم جميع الأحكام الشرعية لقاض واحد من قضاة الروم وأن تبطل وظائف سائر النواب والشهود وأن لا يبقى سوى أربعة من النواب لكل مذهب نائب لاغير ولكل نائب منهم اثنان من الشهود لاغير وأنهم يكونون جميعاً بالمدرسة الصالحية فلا يصح بعد ذلك لأحد أن يوقف وقفاً أو يعقد عقداً أو يكتب وصية أو عتقاً أو إجارة أو حجة أو غير ذلك من الأمور الشرعية حتى تعرض على قاضى العسكر المذكور ونودى فى القاهرة ومصر القديمة بذلك فاضطربت أحوال الناس كافة وانكمش جميع القضاة والنواب والشهود وصاروا يتوقعون حضور قاضى العسكر المذكور فى كل يوم فلما كان يوم الاثنين عاشر رجب من السنة أى سنة ثمان وعشرين وتسعمائة قدم إلى القاهرة القاضى المذكور واسمه سيدى چلبى فأوكبوا له موكباً جافلاً وساروا به حتى أنزلوه فى بيت الأمير جانم مصيفة الكائن خلف المدرسة الغورية فلما استقر به المقام قدم عليه قاضى القضاة الشافعى كمال الدين الطويل وقاضى القضاة المالكى محيى الدين الدميرى وقاضى القضاة شهاب الدين الفتوحى الحنبلى وكان قاضى قضاة الحنفى مريضاً فى هذا الحين فلم يحضر. قال بعض كتاب الأخبار: فلما دخلوا عليه لم يجلهم ولم يقم لقدومهم وكان شيخاً مسناً أبيض اللحية طويل القامة على عينه سحابة فصيح اللسان يحسن العربية جيداً فكلمهم ساعة ثم انصرفوا فلما كان اليوم الثانى نزل الأمير خير بك من قلعة الجبل إلى الميدان وجلس بالمصطبة وجلس معه الأمراء العثمانيون والأمير قايتباى الداودار ثم حضر القاضى المشار إليه وبين يديه المرسوم السلطانى فقرئ المرسوم بحضرة من ذكروا وهو يتضمن تسليم زمام جميع الأحكام الشرعية فى المذاهب الأربعة إليه وأن يكون القائم على جميع الأمور الشرعية على اختلافها ثم كان منه بعد ذلك أن رتب جميع الأمور التى تتعلق بالأحكام والقضاة فأقام قاضياً للحنفية من الروم يحكم بالنيابة عنه وجعل مقره بالمدرسة الصالحية وأقام آخر للحكم على مذهب الإمام الشافعى بالنيابة عنه وأقام لكل قاض من الروم نائباً من قضاة مصر فجعل القاضى شهاب الدين بن شيرين الحنفى نائباً عن القاضى

صلاح الدين العثمانى وجعل القاضى شمس الديـن محمد الحلبيى الشافعى نائباً عن القاضى فتح الله العثمانى وجعـل القاضى أبا الفتح الوفائى أحد نواب المالكية يحكم بين الناس على قاعدة مـذهبه والمرجع فى جميع الأحكام إلى قـاضى العسكر المشار إليه ثم رسم بأن لا يبقى مع كل نائب من هؤلاء الأربعة سوى شاهدين اثنين وأبطل سائر النواب والشهود ورسم للرسل والوكلاء الذين بالمدرسة الصالحية بأنهم إذا وقفوا أمامه يأخذون بأيديهم العصى فاجتمع منهم بالمدرسة زهاء الستين.

(مطلب)

ما تقرر من الرسوم على التركات لبيت المال وما أحدث من الإحداثات

ثم أقام أيضاً شخـصاً من الروم للتحدث على التركات سماه (القـسام) فضرب على كل تركـة الخمس لبيت المـال مع وجود الورثة من الذكـور والإناث وشدد فى طلب ذلك ونودى فى القاهرة ومصـر القديمة بذلك وبأن لايعقد أحـد من الشهود قاطبة عقداً ولا يكتب وصـية ولا إجارة ولا مبايعة ولا شيئـاً من الأمور الشرعية إلا فى المدرسة الصالحـية وشدد فى السيـر على مقتضى الشريعـة والعمل بموجب السنة وعامل الغنى والفقـير والجليل والحقير على السـواء فهابه الناس كافة وخـافه الأمراء والكبراء حتى إذا كان لأحد من العامة فى ذمة أحدهم شيء بادر إلى إرضائه وتلطف فى معـاملته خـوفاً من الشكوى. ورسم فـنادوا فى القاهرة ومـصر القديـمة بأن لا تخرج امرأة إلى الأسـواق إلا العجائز منهن ومن خالفت تضـرب وتربط من شعرها بذنب أكديش ويطاف بها فى القاهرة ومصر فخاف النساء خوفاً عظيماً وانكمشن ولم يخرجن. واتـفق أنه صعد إلى قلعـة الجبل يومـاً فوجـد بعض النسوة يتـحدثن مع جماعة من العسكر الأصبهانية فى وسط السوق فعز عليه هذا الأمر وكلم الأمير خير بك فى ذلك فرسم الأمـير خـير بك بأن لا تخرج امـرأة من بيتـها ولا تركب على حمار مكارى وكل مكارى أركب امرأة شنق من يومه فخاف المكارية وبارت حرفتهم فباعوا حـميرهم قاطبة واشتـروا بدلها أكاديش وشدوها فصارت النســاء يركبن عليها وتحتـهن الطنافس والمكارى يقود لجـام الأكديش كمـا يفعل المكارية بالقسـطنطينية، ورسم القاضى أيضاً بمسح أطيان الأقاليم القبليـة وترتيب سائر الرزق الأحباسية على قاعدة نظمـها هو لذلك وقيد بهذا العـمل القاضى فخر الدين ابن عـوض فسار إلى

الصعيد ومعه جماعات المساحين والقياسين وطوائف الكتاب والمباشرين فجعل يدخل كل ما يجده من أطيان الرزق الأحباسية فى المساحة العمومية وحبس غلاتها ومنع أصحابها من أخذ شيء منها فاضطربت أحوال أصحابها ووقفوا إلى الأمير خير بك فى طريقه يشكون له مما يفعله القاضى فخر الدين بن عوض وأبرز إليه بعضهم مكاتيبهم بتلك الرزق وبعضهم أبرز مربعاتهم فأخذها منهم وصرفهم خائبين ورسم بإدخال رزقهم فى أطيان الذخيرة. قال بعض أهل التاريخ: ولم يكن ليتعرض لهذه الرزق قط أحد من سلاطين مصر ولا أخرج منها شيئاً عن أصحابها منذ أنشأها الإمام الليث بن سعد فإنه هو الذى دون الأحباس وأنشأ لها فى أيامه ديواناً يختص بها دون ديوان الجيش واستمر ذلك باقياً بعد الإمام الليث حتى قام القاضى فخر الدين بن عوض المذكور فنقضه وهو على جهات البر والإحسان.

قلت: ومن هذا الحين زالت ولاية الأحكام الشرعية أيضاً عن قضاة مصر الأربعة كزوال الخلافة والسلطنة عنها وآلت إلى قضاة الروم يتناوبها الواحد بعد الواحد فيولى ويعزل من القضاة والنواب والشهود من يشاء وقد تبدلت هيئتها وزالت رسومها القديمة وخرجت من طور إلى آخر وضاقت حدودها إلا على من أجازهم قاضى العسكر المشار إليه بتولى الأحكام وبطل من هذا الحين أيضاً جلوس الشهود على الحوانيت للفصل فى الخصومات لا سيما ما كان منها بين المتزوجين وزوجاتهم ومن كان منهم له حانوت لذلك أغلقه وزالت عن أولئك القضاة والشهود والنواب بهجتهم ورونق وظيفتهم وصارت المدرسة الصالحية دار الشريعة ومقر المتحدثين عليها دون بقية الجهات ولبث القاضى المشار إليه على هذا الحال من الشدة وعدم التهاون حتى بصغائر الأمور مدة والناس فى قلق واضطراب عظيمين يضجون ويعجون إلى الله بزوال منصبه وإذهاب سلطته.

(مطلب)

خروج قاضي القضاة إلى الحج

فلما كان السادس والعشرون من شعبان خرج القاضى المشار إليه يريد الحج من طريق القلزم فركب وركب معه إلى تربة العادل مودعاً الأمير خير بك وبقية الأمراء من العثمانيين والشراكسة وكبار الجند وقدموا له بعض التقادم والهدايا النفيسة فسار إلى مدينة بلبيس ثم إلى السويس ومنها إلى مدينة جدة ففرح الناس بخروجه وكانت النساء أشد فرحاً وأكبر سروراً فغنت بعض المغنيات منهم بهذه الكلمات :

قوموا بنا نقحب ونسكر　　قد خرج عنا قاضى العسكر

فكانت عند العامة من أطرب المغانى وأحسنها توقيعاً وأكثرها استعادة واستحساناً وأعمها تداولاً علـى ألسنة الكبار والصغار، ومرض الأميـر خير بك فى هذه الأثناء مرضـاً شديداً فانقطع عن الخـروج ولازم الفراش أيامـاً واشتد به المرض شـدة بالغة فأعتق جميع جواريه وعبيده ومماليكه وأمر بأن يتصدق من ماله على العلماء والفقهاء وأولاد المكاتب وأصحاب المزارات والمنقطعين من ذوى البيوتات ففرقوا شيئاً كثيراً من المال ومن القـمح نحو عـشرة آلاف أردب وأكـثـرت نساؤه وجـواريه من التصـدق والإحسان لعل الله تعـالى يشفيه وأمر بأن يخـرجوا مراسيم للقـاضى فخر الدين بن عوض بالإفراج عن الرزق الأحباسية لأصحابها ويردها إليهم وقد كان ما ضبط منها وأدخل إلى الديوان السلطانى ألف رزقة وثمانمائة رزقة فأفـرج عنها لأصحابها وأعاد لهم أيضاً مكاتيب الرزق الجيشية التى كان أخرجها عنهم يوسف بن الجاكية ثم رسم بإطلاق المحابيس من الرجال والنساء وكانوا كثـيرين فلم يغن عنه هذا شيئاً واشتدت به علته فـاستقدم إليـه الأمير سنان بك الغثـمانى ودفع إليه الخاتم الذى سلمـه إليه السلطان سليم يوم ولاه عمالة الديار المصرية وأعلمـه بأن فى خزائنه من المال ستمائة ألف دينار ذهباً عيناً خلاف ما هو فى بيت المال.

(مطلب)

موت الأمير خير بك

فلما كان يوم الأحـد رابع عشر ذى القعدة سـنة ثمان وعشرين وتسعـمائة مات خير بك المذكور فـاجتمع جميع الأمراء وبينهم الأمـير سنان بك وتولوا غسله ودفنه فى موكب حافل للغاية واستقر الأمير سنان بالقلعة يريد التـصرف فى الأمور حتى يأتيه مرسوم السلـطان فعارضه فى ذلك خير الدين نائب القلعـة ومنعه من التصرف حتى يأتى مرسوم السلطان فأبرز الأمير سنان مرسـوماً سلطانيا يتضمن جواز تصرفه إذا مات خيـر بك حتى يأتى الفرمان بما يسـتقر عليه الرأى وقـيل كان الخلاف على التصرف بين الأمير سنان المذكـور وبين الأمير خضر أحد كبار أمراء العـثمانيين فلما أبرز الأمير سنان المرسوم السلطانى لم يبق بينهما من موجب للخلاف واستقر الأمير سنان بالقلعة وأخذ من يومه يتصرف فعرض ما فى بيت المال من الأموال فوجد لخير

بك بينها ستمائة ألف دينار ذهباً عيناً وكثيراً من الذخائر والتحف والنفائس والأقمشة البعيدة النوال مما لايكاد يدخل تحت الحصر.

وكان الأمير خير بك هذا من مماليك الأشرف قايتباى وهو شركسى الجنس أباظيا وكان اسم أبيه ملباى الشركسى ولهذا كان يدعى خير بك ملباى إلى الأشرف قايتباى وكان له أخوان أحدهما اسمه خضر ولم يعش طويلا ومات والثانى اسمه جان بلاط وكان مقدم ألف وله شهرة مات فى دولة الملك الناصر محمد بن قايتباى وكان موته بالطاعون وأقام خير بك المذكور بالطباق وصار فى عداد مماليك الطباق السلطانية فأخرج له السلطان خيلا وقماشا وأدخله في عداد الجمدارية ثم الخاصكية وصار داودار سكين ثم صار فى سنة إحدى وتسعمائة أمير عشرة فى دولة الملك الناصر محمد بن الأشرف قايتباى وبعث به رسولا إلى دار السلطنة العثمانية فى مهمة فى سنة ثلاث وتسعمائة ثم صار مقدم ألف فى دولة الأشرف جان بلاط وخرج مع من خرج من العساكر والأجناد إلى الديار الشامية فلما وصلها حجر عليه فى دمشق فلما حضر العادل إلى مصر أرسل بالإفراج عنه واستقدمه فلما حضر أنعم عليه بتقدمة ألف وأقره على ما كان عليه فلما تولى السلطنة الملك الأشرف الغورى جعله حاجب الحجاب فلبث بها حتى تولى نيابة حلب فى سنة عشر وتسعمائة ومازال بها حتى زحف السلطان سليم على الديار الشامية يريد ملك مصر فجرى منه ماجرى من الانضمام بجيوشه إلى جيوش السلطان سليم كما فعل الغزالى، وكان من أمر توليته على نيابة مصر ما تقدم بيانه فاستمر على النيابة إلى أن مات فى يوم الأحد رابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة فكانت مدة نيابته خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما بما فى ذلك مدة انقطاعه عن المحاكمات، وكان جبارا عنيدا سفاكا للدماء كثير الأخذ بالشبهات طاغية قتل فى أيامه ما لايحصى من الخلائق ظلما فلما جاء الخبر بموته إلى السلطان سليمان وهو على حصار رودس ولى الأمير الوزير مصطفى باشا وكان صدر الوزراء العثمانيين وزوج أخت السلطان سليمان فحضر إلى الإسكندرية وجاءت الأخبار بوصوله إليها فنادوا بذلك فى القاهرة ومصر القديمة .

(مطلب)

ولاية الوزير مصطفى باشا

فلما كان يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة وصل إلى ساحل بولاق فنزل للقائه الأمير سنان وخير الدين نائب القلعة والأمير خضر وجميع الأمراء وكبار الجند وجميع الانكشارية والأصبهانية والكمالية والشراكسة وقابلوه ثم أركبوه على فرس وعليه الخلعة السلطانية وسارت أمامه العساكر والأجناد قاطبة والأعيان والمقدمون فدخل من باب البحر وسار إلى باب القنطرة فمر من سوق مرجوش ثم من القاهرة وكان الأمير سنان على يمينه والأمير جانم الحمزاوى على يساره والأمير خير الدين والأمير خضر أمامه فارتفعت له الأصوات من العامة بالدعاء وكان أبيض اللون عربى الوجه أشقر الشاربين حليق اللحية معتدل القامة عليه حشمة ووقار ومازال فى موكبه حتى مرّ من الرميلة ودخل من الميدان وصعد إلى قلعة الجبل. قال بعض كتاب الأخبار: تولى مصطفى باشا نيابة مصر وهو فى ركاب السلطان سليمان على حصار رودس يوم السبت خامس ذى الحجة سنة ثمان وعشرين وتسعمائة ودخل مدينة الإسكندرية فى التاسع عشر من ذى الحجة فكانت مدة ولايته منذ تقررت برودس أربعة عشر يوما وكانت مدة حضوره من الإسكندرية إلى ساحل بولاق أربعة أيام فدخل فى يوم الأربعاء ثالث عشرى ذى الحجة فتكون مدة ولايته من حين ولى برودس إلى أن دخل الديار المصرية ثلاثة وعشرين يوما أهـ.

(مطلب)

إبطال نظام قلعة الجبل القديم

ولما استقر به المقام بالقلعة تحول عنها الأمير سنان ونزل إلى داره بدرب ابن البابا فكانت مدة نيابته بالقاهرة ثمانية وثلاثين يوما وفى ثانى يوم نزل مصطفى باشا إلى الميدان واجتمع جميع الأمراء والأكابر والأعيان والقضاة والعلماء وقرئ عليهم المرسوم السلطانى القاضى بولايته ثم أخذ يتصرف وجلس للناس عامة فترادفت عليه القصص بحوائج الناس وأخذ فى تدبير الأمور فأبطل نظام القلعة القديم الذى كان على عهد من سبق من الملوك وأبطل البوابين والركابة والبوابية والسوّاس والفراشين

وغلمان السلطان قاطبة والمقرئين والمؤذنين وغيـر معالم ذلك النظام ورسومه وتصرف فى الحواصل السلطـانية والأشوان وبيت المال كـما يحب ويختـار وجمع إليه أعـيان المباشـرين وكلمهم فى أمر الخراج فـشرعوا فى تحـصيله ورتبوا له ولمماليكه خـاصة وحاشيته وبطانتـه ثمانية آلاف دينار ذهبا فى كل شهر يقومون بـدفعها نقرة فكان إذا تأخر المباشـرون فى شيء من هذا المال المقرر فى أجله ضيق عليـهم وشدد وبالغ في الوعيد فتنبث أعوانهم فى البلاد يضـيقون على أهلها ويشددون فى الطلب ويأخذون كل ما وصلت إليه أيديهم من الماشـية والغلال ويبيعونها بأبخس الأثمـان قياما بأداء تلك النفقة فى آجالها فاشتد بسبب ذلك الكرب على الفلاحين وأصحاب الرزوعات وعم الخطب ونزح الكثـير من أهالى الأقـاليم القبليـة إلى الأقاليم البحـرية وأهالى الأقاليـم البحـرية إلى القبلية وأهملت الأرض فرارا من المطالب المتتابـعة فبارت وقل الوارد من الغلال إلى مـصر وبولاق فارتفعت الأسعـار وشكى الناس من هذا الحال وضجوا وابتهلوا إلـى الله فلم تطل مدة ولايته وجاء الخبر بعـزله وولاية أحمد باشا ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وانكف المبـاشرون عن التضييق على أهالى البلاد فى جباية الأموال فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر ويومان.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا

ولما جاء الخبـر بوصول أحمد باشا المذكور إلى بولاق نزل الأمـراء وكبار الدولة والعلماء والقضاة وأصحاب العكاكيز للقـائه، فركب فى أبهة وكبكبة عظيمة وصعدا إلى قلعة الجبل وأمـر فقرئ فرمان التـولية فى محفل حافل، قـيل وكان السبب فى توليتـه هو أنه لما جلس السلطان سليمان على تخت السـلطنة العثمانيـة صادف وزير أبيه وهو محمد باشا الصديقي فأقره على الصـدارة وكان محمد باشا هذا كبير السن بطئ الحركة فى قـيامه وقعوده وتصرفـه فرأى عجزه عن القيام بأعـباء هذه الرئاسة فأنزل نفسه وولى مكانه إبراهيم باشا المعروف بأودة باشا وكان أقدم من إبراهيم باشا فى الخدمة آخـر هو أحمد باشا وكـان يؤمل أن الصدارة لا تفوته إلى غيـره من بقية الأمراء فزاحم إبراهيم باشا المذكور وجلس بقوة قربه من السلطان فشكاه إبراهيم باشا إلى السلطان فـدبر فى إزالته وولاه مـصر لـيستجلب خـاطره فلما تولاها وأخـذ يتصـرف فى أمورها جعل إبراهيم باشـا الصدر يتعـقبه للعـداوة السابقة ويرمـيه بما

يوجب قتله ومازال بالسلطان حتى أبرز الأمر لجماعة المرابطين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله ثم يولوا أحدهم مكانه حتى يرد عليهم الأمر بولاية خلافه وأرسلت الأحكام بذلك إلى الأمراء بمصر. قال بعض أصحاب الأخبار: فوقع الأمر فى يد أحمد باشا المذكور قبل أن يصل إلى الأمراء فخاف وجعل يضرب أخماسا فى أسداس حتى سولت له نفسه العصيان والخروج عن طاعة السلطان وأن يقاتل بجيش يجمعه من مصر فأبدى الخروج وادعى السلطنة وضرب السكة باسمه على الدنانير والدراهم وتحصن بقلعة الجبل وقبض على الأمير وهب جانم الحمزاوى والأمير محمود بك وسجنهما يريد قتلهما ولبث الحال هكذا أياما اختل فيها نظام القاهرة وظهرت الغوغاء وانقطعت السبل وأغلقت الحوانيت نهارا وعاث أهل الفساد فسرقوا ونهبوا وفعلوا ما لا خير فيه.

واتفق أن دخل أحمد باشا المذكور الحمام يوما للغسل فعلم الحمزاوى والأمير محمود بك بذلك فكسرا الأبواب وخرجا ورفعا صنجقا سلطانيا وناديا من أطاع الله ورسوله والسلطان فليقف تحت الصنجق فوقف تحت الصنجق خلق كثير وجم غفير فساروا وسار أمامهم الحمزاوى ومحمود بك إلى الحمام فكبسا الحمام على أحمد باشا وكان قد حلق نصف رأسه وأعجله على حلق النصف الثانى هجوم أصحاب الحمزاوى فهرب إلى سطح الحمام وتسلق من مكان إلى مكان فنهبوا جميع ما عنده من سلاح ومتاع واقتفوا أثره فأدركوه بمنية جناح بالغربية فقتلوه وذلك فى أخريات سنة ثلاثين وتسعمائة واحتزوا رأسه وجيء به فعلقوه على باب زويلة ثم بعثوا به إلى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه بمصر سنة واحدة لاغير لم يأت فيها عملا يذكر فيشكر :

(مطلب)

ولاية قسام جزل باشا وخلعه وولاية إبراهيم باشا

وقد تولى بعده قسام جزل باشا فدخل القاهرة فى السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه أرباب الوظائف وطوائف الجند من المشاة والفرسان وعليه خلعة التشريف السلطانية فلم يكد يستقر به المنصب حتى جاء الأمر بخلعه وولاية إبراهيم باشا فنزل من القلعة فى المحرم افتتاح سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة ولم يلبث إلا أياما حتى جاء إبراهيم باشا الوالى المذكور ودخل القاهرة

فى كبكبة عظيمة وصعد إلى قلعة الجبل ثم نزل فى ثانى يوم وجلس على المصطبة بالميدان وبين يديه جميع الأمراء والقضاة والعلماء والمباشرين وأصحاب الوظائف فتلى فرمان التولية ورفعت إليه القصص فى ذلك اليوم فنظر فى مصالح الخلق وكان عاقلا ذكيا محبا للخير، واهتم السلطان سليمان فى أيامه بترتيب أمور الديار المصرية فأجاز لطوائف المماليك الشراكسة الذين أقرهم والده على خدمة الدولة أن يتولوا رتبة الباشوية عند الحاجة وضم إليهم اثنى عشر أميراً فكان من يصح انتخابهم إلى هذه المرتبة العظيمة الكيخيا وقباطين ثغور السويس ودمياط والإسكندرية وأمير الخزينة السلطانية والدفتردار وأمير الحج وصناجق الشرقية والغربية وجرجا والبحيرة، وكان لدار السلطنة اهتمام عظيم وعناية كبرى بالثغور الثلاثة المذكورة لأنها أبواب البلاد فكان الجند المرابطون فيها يقدمون من دار السلطنة مع القباطين فيقيمون سنة ثم يستبدلون بآخرين وهكذا فى كل سنة فكان مرابطو الثغور المذكورون غير محسوبين فى عداد العسكر المصرى وكأنهم أجانب عنه.

(مطلب)

ولاية سليمان باشا الخادم وفيما رسم به السلطان من مساحة أطيان سائر البلاد وجعلها ملكاً للسلطان

ولم تطل مدة إبراهيم باشا فقد جاء الأمر بعزله فرحل عن مصر فى شعبان سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سبعة أشهر وتولى بعده سليمان باشا الخادم فدخل القاهرة فى تاسع شعبان من السنة وجعل يتصرف فى الأمور فرسم فى أيامه السلطان سليمان بمساحة جميع قرى مصر وضبط أراضيها على يدى الأمير كيوان وربط خراجها على من كان يستغلها فطاف المساحون البلاد ومسحوها وقسموها إلى أحواض سموها بالقراريط وأحكموا عملهم فزاد الخراج زيادة عظيمة وجباه الولاة فكان بعد ذلك شيئا كثيرا، ورسم بأنه هو صاحب جميع أرض مصر ومالكها يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء فكان يقطعها لطائفة من الأهالى يعرفون بالملتزمين فكانوا يتصرفون فى الأرض تصرف الملاك ما بين هبة وإسقاط وإيقاف وغير ذلك وكان أصحاب الأرض الذين هم ملاكها من أهل البلاد يحرثونها ويفلحونها لأولئك الملتزمين، ولا يأخذون من غلاتها إلا بقدر الحاجة ولا يتصرفون فيها مع توريثها لأعقابهم من بعدهم وكان لا يحل لأحدهم ترك ما بيده من الأرض

أو التخلى عن تعهدها بالحرث والزرع بل كان يجبر على ذلك ويضرب ويقوم بدفع ما عليها من الخراج إلى أولئك الملتزمين فإذا مات الفلاح ولم يعقب نسلا أعطيت أرضه للملتزم وهو يعهد بحراثتها لمن يشاء فإذا مات الملتزم ولم يعقب وارثا انحل التزامه وعاد إلى ملك السلطان وكان إذا تأخر الفلاح والملتزم فى دفع الخراج أخذت منهما الأرض وسلمت لغيرهما ليقوم بما عليها فى آجاله وبعد أن أتم مساحة جميع الأطيان سموها من هذا الحين أطيانا سلطانية ورزقا وأوقافا وإقطاعات وغير ذلك وكتب بها دفاتر محررة ووضعت بديوان مصر المحروسة وتسمى دفاتر ترابيع سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة ولم تلبث أن أحرقت ثم جددت وقيل بل أهملت ولم تتجدد.

(مطلب)

ولاية خسرو باشا وخلعه ورجوع سليمان باشا إلى الولاية ثانية

وكان سليمان المذكور ميالا للخير يحب إنشاء المبانى العظيمة والآثار الفاخرة فعمر جامعا بقلعة الجبل وآخر ببولاق القاهرة وبجواره وكايل وأسواق وربوع وغير ذلك ثم ورد عليه مرسوم السلطان سليمان بالتوجه إلى اليمن فكانت مدة تصرفه بديار مصر تسع سنين وأحد عشر شهرا وستة أيام فتولى بعده خسرو باشا ودخل القاهرة فى عشرى رمضان سنة إحدى وأربعين وتسعمائة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر وعمر صهريجا بين القصرين بالقاهرة وتصرف إلى سادس جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر وستة أيام وعزل ثم عاد سليمان باشا الخادم إلى ولاية البلاد عند عوده من اليمن فى حادى عشر رجب سنة ثلاث وأربعين فتصرف إلى حادى عشر المحرم سنة خمس وأربعين وكانت ولايته الثانية سنة واحدة وخمسة أشهر وواحدا وعشرين يوما، وكان حسن التدبير عظيم السياسة واسع الرأى مطاعا محبوبا ثم عزل.

(مطلب)

ولاية داود باشا

وتولى بعده داود باشا فدخل القاهرة فى سابع المحرم سنة خمس وأربعين وتسعمائة وجلس للناس على المصطبة بالميدان فرفعت إليه القصص فنظر في مصالح الخلق وجعل يتصرف مع الكياسة والعدل وكان كريما مهيبا محبا للعلوم والعلماء كلفا بالمطالعة واقتناء كتب العرب وقد جمع منها شيئا كثيرا واستنسخ كل ما ظفر به منها وسعدت فى ولايته البلاد واطمأنت الرعية وساد الأمن وسلكت السبل وبنى فى ولايته مدرسة عظيمة بسويقة صفية اللالة بالقاهرة ووقف لها أوقافا وهى باقية إلى الآن وتصرف إلى ثالث عشر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وتسعمائة فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة وشهرا واحدا وعشرين يوما وتوفى بالقاهرة ودفن بالقرافة وكانت أيامه كلها بركة وإسعادا.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا صفصفان وخلعه وولاية علي باشا

وتولى بعده مصطفى باشا صفصفان فوصل القاهرة فى الخامس من ربيع الأول سنة ست وخمسين وتسعمائة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ولم يقع فى أيامه شيء يذكر فتصرف إلى شهر رجب من السنة المذكورة وعزل فكانت ولايته أربعة شهور ونصف شهر وتولى بعده على باشا فى خامس عشر سنة ست وخمسين وتسعمائة وتصرف إلى غاية المحرم سنة إحدى وستين وتسعمائة وعزل فكانت مدته أربع سنين وخمسة أشهر وستة وعشرين يوما وكان على باشا هذا وقورا معززا محبوبا من الرعية شفوقا عليها بعيدا عن العسف والظلم ميالا إلى إنشاء العمائر العظيمة والآثار النافعة فشاد منها فى رشيد والقاهرة وفوه وحذا حذوه الأمراء والكبراء ففعلوا كذلك بمصر والقاهرة وغيرهما من المدن، ولما انصرف عن ولاية مصر عاد إلى دار السلطنة فجعل يتقلب فى الوظائف العالية والمناصب الرفيعة حتى بلغ مستند الصدارة فدبر الأمور وسار سيرة حسنة للغاية فأحبه الناس ومالت إليه القلوب .

(مطلب)

ولاية محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده

وتولى بعده على مصر محمد باشا المعروف بدوفتركين زاده ودخل القاهرة فى أوائل صفر سنة إحدى وستين وتسعمائة فلما جاء الخبر بوصوله إلى بولاق نزل الأمراء والعلماء والقضاة للقائه فصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ثم تحجب عن الناس وزاد فى التحجب وكان فظا غليظا جبارا عنيدا فأساء التصرف وعبث بالأمور وأكثر من المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم فكثر الوشاة على أبوابه وأخذ بالشبهات فكرهه الناس كافة وأبغضه الأمراء وأعرضوا عنه ثم خلع فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وشهرين وتسعة عشر يوما.

(مطلب)

ولاية إسكندر باشا

وتولى بعده إسكندر باشا فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وتسعمائة فتصرف إلى غاية رجب سنة ست وستين فكانت ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثمانية أيام وكان شهما حازما حسن التدبير والسياسة وقورا مهيبا عمر فى ولايته المدرسة التى بباب الخلق المطلة على الخليج الناصرى وهى من أفخر المبانى وأتقنها وعمر تكية تجاهها وسبيلا بجوار المدرسة فعمل له بعض الشعراء تاريخا نصه: رحم الله من دنا وشرب سنة ٩٦٦. ووقف على ذلك أوقافا جليلة.

(مطلب)

ولاية علي باشا الخادم خلعه وولاية شاهين باشا

ولما خلع تولى بعده على باشا الخادم فدخل القاهرة فى سابع عشر شعبان سنة ست وستين وتسعمائة فتصرف إلى سادس عشر صفر سنة ثمان وستين فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر ولم يقع في أيامه من الحوادث شيء يذكر، وتولى بعده شاهين باشا فدخل القاهرة فى ثانى ربيع الأول سنة ثمان وستين وأخذ يتصرف فى الأمور فكان رجلا جليل القدر حسن السياسة والتدبير ومازال حتى عزل فى غاية

جمادى الآخرة سنة إحدى وسبعين وتسعمائة فكانت مدة ولايته ثلاث سنين وثلاثة أشهر.

(مطلب)

ولاية علي باشا الصوفي

وتولى بعده على باشا الصوفى فدخل القاهرة فى أول رجب سنة إحدى وسبعين وتسعمائة ولاقاه الأمراء والعلماء والقضاة وأصحاب الوظائف وصعدوا به إلى قلعة الجبل فلم يجلس للناس كعادة الأمراء والولاة وتحجب ثم لم يلبث أن تجبر وظلم وكان قبل حضوره إلى مصر واليا على بغداد وكان له فيها أحوال غريبة وأحكام جائرة فأبغضه الناس وشكوا منه وضجوا وعجوا فعزل عنها وأتى به إلى مصر وكثر عسفه فكثر الفساد في البلاد وارتفع الأمن وعاث اللصوص فنهبوا وسلبوا بغير ممانع وأحاط قطاع الطرق بضواحي مصر والقاهرة فانكمش الناس وانكفوا عن الخروج خارج السور وضجوا وشكوا إلى على باشا المذكور فلم يلتفت لشكواهم وكأنه كان يقاسم أهل الفساد فيما يسرقونه فبلغت الجراءة بالغوغاء والحرافيش مبلغها وقامت طائفة من الفداوية فأوقدوا النار في المدينة طمعا فى النهب فسرى الحريق إلى الجامع الأبيض واشتدت النيران وعلا اللهيب وكثير النهب والسلب وخرجت النساء والأطفال والشيوخ من الديار هائمين على وجوههم فرارا من فعال الفداوية ومازالت النار تعمل فى جميع ما وصلت إليه حتى كادت تدمر جميع المساكن والوكائل وغيرها .

(مطلب)

في سبب إقامة السور من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض

وكلم الأمراء على باشا المذكور في أمر اللصوص وفيما آلت إليه حالة المدينة من الخراب فلم يلتفت لقولهم فرأوا أن يقيموا سورا من قنطرة الحاجب إلى الجامع الأبيض ليمنعوا البلد من تطاول أيدى اللصوص إليها فأقاموه ووكلوا به من يحرسه فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر قليلا ومازال على باشا المذكور يتصرف بالجور والظلم حتى خلع .

مطلب)

ولاية محمد علي باشا المعروف بالمقتول

وتولى بعده محمد على باشا المعروف بالمقتول فقدم من دار السلطنة فى كبكبة عظيمة فكان كلما مر ببلد من الإسكندرية إلى القاهرة قدمت له التحف والهدايا ومدت له الموائد وبالغ الناس فى تعظيمه وإجلاله فرحا بخلاصهم من ظلم الصوفى وجوره، فلما دخل القاهرة لاقاه جميع الأمراء والعلماء والقضاة والباشرين وأصحاب الوظائف العالية والأمير محمد بن عمر متولى الأقاليم القبلية يومئذ وقدم له عدة هدايا نفيسة للغاية وخمسين ألف دينار نقرة فأجله محمد على باشا المذكور وأدناه من مجلسه وقد طمع فيه فلما استأذنه بالانصراف وخرج من مجلسه أمر فقبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه خنقا فاندهش الناس من ذلك جدا وأخذتهم الطيرة وسأل عن قاضى القضاة يومئذ الشيخ يوسف العبادى فقيل له إنه لم يحضر فرسم بإحضاره فأحضروه فلما مثل بين يديه أمر بخنقه وهو يستغيث وليس من يغيثه ثم تحجب عن الناس أياما ثم ظهر وبث العيون والجواسيس بين الأمراء وأرباب الدولة فزاد عسفه وأخذه للناس بالشبهات وأكثر من القتل وإراقة الدماء وبالغ فى إذلال الرعية والتنكيل بالأمراء وكان لا يسير فى المدينة إلا ومعه الشوباصى وهو كبير الجلادين فإذا مر بأحد وأراد قتله أشار بيده إلى الشوباصى المذكور فينزع حالا رأسه عن جسده ويهدر دمه على الفور فانكمش الناس وزاد خوفهم وضجوا إلى الله وابتهلوا بالدعاء وزاد سخطهم عليه وتواردت قصص الأمراء بمصر على دار السلطنة مستغيثين من عسف محمد على باشا المذكور وظلمه للرعية فلم يلتفت السلطان إليهم لاشتغاله يومئذ بفتح جزيرة مالطا التى كانت إلى هذا الحين مقر رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى وإعداد سفن الحرب ومراكب النقل اللازمة لذلك لأنه لما اتسعت أملاك السلطنة العثمانية وبسطت يدها على الكثير من سواحل البحر الأبيض المتوسط وكانت جزيرة مالطا واقعة بين إقليم تونس وجنوبى إيطاليا وكان لمن يملكها اليد الطولى على البحر المذكور عمد السلطان سليمان إلى فتحها وسير إلى ذلك مائتى سفينة حربية فحاصروها حصارا تاما وضيقوا عليها تضييقا شديدا وواصلوا الرمى عليها بالمكاحل وداموا على هذا الحال أربعة أشهر مات فى خلالها الأمير طرغول أمير تلك العمارة العظيمة وكانت الفرنجة تسميه دراجوت

ومع كل ذلك لم ينالوا منهـا وجاء الشـتاء وكـثرت الزوابع وارتفـعت أمواج البـحر فارتـفع عنها الحـصار وعـادت العمـارة إلى القسطنطينيـة فعـاد الأمراء بمصـر إلى الاستـغاثة بالسلطان من شـر محـمد على باشـا الوالى وأكثروا من رفـع الظلامات وترادف القصص فلم ينالوا منه شيئا لخروجه فى جيش عظيم فى سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة لصد هجمات النمسـا عن بلاد المجرد إذ كانت له السيادة عليها إلى هذا الحين وبينمـا هو فى الطريق بلغه أن صاحب سكدوار إحدى مـدائن بلاد المجر التى يقال لها أيضـا زيجت قد ظفر ببعض الجيـوش العثمانية التـى كانت تقاتل فى تلك الأصقاع فسار إلى قتاله وحاصر المدينة المذكورة وشدد عليها حتى أخذ جميع معاقلها الأمامية فأخلى عـساكرها المدينة وتحصنوا بقلعتها فلم تفتـر للسلطان همة فى قتالهم واشتد فى القتال وقد نهكه التعب فـمرض وثقل عليه المرض فلما كان العشرون من صفر سنة أربع وسبعـين وتسعمائة اشتد عليه مرضه ومات فـأخفى وزيره خبر موته تحاشيا من وقوع الفشل فى العسكر وسير إلى ولده الأمير سليم بكوتاهية يعلمه بخبر موت أبيه ويحـثه على الحضور إلى القسطنطينية ليـتولى منصب السلطنة ولم ينكف الوزير عن القتال مع من تحصنوا بقلعة سكدوار ووالى الهجوم عليها ومازال بها حتى احتلتها العـساكر العثمانية عنوة فـهرب من كان بها من الأعداء فلم يستقـر بها مقام العساكر العثمانية حتى انخسفت بهم أرض القـلعة وسقط جميع بنائها عليهم جميعا فماتوا تحت الردم وذلك أن العـدو كان قد دبر المكيدة بأن عـمل عدّة ألغام تحت بناء القلعة فلما دخلتها العساكر واستـقروا بها أشعل العدوّ تلك الألغام فانخسفت أرض القلعة وتهدم جميع بنائها وهلك جمـيع من دخلها ولما تم النصر للعساكر السلطانية على هذه الكيفيـة طير الوزير خبره إلى الآفاق وسيـر الرسائل بخاتم السلطان كى لا يعلم أحد بخبر مـوته ثم عاد إلى القسطنطينية مع من بقى من العساكر ومعهم جثة السلطان فوجد أن الأمير سليم قد حضر وقبض على زمام الأمور وأخذ يتصرف فى أعمال المملكة. قال أصحاب التـاريخ: ولم تكن ولاية العهد قد أتت إليه بالأرشدية أو الاستحقاق بل بدسيسة أمه روكسلان إحدى حظيات السلطان وقتل السلطان لولده الأرشد الأميـر مصطفى وابنه الثانى الأمـير بايزيد مع أولاد بايزيد الخمسـة، وتحرير الخبر، أنه كان للسلطان سليمان حظية مجـهولة النسب تسمى روكسلان وكان يحبها حبـا شديدا فولدت له من الذكـور الأمير سليـمان وابنتين وكـانت تتمنى أن يكون الملك لابنها بعـد موته ولكنهـا كانت تخفى ذلك عن السلـطان وتراقب من الفرص

أنفعها فلما مات إياس باشا صدر الدولة سعت روكسلان المذكورة لدى السلطان فى تولية رستم باشا منصب الصدارة وكان بينها وبين رستم المذكور كلام فى أمر مبايعة ولدها بالملك بعد أبيه فولاه السلطان الصدارة وأدناه منه كثيرا وزوّجه بابنته من روكسلان هذه فزاد تعلق روكسلان به وعمد هو إلى ارضائها بتمهيد الطريق لتولى ابنها الملك بعد أبيه فلما انتشبت الحرب بين الدولة ومملكة فارس سير السلطان الأمير مصطفى أكبر أولاده على رأس جيش إلى ساحة القتال وكان محبوبا عند طوائف الأنكشارية لحسن سياسته ومعرفته بفنون الحرب والقتال وبسالته وإقدامه فأبلى فى الفرس بلاء حسنا وظهرت شجاعته فازداد حب طوائف الانكشارية له ومالت قلوبهم جميعا إليه فانتهز رستم باشا هذه القرصة وكتب إلى السلطان يخوفه من ولده ويقول إنه عامل على الخروج وشق عصا الطاعة مع طوائف الانكشارية وعزل السلطان وتوليه هو منصب السلطنة كما فعل السلطان سليم الأول بأبيه بايزيد فأكبر السلطان هذا الخبر واستعظمه وكاد لا يصدقه وأهمه للغاية فأنست منه روكسلان الحيرة والاضطراب فسألته عن سبب ذلك فأخبرها بخبر ولده مصطفى وما قاله رستم باشا فاظهرت غاية الخوف والانزعاج وأخذت تقبح له فعال الأمير وترميه بالخيانة والغدر وتحذره من عاقبة التهاون بهذه المكيدة ومازالت به حتى التهب قلبه غيظا وقام فى طائفة من عسكره يريد بلاد فارس وطير الخبر بأنه إنما قام ليتولى قيادة هذه الغزوة فلما اقترب من المعسكر خرج ولده مصطفى وجميع الأمراء وكبار الجند للقائه وساروا فى ركابه حتى أنزلوه فى سرادقه وفرح ولده مصطفى بقدومه فرحا عظيما فلما كان الثانى عشر من شوال سنة ٩٦٠ هجرية استدعى السلطان ولده مصطفى إلى سرادقه ليكلمه فى أمر القتال مع الفرس فدخل عليه وهو فى لباسه المعتاد فلم يكد يصل إلى أبيه حتى قبض عليه جماعة من الخدم وقتلوه خنقا وهو يصيح ويستغيث بأبيه حتى مات وأبوه ينظر إليه ثم نقلوا جثته إلى مدينة بروسة فدفنت فى تربة أجداده. قالوا ولم تكتف روكسلان بقتل الأمير مصطفى بل أرسلت أيضا إلى مدينة بروسة بعض خواصها فقتلوا ابنه الرضيع وشاع هذا الأمر بين الناس فاستعظموه وانحرفت خواطرهم عن السلطان. وبكى الأمير مصطفى أهل العلم والأدب ورثاه الشعراء ولم يخشوا بأس أبيه فقال بعضهم فى ذلك:

يادهر ويحك ما أبقيت لى جلدا وأنت والد سوء تأكل الولدا

وثار طوائف الأنكشارية على السلطان وطلبوا قتل رستم باشا المذكور وهاجوا

وماجوا حتى كادت الفتنة تعم فرسم السلطان بخلعه وولى مكانه أحمد باشا تسكينا للفتنة واسترضاء لطوائف الانكشارية وكان للأمير مصطفى أخ اسمه الأمير جهانكير فحزن على أخيه حزنا عظيما جدا وبكاه بكاء شديدا للغاية حتى مات كمدا عليه بعد قليل من الأيام وقيل بل قتل نفسه أمام أبيه بعد أن وبخه وأنبه على قتل أخيه فلم يبق بعد موته من أولاد السلطان سوى الأمير بايزيد والأمير سليم بن روكسلان، وكان للأمير بايزيد مرب اسمه لاله مصطفى فولاه السلطان النظر على بيت الأمير سليم بعد روكسلان أمه فأحبه الأمير سليم وقربه منه وأعلمه بما كان يخشاه من مزاحمة بايزيد له فى الملك بعد أبيه وطلب منه أن يعمل على هلاك بايزيد وأولاده ليخلو له الجو فهون عليه لاله مصطفى الأمر ومناه بالفوز وجعل يستعمل الحيلة فكتب إلى بايزيد يوما يقول إن أخاك سليما منهمك فى الملذات غافل عن واجب السلطنة وما هو مفروض على أبناء الملوك فضلا عما هو عليه من الطيش وعدم الأهلية لمنصب الخلافة ومع ذلك فإن أباك أبى إلا مبايعته بولاية العهد من بعده فهل لك فى هذا الأمر رغبة؟ وتعددت بينهما الرسائل وركن الأمير بايزيد إلى لاله مصطفى وأتمن جانبه فكاشفه بما فى نفسه ولم يخف عنه أمرا ثم كتب الأمير بايزيد إلى أخيه سليم يوما يعيب فعال أبيه ويرميه بالجفاء وغلظة الطبع ويسمه بالقسوة وفقدان الحنو الأبوى فأشار لاله مصطفى على الأمير سليم بإعطاء تلك المكاتبة لأبيه فلما اطلع السلطان على مابها مما يمس كرامته غضب غضبا شديدا وزاده غضبا وشاية لاله مصطفى بالأمير بايزيد فسير إلى بايزيد يقول له إذا أتاك كتابى هذا تحول من فورك عن قونيه إلى اماسية وكان واليا على قونية فخاف بايزيد من ذلك وظن أن أباه إنما يضمر له الشر فامتنع من الذهاب إلى اماسية وجيش له جيشا عظيما وتحصن فى قونية فسير إليه أبوه جيشا ومقدمه الوزير محمد باشا الملقب صقللى فالتقى الجيشان عند قونية واقتتلا قتالا عنيفا مدة ثلاثة أيام كانت فيها الحرب سجالا ثم انكشف القتال عن هزيمة بايزيد وفراره إلى مدينة اماسية فلحقته عساكر أبيه فرحل عنها إلى بلاد فارس ولجأ هو وأولاده إلى طهماسب ملك فارس فقبله وأكرم مثواه ولكنه سير إلى السلطان سليمان خفية يعلمه بخبره فأرسل السلطان سليمان رسلا فى طلبه فسلمه إليهم طهماسب مع أولاده ولم يرع ذمتهم فأمر بهم السلطان فقتلوا جميعا فى مدينة قزوين إحدى مدائن فارس ونقلت جثثهم إلى مدينة سيواس وخنقوا طفلا كان لبايزيد بمدينة بورسة ودفنوه مع أبيه وإخوته بسيواس. قال أصحاب

التاريخ: فكانت هذه الأمور الشنعاء نقطة سوداء فى تاريخ حياة السلطان سليمان وكادت تذهب بجميع حسناته وشهرة غزواته وكثرة فتوحاته أدراج الرياح مع أنه كان ملكا جليل القدر واسع الكلمة عارفا بفنون الحرب وأساليب السياسة محبا للخيرات وافر الصدقات. قال بعضهم: ومن آثاره الحميدة السحابة الكبرى بطريق الحج ولها أوقاف كثيرة يشترى من ريعها فى كل عام جمل لحمل الفقراء والمنقطعين والعواجز والماء والزاد وغير ذلك ومقرر بها من المغاربة أربعون نفرا ومن المطاوعة أربعون نفرا (يريد بهم العسكر) ذهابا وإيابا مات فكانت خلافته نحوا من تسع وأربعين سنة وله من العمر أربع وسبعون سنة قضاها كلها فى الغزو والفتوحات.

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام أربع عشرة سنة وفى أيام سليمان المذكور اشتد الولاة على قبضة مصر وضيقوا عليهم وعملوا على تبعيدهم عن أوطانهم فبعدوا منهم خلقا من العظماء والوجهاء وخيار الناس ثم صادروا من بقى وأفحشوا فى تخريب بيوتهم وتبديد أرزاقهم فكانت شدّة عظيمة للغاية وبعد موت مرقس المذكور أقيم يوحنا وهو خامس ثمانيهم وأصله من الشام فأقام ست سنين ومات فأقام المتأصلون بعده غبريال وهو سادس ثمانيهم وكان راهبا من دير المحرق فأقام ثمان سنين ومات فأقيم بعده متاووس وهو سابع ثمانيهم وكان راهبا بدير المحرق فأقام ثلاثين سنة ومات وكان عالما تقيا عاقلا محبا للخير معينا للفقراء كثير التصدق ولم تكن أيامه أقل شدة من أيام سلفه فقد ذاقت فيها النصرانية من البلايا والمحن أشكالا وبموته أقام المتأصلون غبريال وهو ثامن ثمانيهم وكان راهبا بدير القلامون ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله وبموت السلطان سليمان كما تقدم القول تولى السلطنة بعده ولده السلطان سليم الثانى .



(الفصل الثالث)

(فى سلطنة السلطان سليم الثانى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمان ولده السلطان سليم الثانى بويع بالملك تاسع ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وتسعمائة هجرية أى سنة ست وستين وخمسمائة وألف ميلادية وعمره ست وأربعون سنة ولم يمض إلا ثلاثة أيام على

بيعته حتى سار فى جيش عظيم إلى نجدة العساكر الذين كانوا يقاتلون بناحية سكدوار فلما وصل إلى ناحية سردم لاقاه الوزير محمد باشا وكان هو القائد لجيوش تلك الغزوة فأعلمه بما يعانيه العسكر من البرد وسقوط الثلج وكان الوقت وقت شتاء وأعلمه بمنعة قلعة سكدوار ووجوب عودهم إلى الأوطان حتى ينقضي الشتاء وأشار عليه أن يتربص ناحية سردم حتى يأتى إليه بجميع الجند والأمراء المحاصرين للقلعة فلبث السلطان سليم أياما حتى اجتمع العسكر وساروا فى ركابه إلى دار السلطنة، ووردت الأخبار إلى مصر بسلطنة السلطان سليم فزينت المدينة ثلاثة أيام وأطلقت البشائر وفرح الناس بولايته وتقوت آمالهم بالخلاص من مظالم محمد علي باشا واستعباده لهم فرفع الأمراء وكبار الرعية والعلماء والمباشرون عندئذ ظلامتهم إلى دار السلطنة واستغاثوا وضجوا فورد مرسوم السلطان إلى محمد باشا المذكور بإجراء العدل فى الرعية والرفق بالناس والنهى عن الجور وكان قد تزايد جوره وأخذه للناس بالشبهات فأفحش فى القتل والسلب وتتبع العورات فلم يرعو ولم تأخذه آخذة من الخوف فعادوا إلى الشكوى وعظموا للسلطان البلوى ولبثوا ينتظرون ما سيكون بعد ذلك، واتفق فى هذه الغضون موت الأمير إبراهيم بك الدفتردار الذى كان متوليا امارة الحج فاستولى محمد باشا المذكور على خزائنه ومماليكه وجواريه وكل ماله وجملة ذلك مائة ألف دينار ذهبا فضمها إلى خزانة السلطان التى يبعث بها فى كل عام من مصر وأرسل معها أيضا شيئا كثيرامن الهدايا والتحف التى لا مثيل لها هدية منه للسلطان ورجال الدولة استجلابا لخواطرهم فلم يكن بعد ذلك من يستمع للمصريين شكوى ودامت الحال على ذلك مدة، فلما كان يوم الأربعاء غاية جمادى الأولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة خرج محمد باشا المذكور فى كبكبة وحوله طائفة من أعوانه ومر من جهة الناصرية يريد مصر القديمة فلما صار على مقربة من حائط هناك أطلقت عليه بندقية من خلف الحائط فأصاب رصاصها صدره فسقط عن فرسه فهاج لذلك أعوانه وبحثوا عن القاتل فلم يعثروا له على أثر واتفق فى هذه الأثناء أن مر رجلان من الفلاحين بالقرب من موضع الحادثة فقبضوا عليهما واتهموهما بالفعل وقتلوهما ظلما وقيل إنه قتل فى يوم الأحد تاسع عشرى شهر جمادى الآخرة سنة خمس وسبعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة أشهر وعشرين يوما وفرح الناس بموته فرحا ما عليه من مزيد فقال فيه بعض الشعراء:

موت محمود حياة فيه للعالم رحمه
قتله بالنار نور وهو فى التاريخ ظلمه
سنة ٩٧٥ هجرية

وقال بعضهم أيضا :

أتى محمود باشا يوم نحس فساقته منيته غصيبه
نجاه الناصرية خلف حيط بغيط جاءه منه مصيبه
ببندقة رماه كف رام فحررها فجاءته مصيبه

(مطلب)

ولاية سنان باشا

فلما وصل خبر موته إلى دار السلطنة أرسل للولاية بعده سنان باشا فدخل القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة خمس وسبعين وتسعمائة وكان قبل مجيئه واليا على حلب فلم تستقر به الولاية على مصر حتى ورد عليه مرسوم السلطان بالقيام إلى فتح اليمن واسترجاعها من الزيديين وكانوا قد خرجوا ثانية وشقوا عصا الطاعة فسار من القاهرة فى الرابع من شوال سنة ست وسبعين فكانت مدة تصرفه فى مصر نحوا من تسعة أشهر وسار معه من الأمراء المصريين حمزة بك وتماى بك وغيزهما من الصناجق، قيل وكان استصحابه لهؤلاء الصناجق لأمر نسبوه إليه وهو قتل محمد باشا الوالى السابق، وأقام سنان باشا المذكور يقاتل اليمانيين سنتين وأربعة أشهر حتى يسر الله له الفتح واستنقاذ اليمن من أيدى الزيديين وطير الأخبار بذلك إلى مصر والقسطنطينية ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما وتزاحم على أبوابه الشعراء بقصائد التهانى وألف العلامة قطب الدين محمد بن أحمد المكى تاريخه لهذ الفتح سماه البرق اليمانى فى الفتح العثمانى. قيل وهو غاية فى البلاغة وبه قصيدة لا بأس بإيراد بعض أبيات منها هنا وهى :

لك الحمد يا مولاى فى السر والجهر على عزة الإسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتح البلاد إذا سعت لها الهمم العليا إلى أشرف الذكر
جنود زهت من كوكبان خيامها وآخرها بالنيل من شاطئ المصر

(ومنها)

فهل يطمع الزيدى فى ملك تبع ويأخذها من آل عثمان بالمكر
أبى الله والإسلام والسيف والقنا وسر إمام المسلمين أبى بكر

وهى طويلة للغاية...

(مطلب)

ولاية إسكندر باشا الفقيه الشركسي بدلا من سنان باشا

فلما سار سنان باشا إلى فتح اليمن أتى للولاية بعده إسكندر باشا الفقيه الشركسى فدخل القاهرة فى رابع جمادى الآخرة سنة ست وسبعين وجعل يتصرف إلى غاية المحرم افتتاح سنة تسع وسبعين فكانت مدته سنتين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عادلا تقيا محبا للرعية أبطل بعض المغارم والمكوس ورفعها عن الفقراء والعواجز وأهل العلم وأمنت فى أيامه السبل واطمأنت قلوب الرعية فكانت أيامه كلها بركة ورخاء على البلاد وأهلها ولم يقع فيها شىء من الإحن والبلايا ومازال يتصرف فى الأمور ويعدل فى الرعية حتى مات، وعاد سنان باشا من فتح اليمن بعد موت اسكندر باشا بأيام قلائل ولم يرجع معه أحد من الأمراء والصناجق الذين كانوا قد ساروا فى ركابه إلى هذه الغزوة وكأنهم قد ماتوا جميعا فلما دخل القاهرة جاءه الأمر بولايته على مصر ثانية فتولاها من أول شهر صفر سنة تسع وسبعين فزاد البلاد اطمئنانا وأمن السبل وأتى على إصلاح الأمور من أبوابها فحفر خليج الإسكندرية وأحسن مجراه وأنشأ عدة مساجد وتكايا وربط وجوامع بديار مصر فى الثغور والبنادر ولم يكن إلى ذلك الحين أحد من الولاة أمثاله فعل ما فعله سنان باشا من البر والخيرات وكان كثير العناية بمصالح الرعية شفوقا عليهم يسأل العمال عن الصغيرة والكبيرة وقد بلغه أن الأمير منصور بن بغداد أمير ولاية المنوفية حدث متلاعب أهمل أمور الولاية وهو منهمك فى اللذات واتباع الشهوات وأن جماعة من السفهاء قد استولوا على عقله وهم المتصرفون فى ولايته وقد زاده إهمالا وجراءة معرفته بالوزير الأعظم ميلوش باشا وتقربه منه وكان قد عهد له بأن لا قدرة لأحد على خلعه من ولاية المنوفية فسار سنان باشا فى القعدة من السنة أى سنة تسع وسبعين وقبض على الأمير منصور المذكور وخلعه وولى مكانه الأمير علام بن بغداد واستمر الأمير منصور مسجونا فى البرج بقلعة الجبل من سنة تسع

وسبعين إلى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة عندما قدم حسن باشا وأطلق سبيله وأرجعه إلى ولاية المنوفية فكانت مدة حبسه نحوا من عشر سنين.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

ومازال سنان باشا يتصرف فى الأمور مع الرفق واللين بالرعية حتى جاءه أمر السلطان سليم بالحضور إلى دار السلطنة فرحل عن مصر والقلوب راضية عنه فكانت مدته الثانية سنتين اثنتين وتولى بعده حسين باشا فدخل القاهرة فى سادس عشرى المحرم افتتاح سنة إحدى وثمانين وتسعمائة وجعل يتصرف فى الأمور ثم خلع فى سنة اثنتين وثمانين فكانت ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر وخمسة عشر يوما وكان عاقلا رزينا شفوقا بالرعية ميالا إلى الخير والإحسان ووقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول والمشروب ثم وقع قحط عظيم جدا فأكل الناس بذر الكتان والحشيش اليابس واشتد الجوع بالناس اشتدادا عظيما وأعقبه الموات فجاءة حتى أن الرجل أو المرأة أو الخادم إذا خرج من بيته لقضاء حاجته أدركته المنية فى الطريق فيموت سريعا بلا ألم ولا وجع وبقى الحال على هذا الوصف أياما كثيرة فهاجر الناس إلى ضواحى القاهرة ومصر ونزحوا إلى بعض القرى والبلدان فرارا من الموت ولكنه لم يلبث أن عم جميع القرى والمدن وكثر واشتد شدة بالغة ثم أخذ يزول، وماتم زواله حتى كثرت اللصوص وظهر قطاع الطرق فعاثوا فى البلاد وسلبوا ونهبوا وأفسدوا وقطعوا الطرق على أبناء السبيل وكانوا لا ينفكون ليلا ولا نهارا. وعجز حسين باشا المذكور عن ردعهم فتمادوا وكثر شرهم وعم الخوف جميع البلاد فكانت شدة عظيمة وازدادت الأحوال اضطرابا والأمور خللا وفسادا بتطاول أيدى الجند أيضا إلى أموال الناس وعبثهم بمصالح الدولة وعدم وقوفهم عند طاعة كبارهم وإيذائهم للسوقة والباعة وأصحاب البيوت حتى ضج الناس وترقبوا مرور حسين باشا فى الطريق وصاحوا فى وجهه وقبحوا عجزه وأقسموا إنهم إنما هم رافعون ظلامتهم إلى السلطان وكان السلطان في هذا الحين فى شاغل ليس عن مصر فقط بل عن جميع الأيالات التابعة إلى مملكة أبيه بما تولى عليه من الخمول وضعضعة النفوذ. قال أصحاب التاريخ: وذلك لأنه لم يكن متصفا بما يؤهله للقيام بحفظ فتوحات أبيه ولاهو متصفا بالحزامة وأصالة الرأى فارتبكت لذلك أحوال المملكة

وانفشلت أمورها وطمع فيها الأعداء ومالت بعض الولايات إلى الخروج فشدد بعض الدول الكبرى فى طلب كثير من الامتيازات كدولة الفرنسيس فقد نالت فى أيامه حقوقا مهمة غير الذى نالته منها في أيام أبيه وكان صدر الدولة يومئذ صقللى محمد باشا وهو رجل موصوف بالتدبير عالى الهمة كبير السياسة خبير بفنون الحرب صادق الخدمة فبذل العناية فى بقاء مركز الدولة غير محقر ولامهان وأجهد النفس فى حفظ ما بيدها من الثغور والعمالات وفتح ما يمكن فتحه من المدائن والثغور فسير لفتح جزيرة قبرس عمارة عظيمة من سفن الحرب تحمل زهاء مائة ألف مقاتل ومقدمها لاله مصطفى باشا فحاصرت الجزيرة إلى أن دخل الشتاء فانصرفت عنها ثم عادت لحصارها حتى تم فتحها وأقلعت بعد ذلك هذه العمارة إلى جزيرة كريت لفتحها فلم تنل منها فأخذت من البندقية بعض المدن الواقعة على بحر الأدرياتيك فأكبر البنادقة هذا الأمر جدا وعمدوا إلى محالفة دولة أسبانيا فلما تمت لهما المحالفة تعاهدا مع بابا رومة على قتال الترك ومنازلة عمارتهم ومحو آثارهم من البحار فأعدوا لذلك عمارة عظيمة من مائة وأربعين من سفن البنادقة وسبعين من سفن الأسبانيول واثنتى عشرة سفينة للبابا وتسع من سفن رهبنة القديس يوحنا الأورشليمى بمالطة وكان مقدم هذه العمارة الأمير دون جوان وهو ابن للإمبراطور شرلكان من إحدى عشيقاته وكانت سفن الترك ثلثمائة سفينة فلما التقى الفريقان عند ليبنة اقتتلوا قتالا عنيفا للغاية نحوا من ثلاث ساعات ثم انكشف الأمر عن هزيمة السفن التركية وانتصار سفن الأحزاب فاستولوا على مائة وثلاثين سفينة عثمانية وأحرقوا وأغرقوا أربعا وتسعين وغنموا زهاء ثلثمائة من المدافع وأسروا نحو ثلاثين ألفا من المقاتلين فكانت هذه الواقعة من أتعس الوقائع وأشدها خطرا على مقام الدولة العثمانية فى عرض البحار، وجاءت الأخبار إلى دار السلطنة بما حل بالعمارة فهاج المسلمون وماجوا وهموا بقتل رسل البابا الذين هم رعاة المذهب الكاثوليكى فلم ينالوا منهم لاهتمام صقلى محمد باشا بمنع القلاقل وعدم تطاول أيدى الرعية إلى الإيذاء. قال بعض كتاب الأخبار : ولم تكن هذه الكسرة المشئومة لتقعد همة صقلى محمد باشا عن لم شعث العمارة العثمانية وإعادة ما كان لها من الرونق والبهجة حيث أنشأ لها عدة سفن وجهزها وبالغ فى تجهيزها وأتقن نظامها وسيرها فى عرض البحار طلبا للثار فلم يقع بينها وبين سفن الأحزاب شىء من القتال لانفصام عرا الاتحاد ما بين البنادقة والإسبانيول وعقد معاهدة ما بين

العثمانيين والبنادقة على شروط يرضاها الفريقان فلما كان فى خلال الحوادث الأخيرة مرض السلطان سليم واشتدّ به مرضه أياما ثم مات فى سابع رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته نحوا من تسع سنين فولى السلطنة بعده ولده السلطان مراد خان .



(الفصل الرابع)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان سليم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ولده السلطان مراد بويع له بالملك عاشر رمضان سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة هجرية أى سنة أربع وسبعين وخمسمائة وألف ميلادية وله من العمر يومئذ ثلاثون سنة وكان شهما مقداما عالى الكلمة واسع المعرفة خبيرا بالأمور محبا للفتح والغزوات فغزا عدة غزوات وسار بجيش ضخم لإخضاع المجر وردها إلى طاعة الدولة بعد أن كادت تخرج عنها فقاتلها وأذلها إذلالا كبيرا وأعادها إلى ما كانت عليه وفتح عدّة مدائن وحصون ودوّخ كثيرا من البلدان فاتسعت كلمته وكبرت هيبته وعاقده كثير من الملوك وتقربوا إليه .

(مطلب)

ولاية مسيح باشا

وكان حسين باشا والى الديار المصرية قد عزل من منصب الولاية قبل أن يتولى السلطان مراد السلطنة بقليل . فأقام بدله مسيح باشا وكان من خزنة دار السلطان سليم فدخل القاهرة فى أوائل سنة اثنتين وثمانين وكان ذا مهابة وعفة يكره أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكانوا فى ولاية حسين باشا قد كثروا فى الأرض وعاثوا وأفسدوا فيها كما تقدم فعمل على قطع شأفتهم وصار يتجسس أخبارهم ومواطنهم ويبعث بالحكام فيقبضون عليهم ويأتون بهم عشرات عشرات فيقتل منهم ويشنع فى قتلهم فخافوا وانكفوا وارتجع أهل التهم وسكن الحال واستتب الأمن واطمأنت قلوب الرعية واشتدت يقظة الحكام وهابوه وانكفت أيدى الولاة والكشاف

جميعا عن التجرئ على ما لا يصلح عمله من أخذ الرشاوى والبراطيل وأخذ الأموال من أصحابها بالسوط والنبوت وبالغ مسيح باشا فى القتل والتمثيل لأقل سبب قيل فكان عدد من قتل فى أيامه زهاء عشرة آلاف وقد علق شناكل من الحديد بالرميلة وبولاق والشون بمصر القديمة لقتل المفسدين وأصحاب الكبائر فكان لذلك وقع فى قلوب الرعية وخافه جميع الناس ومالت إليه القلوب وأحبته الرعية وتصرف فى الولاية التصرف العام إلى ثانى عشرى جمادى الأولى سنة ثمان وثمانين وتسعمائة ثم جاءه الأمر بالانصراف عنها فقام إلى القسطنطينية على الأثر فكانت مدة تصرفه خمس سنين وسبعة أشهر وخمسة عشر يوما وكان قد بنى له مدرسة ومدفنا بالقرافة وأوقف عليها أوقافا عظيمة وكان يؤمل أن يدفن فى مصر ﴿**وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت**﴾ فحزن الناس لعزله.

(مطلب)

ولاية حسن باشا الخادم

فلما عزل مسيح باشا تولى بعده حسن باشا الخادم فدخل القاهرة فى سادس عشرى جمادى الأولى من السنة وكان قبل ولايته هذه خازندار السلطان مراد فلم يستقر به المنصب حتى ظهرت عليه علامات الغلظة وجعل يتصرف مع العسف والكبرياء فكان ظلوما غشوما عتلا زنيما محبا للمال ومصادرة الناس ميالا للرشاوى والبراطيل فصادر كثيرا من أهل الوجاهة وذوى البيوتات فأصبحهم بعد الغنى والإثراء فقراء لا يمتلكون شروى نقير واشتد بالرعية شدّة بالغة وأخذهم بالشبهات فقتل وشرد وألزم اليهود فى أيامه بلبس الطراطير الحمر وألزم النصارى بلبس القلنسوة السوداء وكان قليل الرأى ضعيف التدبير سفاكا للدماء ولكنه جبان صغير القلب متحجبا إلا على بعض خواصه فأبغضه الناس كافة وضجوا من فعاله ورفعوا القصص إلى دار السلطنة واستغاثوا فجاءه الأمر بالعزل فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة إحدى وتسعين وتسعمائة فكانت مدة تصرفه سنتين وأحد عشر شهرا وثمانية عشر يوما كلها بلايا وإحن وقد عمر ببولاق وكالة تجاه الترسخانة وصهريجا مقابلها يعلوه مكتب للأيتام وكان قصده أن يزيل الترسخانة ويبنى مكانها جامعا فلم يتمكن من ذلك لعزله.

(مطلب)

ولاية الوزير إبراهيم باشا

وتولى بعده الوزير إبراهيم باشا فدخل القاهرة فى رابع عشرى ربيع الآخر من السنة وسار من وسط المدينة فى موكب لم يعهد لأحد من قبله وفرح الناس به فرحا لا يوصف قيل وكان معه مرسوم من السلطان بتحقيق ما ارتكب فعله حسن باشا والقبض عليه وتعويقه حتى يتم ذلك فأحس حسن باشا بذلك وسار من القاهرة خفية قبل وصول إبراهيم باشا إليها وطلع من باب المقابر ليلا فى نفر من أتباعه وبطانته فلما وصل إلى دار السلطنة قبضوا عليه ثم أبعدوه عن خدمة الدولة وبالغوا فى إذلاله ومازال حتى صادفته العناية والعناية صدف فارتقى مسند الصدارة العظمى وعلت كلمته واتسعت صولته ثم عزل وقتل شر قتلة وأما إبراهيم باشا فإنه أخذ يتصرف فى الأمور وأقام بجامع السلطان فرج بن برقوق ديوانا لسماع القصص التى كانت ترفع من الناس على حسن باشا فلبث الديوان ينظر فى تلك القصص من العاشر من رجب من السنة إلى غاية رمضان من السنة فأبان التفتيش عن شىء كثير من مظالم تكاد لا تحصر ولا تعد وكان منها مائة ألف أردب وأربعمائة واثنان وخمسون أردب قمحا بيعت من الشون وأخذ ثمنها حسن باشا المذكور وغير ذلك من الاختلاسات الأخرى قيل فلما رفع أمر هذا كله إلى السلطان مراد وكان حسن باشا المذكور قد ارتقى منصب الصدارة العظمى أمر بإعدامه خنقا وجاءت الأخبار بذلك إلى مصر ففرح الناس بموته لما قاسوه فى أيامه من البلايا والإحن.

وسار إبراهيم باشا من القاهرة إلى داخلية البلاد ليستطلع أحوال الأهالى ووصل إلى بئر الزمرد فأحاط بها علما وظفر منها بالزمرد النفيس وسار إلى دمياط وإلى المحلة الكبرى وكان بها كنيسة عظيمة للغاية وهى من أفخر العمائر القديمة وبها جماعة من قسوس المتأصلين أى أهل البلاد فلم يشأ أن تكون لهم واستعظمها عليهم فأمر بهدمها وبنى مكانها مدرسة وسماها الوزيرية فعدت له هذه نقطة سوداء فى تاريخ حياته ثم سار إلى كثير من المدن والبنادر ثم رجع إلى القاهرة وأنزل نفسه عن الولاية فى سنة اثنتين وتسعين فكانت ولايته سنة واحدة وتسعة عشر يوما وسافر إلى دار السلطنة فى شهر شوال من السنة.

(مطلب)

ولاية سنان باشا الدفتردار

فتولى بعده سنان باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى ثالث عشر شوّال من السنة وإبراهيم باشا بها فلما استقر به المنصب طغى وتجبر وظلم الرعية وصادر الناس فى أموالهم وأراق الدماء لأقل الأسباب وأضعفها واشتد شدّة بالغة فضج الناس ورفعوا أمره إلى دار السلطنة فأتاه الأمر بالعزل وقد تصرف إلى ثالث عشرى ربيع الآخر سنة خمس وتسعين وتسعمائة، فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرة أيام ولبث بالقاهرة إلى أن قدم أويس باشا واليا ونزل بناحية شبرا قريبا من بولاق فأرسل إلى أويس باشا المذكور هدية عظيمة للغاية ومعها حصان أشهب مسرج بسرج مرصع وعدة تليق به وكان يؤمل أن أويس باشا حال طلوعه من المركب إلى الوطاق المنصوب له يركب الحصان المذكور فعدل عنه وركب أكديشا أشهب كان أحضره معه ثم إن سنان باشا قدم ناحية شبرا وقابل أويس باشا عند غروب الشمس فشاهد علامات الغيظ على وجهه فهاله ذلك وداخله الخوف فلما رجع من عنده إلى القاهرة اختفى ولم ير بعد ذلك إلا فى الديار الرومية .

(مطلب)

ولاية أويس باشا

وتصرف أويس باشا فى أمور البلاد من ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وكان قبل ذلك قد ولى القضاء ثم صار دفتردار الروم إيلى ثم جاء إلى ولاية مصر فكان جبارا عنيدا شديد البطش سفاكا للدماء كثير الأخذ بالشبهات ثم تطاولت يده أيضا إلى العبث بأمور العساكر والأجناد والتصرف في مرتباتهم وجماكيهم بما يناسب هواه فخرجوا عليه وأحاط جماعة منهم بديوانه ودخل عليه جماعة وأوسعوه ضربا ونهبوا داره فأخذوا جميع ما كان بها من مال ومتاع وقاموا على عثمان أغا أغاة الجاويشية وذبحوه ذبح الشاة وأحرقوا دار القاضى وقتلوا اثنين من قضاة مصر ثم عمدوا إلى حوانيت القاهرة ومصر فنهبوا ما فيها وعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وذلك فى شوّال من سنة ثمان وتسعين فخاف الناس خوفا شديدا وانكمشوا فى البيوت وتحصنوا بها وقد تطاولت أيدى العامة والغوغاء إلى

النهب والسلب أيضا فكانت فتنة عظيمة للغاية لم تقدر الأمراء ولا كبار الجند على تسكينها وبذل الباشا الجهد فى ملاطفة أصحاب الفتنة وكبار العصابة وبعث إلى القضاة يعلمهم بأن لا يخالفوا للثائرين أمرا عسى أن ينكفوا عن فعالهم فزاد تمردهم وطغيانهم وقبضوا على أولاد الباشا وأخذوهم رهنا على ما يطلبون وكان أولاد البلد إلى هذا الحين يدخلون فى خدمة الدولة ويلبسون لباس العسكر لهم ما لهم وعليهم ما عليهم فلما وقعت هذه الفتنة حرموا من ذلك وحظر عليهم الدخول فى مصاف العسكر إيجابا لطلب أهل الثورة وحدثت عقب ذلك مصادرات كثيرة من وجوه شتى. قال بعض كتاب الأخبار: فكان لاويس باشا المذكور يد فى هذه الحركة لأمر خفى. وطالت أيام الفتنة فقلت الأقوات وعز وجودها وضج الفقراء واجتمعوا تحت قلعة الجبل وسبوا أويس باشا ورجموا الناس بالأحجار، ولما كان يوم الأحد رابع صفر سنة تسع وتسعين حصلت زلزلة بالقاهرة ومصر بعد ظهر اليوم المذكور فمكثت درجة وسدس درجة وسقط بسببها عدة منارات وبيوت وربوع وفاض الماء من حيضان الحمامات ومطاهر الجوامع وهدمت عقبة أيلة فنهب العرب جميع ما كان بها من ذخيرة للحجاج والمرابطين قيل ولم يسبق وقوع مثل هذا الزلزال إلا من عهد بعيد للغاية ووقعت بعدها بثلاثة أشهر أى فى يوم الأربعاء عاشر جمادى الأولى من السنة زلزلة أخرى ولكنها لم تلبث إلا يسيرا جدا فزاد تشاؤم الناس وكرههم إلى أويس باشا وعجوا إلى الله تعالى وتضرعوا إليه وكثر الدعاء بالجوامع وغيرها فلما كان سادس شهر رجب سنة تسع وتسعين أصابته سكتة قلبية فجأة فمات بها ودفن بالقرافة ففرح الناس بموته فرحا لا يوصف وكانت مدة تصرفه أربع سنين وشهرا واحدا وثمانية أيام فنظم بعضهم تاريخا فى موته فقال:

أهلك الله أويسا انه	جار فى الحكم ولم يخش الوعيد
مذ أتى مصر تعدى حده	وبه الظلم تبدى فى مزيد
هلك الحرث وكم من فتنة	قد أثيرت منه فيما لا يفيد
مذ دهاه الموت ما أفلته	لا ولا كان له عنه محيد
خاب سعيا بوفاة أرخو	ها وخاب كل جبار عنيد
سنة ٩٩٩ ٦٠٩ ٥٠	١٣٤ ٢٠٦

(مطلب)

ولاية أحمد حافظ باشا الخادم

فلما مات تولى بعده أحمد حافظ باشا الخادم فدخل مصر فى سابع عشرى رمضان سنة تسع وتسعين وتسعمائة وأيتصرف فى الأمور فكان نعم الرجل ذا رأى وتدبير محبا للعلم والفقراء حسن السياسة فأمنت فى أيامه السبل وانتظمت أحوال الرعية وامتنع أهل الفساد وانكف الولاة والعمال عن العبث بأمور الرعية وكان يجلس للناس فترفع إليه القصص بحاجات الخلق وعمر فى أيامه وكالة كبرى وأخرى صغرى وسوقا وربوعا وبيوتا ببولاق من القاهرة بجوار شون الحطب وعمل مصلى بالوكالة الكبرئ مطلة على النيل وعمر كذلك برشيد عمائر أخرى عظيمة وعمل سحابة بطريق الحاج وبه النفع للحجاج فلما كان التاسع من شعبان سنة ثلاث وألف هجرية جاء الأمر بالعزل والقيام إلى دار السلطنة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وعشرة أشهر واثنين وعشرين يوما ولما بلغ دار السلطنة حمدت مساعيه بديار مصر فولى الصدارة العظمى ثم أنزل نفسه عنها واستأذن فى الحج فأذن له وجاء إلى مصر بحراً فتلقاه الكبراء والأمراء أحسن ملتقى وأهدوا إليه الهدايا النفيسة فحج ورجع إلى الديار الرومية فمات بها.

(مطلب)

ولاية قيودر باشا

وتولى بعده على ديار مصر قيودر باشا فدخل القاهرة فى ثالث عشر رمضان سنة ثلاث وألف وكان أمياً ذا ذكاء محباً للهو واللذات قليل الحيلة ضعيف الرأى لا هم له غير اللعب واللهو ويروى عن لهوه حكايات كثيرة أضربنا عن إيرادها هنا صفحا.

وكان لما تولى السلطان مراد السلطنة أمر فانشئوا بالمدينة تكية ورباطا بظاهر المدينة وقرر بها أرباب وظائف ومجاورين ورتب بالتكية طعاما وحبوبا للحرمين ووقف على ذلك قرى من قرى مصر المحروسة بإقليم البحيرة ناحية نكلا وناحية الضاهرية وبالمنوفية ناحية سبك الأحد وناحية شبرازنكى وبالقليوبية ناحية طنان وناحية كفر زريق وناحية طوخ الملق وناحية سد طنان وناحية سنهرا وبالدقهلية ناحية سندوب

وناحية منية سمنود وناحية أبو الحسن وبالجيزة ناحية كوم برا وناحية نهيا وناحية العتامنة وناحية دبشنا وبالوجه القبلي البهنساوية وناحية بلينا وناحية الذيل وناحية العتامنة وناحية ديشنا وناحية نها بلفية وناحية دنديل وناحية العتمانة وناحية الضوابط وناحية اهناس الخضراء فكان يجهز إلى بندر السويس من متحصل النواحى المذكورة فى كل عام من الحب ألفى أردب ومائتى أردب تحمل فى مراكب فى وقف الدشائش الدارية إلى الينبع برسم التكية المذكورة ومجاورى الحرمين هذا عدا ما كان يجهز من النقد من متحصل النواحى المذكورة فى كل عام صحبة أمير الحج المصرى وقدره سبعة عشر كيسا توزع على أربابها من مجاورى الحرمين، ولعل هذا كله باق إلى الآن، تتطلع قيودر باشا إلى هذه الأوقاف وطمعت نفسه فى أخذ بعضها فلم يقدر ثم خشى العاقبة وانعطف إلى غيرها من موارد الأموال فشكاه الدفتردار إلى دار السلطنة وبالغ فى فساد الأحوال وعدم صلاحيته للولاية. قال أصحاب التاريخ: ولم تكن هذه الأوقاف والخيرات والتكايا لتكفر عن ذنوب السلطان مراد وما اقترفه من جريمة قتل إخوته الخمسة بعد توليته منصب السلطنة فإنه بعد أن تمت له البيعة واستقر به المنصب أمر فقتلوا إخوته المذكورين صبرا ليأمن على ملكه من النزاع ولم يخش الخزى والعار فكانت هذه الفعلة الشنعاء نقطة سوداء فى صفحات أيامه مع مايضاف إلى ذلك من تحجبه عن الناس وعدم اكتراثه بالأمور وتركه الغزو والخروج فى مقدمة الجند كما كانت تفعل أجداده حتى طمع العدو فى البلاد وتغلبت دولة النمسا على كثير من القلاع والحصون العثمانية وانتصرت فى عدة وقائع عظيمة مات فيها كثير من رجال الدولة، ومقدمى العساكر وخرجت بعض الأيالات عن الطاعة فقاتلت حتى انتصرت ونالت الاستقلال واسترجعت ما أخذ من مدنها وبلدانها عنوة واستخفت طوائف الانكشارية بقدر الدولة فتمردوا وأهانوا كبارهم ومقدميهم وثاروا على بعض العمال وكبار الدولة فقتلوهم جهادا ولم يقو السلطان على منعهم حتى كاد يبلغ الخلل حده وكانوا سببا فى دوام الحروب ومعاداة الممالك المجاورة لدولة القسطنطينية لاجتماعهم على الخلاف وعبثهم بأمور الدولة وتقويض أركان الأمن فيها بما يفعلونه من القتل والنهب وإذلال كبارهم عند أقل سبب وقد كان مما أهاجهم وخرج بهم عن حد الطاعة أنه لما كثر فسادهم وكبر شرهم بما فشا فيهم من الإدمان على السكر والإفراط فيه أمر السلطان بمنعهم من ذلك وبالغ فى عقاب من يقبض عليه سكران فقاموا عند ذلك قومة رجل واحد وحاصروا السلطان فى قصره وضيقوا

عليه وصمموا على قتله جهارا ولبثوا على هذا الحال أياما كثر فيها النهب والسلب والعربدة وتطاولت أيدى الناس لسلب أموال بعضهم ولم تسكن هذه الفتنة إلا بعد أن أباح لهم السلطان السكر وتعاطى الخمر والرجوع إلى ما كانوا عليه من العربدة والفساد.

وظلت الأحوال فى مصر ودار السلطنة فى قلق واضطراب بعضه بسبب الحروب المتواصلة بين السلطنة والممالك المجاورة وبعضه بسبب كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر وتحزب الأحزاب وظهور كلمة الجند فيها وعدم وقوف كبارهم عند حد إلى أن مات السلطان مراد فى السابع عشر من جمادى الآخرة وقيل سابع عشر رمضان سنة ثلاث وألف هجرية فكانت سلطنته عشرين سنة وتسعة أشهر وستة أيام فخلفه ابنه السلطان محمد.

ومات فى أيام السلطان مراد غبريال بطرك المتأصلين بعد أن أقام تسع عشرة سنة وكانت الأمور فى أيامه على طرفى نقيض ما صفت يوما إلا وتكدرت أياما فأقيم بعده يوحنا وهو تاسع ثمانيهم ولم يكن لرهبانيته دير وكان حازما هيبا محبوبا محبا للخير ميالا للفقراء آوى إليه كثيرا من ذوى الحاجة فمد لهم يد المعاونة وبذل لهم المعروف وأقام أربعا وعشرين سنة ومات فخلفه متاوس وهو المتمم للتسعين وكان قبل ذلك راهبا فى دير المحرق ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.



(الفصل الخامس)

(فى سلطنة السلطان محمد ابن السلطان مراد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مراد ولده السلطان محمد بويع له بالملك فى يوم الجمعة سابع عشرى جمادى الآخرة سنة ثلاث وألف هجرية أى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وألف ميلادية ولم يستقر به مقام السلطنة حتى قام على إخوته فقتلهم ليأمن على ملكه من المنازع وكأن هذه الفعلة الشنعاء قد صارت سنة عند ملوك آل عثمان يعمل بها الخلف عن السلف ثم تحجب بعد ذلك عن الناس وانعكف على الملاذ وترك أمور المملكة لجماعة الوزراء فعاثوا وأفسدوا وتصرف كل

منهم على هواه وعمل على ما فيه مصلحته فباعوا الوظائف وألقاب الشرف بأبخس الأثمان وسلموا مقاليد الدولة للأغرار والسفلة فبلغ الخلل حده وزالت حرمة الدولة وكبر طمع العدو فيها فخرجت عليها الخوارج وقامت الحروب من كل جانب واشتدت الخطوب وظهر الأمير ميخائيل صاحب الفلاخ على عساكرها فى عدّة مواقع عظيمة وضم إلى مملكته إقليم البغدان وجزءاً كبيرا من نسلفانيا وساعدته على غير ذلك أيضا عساكر الفساد فعم الخلل جميع أنحاء المملكة وقامت الفتنة وتطاير شررها إلى جوف الأناطولى وظهر رجل اسمه قره يازجى كان من مقدمى المتطوعة الذين نفاهم السلطان إلى آسية لجبنهم فى الحروب وادعى أن صاحب الشريعة الإسلامية أتاه فى منامه وأمره بالغزو والجهاد فى آل عثمان ووعده بالنصر والغلبة عليهم وأخذ جميع ولايات آسية منهم وبث الدعاة بذلك فى الآفاق فتبعه خلق عظيم من أولئك اللموم فنزل بهم على بلاد القرمان وقاتل عامل الدولة عليها حتى ظفر به وأخذ مدينة عين تاب عنوة فكبرت عند ذلك لمومه وظهرت كلمته واشتهر أمره فسير السلطان لقتاله جيشا من الانكشارية فحاصروا مدينة عين تاب وضيقوا عليها وشددوا، فلما أحس قره يازجى بالغلبة وأنه مأخوذ لا محالة عمد إلى استعمال الحيلة فعرض على مقدم الانكشارية الطاعة للسلطان بشرط أن يوليه أماسيا فأجابه إلى ذلك ورفع عن المدينة الحصار فلم يكن بأسرع من أن عاد قره يازجى المذكور إلى العصيان وكان له أخ اسمه والى حسن قد ولاه السلطان على بغداد فسير إليه قره يازجى رسلا تستفزه إلى شق عصا الطاعة والقيام لنجدته فأجابه إلى ذلك وسير إليه جماعة كثيرة من أصحابه فاشتدت عزيمة قره يازجى واستفحل أمر الفتنة وظهرت كلمة قره يازجى وأخيه والى حسن واتسعت شهرتهما وكادت تعم دعوتهما فكبر الأمر على السلطان واستعظمه وسير لقتالهما عسكرا عظيما ومقدمهم صقللى حسن باشا فقاتلوا أوّلا قره يازجى حتى ظهروا عليه وجرحوه فترفع إلى الجبال ومات بجراحته ثم انحازوا لقتال والى حسن صاحب بغداد فقاتلهم قتالا عنيفا وانتصر عليهم فى عدة مواقع وقتل صقللى حسن باشا على أسوار (توقات) ومزق شمل عساكره، ثم سار ونزل على دمشق بخيله ورجله فهزم واليها شر هزيمة وهزم ولاة حلب وديار بكر ونزل على مدينة كوتاهية فحاصرها وضيق عليها من كل جانب فاشتد عند ذلك الخلل وتعاظم وهمت أكثر أيلات الدولة إلى الخروج وتأهبت إلى شق عصا الطاعة إلا مصر فإنها كانت فى شاغل عن هذا كله بما قد انتابها من

كثـرة التولية والعزل فى ولاتهـا وعدم وقوف الجند والأمـراء فيها عند حـد وعسف واليهـا قيودر باشـا وعبثـه بجميع الأمـور وتطاول يده إلى أموال الناس بلا استثناء ومازال الحـال على ذلك إلى سابع عشـر رجب سنة أربع وألف ثم جاء قيـودر باشا المذكور الأمر بالعزل فكانت مدة ولايته عشرة أشهر وعشرة أيام فتولى بعده الشريف محمد باشا ودخل القاهرة فى ثالث شوال سنة أربع بعد الألف وكان مهيبا ذا بصيرة وخبـرة بالأمور واسع الاطلاع بإدارة البلاد فلمـا استقـرت به الولاية وجلس للناس رفعت إليه القصص ضد كوسى حسن الشاغرت وأحمد المسلمانى وكان الأول على الأموال والثانى على الشون السلطانى وكانا قد اختلسا منهما شيئا كثيرا فعين عليهما من ضبط حـسابهمـا فثبت عليـهما مـاقيل فأمـر بشنقهمـا على باب زويلة وتركت أجسادهما معلقة ثلاثة أيام فهابه الناس وخافوه خوفا ما عليه من مزيد فخامره لذلك الغرور حتى بلغ به إلى الأخذ بالشبهـات والبطش بمن يتوسم فيه سمة الإنكار وأراد أن يبطش ببعض كبار الناس فأشيع عنه ذلك فـتحذروا منه وأبغضـه الناس والأمراء كافة فلما كان فى بعض الأيام أراد التوجـه إلى الربيع فمنعه بعض أصحابه وأنذروه بسوء العاقـبة إن هو ذهب فى يومه فنبذ كلامـهم، فلما خرج قام عليه جـماعة من العسكر وتعرضوا له عنـد انصرافه وهو بباب الوزير بموكبه الخاص وعـساكره وطائفة من السامانية وهم معـدون بالبنادق فلما عاين من معه كثرة العـساكر تفرقوا عنه فى الأزقة وتركوه فى نفر قليل من أتبـاعه فدعاه العسكر للمحاكمـة أمام قاضى القضاة بمدرسة السلطان حـسن فأظهر لهم الانقـياد والطاعة وسار مـعهم إلى أن وصل إلى الرمـيلة فأركض فـرسه نحـو باب السلسلة ودخل القلعـة وأغلق الأبواب بينه وبين العسكر فهاج العسكر وأثاروا الفتنة وقتلوا كل من كـان يكثر التردد على محمد باشا من الأمراء والعلماء وأصـحاب الوظائف وأخذوا الناس بالشبهات فـعم الخوف وكبر اضطراب الناس وبقى مـحمـد باشا بقلعـة الجبل مكفـوف التصـرف قاصر الكـلمة محجورا عليه إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى خامس عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الألف وكان جبارا عنيدا سـفاكا للدماء وقع فى أيامه تحط شديد للغـاية استمر مدّة وأعقب القـحط وباء عظيم فكثر الموات فى الناس بالقاهرة ومـصر وضواحيـها وزاد زيادة بالغة ثم عم الـقرى وانتقل أيضـا إلى بقية البلدان فكـانوا يدفنون الأموات فى الليل والنهار وكثـرت الجثث فى البيوت وفى الطرق والحـارات واشتد الوهم بالناس وفر محمد الشريف باشا من القاهرة هربا من الموت واستخلف على البلاد بيرى بيك

أحد كبار الأمراء فلم تستقر به الولاية حتى أدركه الموت فولى الأمراء بدله عثمان بيك فأقام إلى أن كانت الفتنة وعزل محمد الشريف باشا وأتى خضر باشا واليا فكانت مدة تصرف محمد الشريف باشا سنتين وشهرين وثلاثة عشر يوما وخرج من مصر فى موكب عظيم وعلى رأسه عمامة خضراء وركب معه خاصة العسكر وعامته فلما وصل إلى الديار الرومية أرسله السلطان لقتال ملك فارس فأسر وبقى ببلاد فارس إلى أن مات

(مطلب)

ولاية خضر باشا

ودخل خضر باشا القاهرة فى عشرى ذى الحجة سنة ست بعد الألف فتصرف ثلاث سنوات وخمسة أيام فلم يقع فى أيامه من الحوادث شيء يذكر إلا ما كان من سكون الفتنة ورجوع الجند والعسكر إلى الطاعة وزوال الخوف من قلوب الرعية ثم عزل فى خامس عشر المحرم افتتاح سنة عشر وألف.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وتولى بعده على باشا فدخل القاهرة فى تاسع صفر سنة عشر وألف، وكان لما قدم إلى الإسكندرية لبث بها أياما فتراكمت عليه القصص وتساقطت بين يديه بالشكوى من الكشاف وبعض رجال الدولة وأكثرها من برويز كاشف المنوفية وكان برويز هذا عتلا زنيما ظالما محبا للمال كثير المصادرة للناس سفاكا للدماء لا دين له ولا ذمة ولا حرمة ولا أدب فلما أتى الكشاف للقاء علي باشا المذكور وبينهم برويز هذا أمر به على باشا فقبضوا عليه وقتلوه بين يديه، وقيل إن لقتل برويز المذكور سببا غير ذلك هو أن شيخي افندي الذي كان متوليا قضاء المنوفية وانصرف عنها قد اجتمع بعلي باشا في جزيرة رودس فسأله علي باشا عن مصر وأحوالها وما فيها من الأمور الخارقة فحدثه بما علمه من أحوال البلاد وأهلها وبالغ في الوقيعة ببرويز كاشف المنوفية المذكور وأخذ يعدد فظائعه فلما وصل علي باشا إلى كفر الخضراء رفعت إليه القصص ضد محمد بن نجا حاكم النحراوية فقبض عليه وقتله بفناء الكفر

فهابه الحكام وخافه الكشاف ودخل القاهرة فى هيبة وجلالة وقبض على برويز وقتله فلقبوه من يومئذ بالنمر، ولما استقرت به الولاية أرسل قوسا وأمر أن يعلق على باب زويلة بالمرمى ولصق به ورقة ذكر أنه مكتوب فيها كل من أدنى هذا القوس يعطى ما هو مقيد بالورقة فلم يجسر أحد أن يمس القوس تأدبا واستمر وهو معلق أياما ثم رفع ثم اشتد بعد ذلك على العسكر وضيق عليهم وصار يؤاخذهم على الصغائر والكبائر فأبغضوه وجعلوا يراقبون فرصة للانتقام منه فاتفق أنه سار إلى طندتا لزيارة السيد البدوى فعارضه بعض العسكر ومنعوه من الخروج من القاهرة إلا إذا أعطاهم ما كانوا طلبوه منه فأجابهم إلى سؤالهم صاغراً وعاد إلى القاهرة، وقد كاد يتميز غيظا فمرض واشتد به مرضه فأرسل إلى دار السلطنة يطلب الإذن بالعود إلى القسطنطينية فأذن له فسافر فى سادس ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين وستة أشهر وعشرين يوما فلما وصل إلى دار السلطنة قلد منصب الصدارة العظمى ثم وجه لقتال المجر فلم يلبث إلا قليلا وعاوده المرض فمات هناك وكانت أيامه بمصر كلها خير وبركه وظهر فى أيامه التبغ بديار مصر وكثر استعماله ولم يكن إلى ذاك الحين شيئا يذكر وظهر الطاعون فمات به خلق كثير جدا وعم القرى والمدن والبنادر ومكث أياما وفتك فتكا ذريعا ثم ارتفع، وجاءت الأخبارفى هذه الأثناء بموت السلطان محمد، مات فى رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية فكانت مدة سلطنته تسع سنين وخمسة عشر يوما وتولى بعده ابنه السلطان أحمد .



(الفصل السادس)

(فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمد ابنه السلطان أحمد بويع له بالملك فى ثالث رجب سنة اثنتى عشرة وألف هجرية أى سنة ثلاث وستمائة وألف ميلادية وله من العمر ثمانى عشرة سنة فاستوزر الأمير قويجى مراد باشا وكان شيخا كبيرا صادق الخدمة تولى الوزارة وأركان الدولة متزعزعة فى جميع جهات آسية والفتنة قائمة ونار الحرب مستعرة على حدود فارس شرقا والنمسا غربا والسبب فى ذلك أنه لما تولى

عباس شاه على ملك فارس بعد موت محمد مرزا فى سنة أربع وتسعين وتسعمائة هجرية نهض إلى استرجاع ما أخذه ملوك آل عثمان من ملك فارس فأعد المعدات وجيش الجيوش ورمم القلاع والحصون وسار فى عسكر من خراسان إلى مشهد وكانت قد استولت عليها قبائل الأزبك فاستخلصها منهم وانتصر عليهم عند هرات أيضاً نصرة عظيمة فلما تقوت عزيمته بما ناله من الظفر عمد إلى قتال آل عثمان فنال منهم واسترجع جميع ما أخذوه من مملكة فارس عنوة ولم تقو الدولة على رده يومئذ لاختلال الأحوال وسريان الفساد فى جميع ولايات الدولة الشرقية وخروج الخوارج بعضهم يستفز بعضاً فلما بطلت الحرب مع عباس شاه سار قويجى مراد باشا الصدر فى مقدمة جيش عظيم إلى إطفاء نار الفتنة وقمع أولئك الخوارج فى جميع الولايات الشرقية فقاتلهم وانتصر عليهم ومزق شمل لمومهم وقبض على كبارهم وأعمل فيهم القتل بحد السيف ومازال بهم حتى زالت الفتنة وعادت الأمور إلى سابق مجراها ورجع بمن بقى من جيوشه إلى القسطنطينية ظافراً غانماً فلقب يومئذ بسيف الدولة ثم مات بعد ذلك فكان موته خسارة عظيمة على الدولة لصدق خدمته وأمانته وسعيه فى إعلاء منار الدولة وإرجاع رونقها القديم، فتولى بعده الوزارة نصوح باشا واتفق بعد ولاية نصوح باشا هذا أن عادت سفن رهبنة مالطة وسفن الحرب الأسبانيولية إلى مهاجمة مراكب الدولة وسد المسالك عليها فى عرض البحر الأبيض وأعانتها على ذلك المراكب الإيطالية أيضاً، فرسم نصوح باشا لجميع مراكب الدولة بالاجتماع فى البحر الأبيض والمحافظة على المواصلة ما بين القسطنطينية والأيالات المغربية فاجتمعت وكان مجئ بعضها من البحر الأسود، فلما خلا البحر الأسود منها قامت طائفة من القوزاق وزحفت على ثغر سينوب فنهبوا وعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وجاء الخبر بما وقع إلى دار السلطنة فأكبره السلطان واتهم الصدر الأعظم بالخيانة وسوء القصد وكان للصدر خصوم وأعداء لا تغفل عن الوشاية به فزينوا للسلطان قتله وحببوا إليه التخلص منه فأمر به فقتلوه خنقاً فى قصره. وكانت مصر إلى ما بعد خلع واليها على باشا وقيامه إلى دار السلطنة بأيام كثيرة بلا وال والأحوال فيها فى اضطراب والأمراء والجند على طرفى نقيض حتى جاء مرسوم السلطان إلى أمير الحاج بالتصرف فى ولاية البلاد فتصرف من عاشر ربيع الآخر فكان لا بأس به أصلح بعد الأمور ورفع بعض المغارم وأبطل كثيراً من المظالم وأعاد الجند إلى حد الطاعة وأزال الشحناء من بين كبارهم ولكن لم تطل مدته إذا اخترمته

المنية فى يوم الثلاثاء سادس شعبان سنة اثنتى عشر وألف من الهجرة فكانت مدة تصرفه نحوا من خمسة أشهر ودفن بالقرافة فاتفق الأمراء وكبار الدولة على تولية عثمان بك أمير اللواء، فولوه المنصف فى سابع عشر شعبان المذكور إلى أن يقدم من دار السلطنة من يتصرف وكان الأمير عثمان هذا مشهوراً بالعفة والاستقامة وله جلالة وهيبة ورأى وخبرة بالأمور فتصرف مدة ثلاثة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً.

(مطلب)

ولاية إبراهيم باشا المعروف بالمقتول

ثم جاء الخبر بولاية إبراهيم باشا المعروف بالمقتول فدخل القاهرة في يوم السبت ثانى عشري ذى الحجة سنة اثنتى عشرة وألف فلما استقر به المنصب وتصرف فى الأمور منع الكثير من طلبات العسكر وجعل يتتبع عثراتهم ويتجسس أخبارهم ولاسيما مجالس هزلهم فأشار عليه أصحاب المعرفة بأن يقلع عن هذا فلم يقبل وكان مستقلاً برأيه فخوراً مختالاً لا ينقاد إلى نصح ولا يهتدى لقول مشير. واتفق أن أتت له الأخبار يوماً بأن جماعة من العسكر بالغيط الذى بقناطر السباع يتعاطون الخمر ويفعلون ما لا خير فيه فقام وغير لباسه وسار إليهم ومعه ثلاثة رجال من خواصه فلما علم العسكر بحضوره فروا هاربين وزاد بغضهم له ونووا قتله فلما كان في تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة خرج إبراهيم باشا فى نفر من الجند والأتباع وأصحاب الوظائف والصناجق لقطع جسر أبى المنجى بين شبرا وقليوب فأشار عليه بعض أصحابه أن لا يخرج وأن الذى يخرج عادة لقطع هذا الجسر هو زعيم مصر فإن كان ما يمنعه أرسل بعض أتباعه لقطعه فقال وما علىّ لو ذهبت بنفسى قالوا إن خواطر الجند منحرفة وقلوبهم متغيرة عليك بسبب فعلك بهم فقال لابد من الذهاب وخرج بغير إحجام وقد أدركته صلاة الجمعة ببولاق القاهرة فصلى بها وهيئت له سفينة عظيمة وزينت بالستائر والرايات والفرش والطنافس الثمينة فركبها وصحبته الأمير محمد بن خسرو وأمير اللواء بمصر المحروسة وبعض أكابر خدمة الديوان ومازال إلى أن وصل إلى الجسر فقطعه فى يوم السبت مستهل جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة بعد الألف، وكان إبراهيم باشا قد هيأ طعاماً بالغيط الذى أنشأه محمود باشا تجاه قناطر أبى المنجى فدخل الغيط ومن معه وصحبته الأمير محمد بن خسرو وعزمى زاده قاضى القضاة يومئذ وحصل لهم الصفو والمباسطة قبل

الطعام فلما حضر الطعام رأى الأمير محمد بن خسرو وطائفة من العسكر مقبلين بسلاحهم يريدون الفتك بهم فأسرع إليهم وعارضهم وسألهم عما يطلبونه فسألوا من إبراهيم باشا شيئاً كان يمكن قضاؤه في الحال فلما رأى إبراهيم باشا ما هم عليه من التهديد والجفاء والتحزب لم يجبهم إلى ما طلبوه وأغلظ عليهم القول فتقدموا نحوه فمانعهم الأمير محمد وزجرهم وصاح في وجوههم فطعنه أحدهم بخنجره فسقط يختبط في دمه فعلا صدره آخر واحتز رأسه وهجم آخرون على إبراهيم باشا واحتزوا رأسه وهو على مائدة الطعام فامتلأت أواني الطعام من دمه ورفعوا رؤوسهما على جريدتين من نخيل الغيط وعادوا إلى القاهرة وهم في ضجة وجلبة وطافوا بهما الشوارع وساروا من وسط المدينة إلى باب زويلة وعلقوهما هناك فخاف الناس وأغلقت جميع الحوانيت في ذلك اليوم وسدت أبواب الدور من خلف وأيقن الناس بوقوع الفتنة واضطرام نارها وأغلقت أبواب المدينة كباب الحسينية وباب النصر وبابَ البحر وتعطلت جميع الأعمال فكان يوماً عبوساً وفي قول أن قتل إبراهيم باشا المذكور كان في قلعة الدولاب وهو راجع مع من كانوا معه إلى القاهرة لما بلغه خبر حضور العسكر لقتله. وكان قد أشار عليه بعض الصناجق بالهروب بحراً وعدم العود إلى القاهرة فلم يلتفت لقولهم ولا أخذ بمشورتهم فلحق به العسكر وقتلوه واحتزوا رأسه وطافوا به في الشوراع وعبثوا وأفسدوا في ذلك اليوم وفعلوا ما لاخير فيه فكانت مدة تصرف إبراهيم باشا المذكور في الولاية أربعة أشهر وثمانية أيام لاغير وقد نظم بعضهم تاريخاً في موته فقال:

إن إبراهيم باشا قد سعى في الخير سعياً
قتله قد أرخوه وأرى التاريخ بغياً
سنة ١٠١٣

(مطلب)

ولاية جرجي محمد باشا الخادم

ولما قتلوه على الصورة المتقدمة أقاموا قاضي القضاة عزمي زاده والياً بعده في ثالث جمادي الأولى سنة ثلاث عشرة بعد الألف وقد كانوا أرادوا أن يولوا الأمير عثمان بك فامتنع ولم يقبل. فلما وصل خبر قتل ابراهيم باشا إلى دار السلطنة غضب السلطان ورسم بولاية جرجي محمد باشا الخادم وأمره بقتل الثائرين وقطع

دابر جميع من كان له يد فى هذه الثورة، فدخل القاهرة فى سابع رجب سنة ثلاث عشرة بعد الألف وأتى إلى الصناجق أيضاً مرسوم السلطان بما ذكر فلما استقر محمد باشا بالقلعة وطلب الأمراء ليقرأ عليهم مرسوم السلطان وأن يأتوا بأهل الفساد وأصحاب الثورة خاف الأمراء وامتنعوا من الصعود إلى القلعة واجتمعوا بقراميدان تحت القلعة وتشاوروا طويلاً وكان بعض أكابر الدولة يترددون ما بين الباشا والصناجق حتى استقرت القاعدة بينهم على تسليم زعماء الثورة والعفو عن الصناجق فسلموهم فأمر الباشا برمى أعناقهم بين يديه فرميت فى الحال وتشتت من بقى من أصحاب الثورة فى البلاد فراراً من وجهه فجد فى طلبهم من الكشاف فمنهم من جيء به حياً فقتل ومنهم من قتله العربان، قال بعض كتاب الأخبار: فكان ما قتله منهم نيفاً ومائتين فى مدة تصرفه، وكانت مدة يسيرة إذ جاءه الأمر بالعودة إلى الديار الرومية فسار فى يوم الأحد ثانى عشر ربيع الأول سنة أربع عشرة فكانت مدته سبعة أشهر وسبعة عشر يوماً وتقلبت به الأحوال إلى أن ولى مسند الصدارة العظمى وكان حازماً شهماً قوى الجأش حسن التدبير صائب الرأى ذا خبرة بالأمور واسع الكلمة مهيباً.

(مطلب)

ولاية حسن باشا الدفتردار

وتولى بعده حسن باشا الدفتردار وقد كان والياً على اليمن ثم صرف عنها وقدم منها صحبة الحج إلى القاهرة فتردد عليه الناس وزاره الأمراء والعلماء والأكابر فشاهدوا منه رجلاً عاقلاً أديباً محتشماً وأقام بالقاهرة أياماً كان يبحث فيها عن أحوال البلاد وسير الكشاف ومعاملة أرباب الحل والعقد لأهالى البلاد فوردت الأخبار إلى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث ربيع الأول سنة أربع عشرة وألف بولاية حسن باشا المذكور على الديار المصرية وقد كان إذا أتى لزيارة الكبراء والأمراء والعظماء توجع لهم مما يشاهده من ضنك الأهالى وفاقة الناس واشتداد الكروب ويقول إذا آتانى الله سبحانه ولاية مصر بذلت فى إصلاح الأحوال مهجتى، فلما جاءته الولاية واستقر بها لم يمنع ولم ينفع واختلت أموره وقصرت كلمته وعمت البلوى وانقفل فى وجه أصحاب الظلامات باب الشكوى فعاث العسكر فى أيامه وعادوا إلى التمرد والإفساد فلم يقدر على ردهم فاشتدت الفتنة وظهر أهل الفساد

وارتفع الأمن وسدت الطرق فى وجوه أبناء السبيل وقل الوارد من المأكول إلى القاهرة ومصر القديمة فغلت الأسعار وتعذر على الفقراء الحصول على قوت اليوم ولبث الحال على هذا الوصف حتى صرف عن الولاية فى يوم الأربعاء رابع صفر سنة ست عشرة وألف فكانت مدته سنة واحدة ونصفاً وستة وعشرين يوماً.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا

ثم تولى بعده الوزير محمد باشا فدخل القاهرة يوم الخميس خامس عشر صفر سنة ست عشرة وألف وكان حازماً عاقلاً ذا فكرة وتدبير ساكن القلب هادئ اللب كثير الصبر والجلد فلما استقرت به الولاية التفت إلى أمور البلاد وحاجات الخلق وبالغ فى ترتيب الأحوال وتأمين السبل وإبعاد أهل البغى والفساد وأخذ الكل بالشبهات فانحرفت لذلك خواطر الأمراء عنه وأبغضه الجند وكثرت عليه الشكاوى من جور الكشاف وأخذهم أموال الناس فلما كان غاية جمادى الأولى من السنة المذكورة استقدم إليه ابن درغت كاشف المنوفية وبرويز مجر كاشف الغربية وكوسى كاشف البحيرة وعوقهم عنده بقلعة الجبل إلى غروب اليوم ثم أمر برمى أعناقهم وولى مكانهم آخرين وأخذ عليهم العهود والمواثيق أن لا يظلموا الرعية ولا يتعدوا الحدود وكان ممن عين لكشافة الغربية الحلوجى فاتفق أنه بعد توليته ذهب إلى بولاق القاهرة لقضاء مصلحته فالتقى بطائفة من العسكر وقد علموا بولايته على إقليم الغربية فسألوا منه حاجة فلم يجبهم إليها وأغلظ معهم فى القول ونهرهم فأطلق عليه بعضهم طبنجة محشوة بالبارود فانزعج وألقى بنفسه فى النيل فأثقلته ثيابه فمات غريقاً، وبلغ الخبر محمد باشا فجمع إليه الأمراء وأكابر العسكر بالميدان تحت قلعة الجبل ونشروا البيرق السلطانى ونادى مناد من كان مطيعاً لله ورسوله محمد ﷺ وولى الأمر فليدخل تحت لواء السلطنة الشريفة العثمانية، فاجتمع عالم كثير من الأمراء وأكابر العسكر ومكثوا بالميدان ثلاثة أيام ثم طلع الأمراء إلى قلعة الجبل فكلمهم الباشا طويلاً فى أمر هؤلاء الخوارج وقد كانوا بعد موت الحلوجى اجتمعوا خارج سور القاهرة وانضم إليهم طوائف أخرى من العساكر والأجناد وقسموا بينهم بلاد مصر وأقاموا عليهم سلطاناً منهم واختص كل فريق بجهة من جهات مصر العليا والسفلى وتفرقوا على ذلك فعاثوا وأفسدوا الحرث والنسل وسدوا الطرق

وقطعوا السبل ومنعوا ورود الأقوات إلى القاهرة فاستقرت القاعدة ما بين محمد باشا والأمراء فى ذلك اليوم على الخروج بطائفة من الجند لقتالهم فخرجوا واقتتلوا معهم قتالاً شديداً وظفروا بهم ومزقوا شملهم وقبضوا على زعمائهم وأصحاب الكلمة منهم وقدموهم إلى محمد باشا فأمر بقتلهم بين يديه وتتبع الجند من بقى منهم فى المدن والقرى وأبادوهم إلا من طال عمره وخمدت نار الثورة ثم لم تكد تطمئن خواطر الخلق حتى ظهر جماعة من لموم الأشقياء فى أوائل القعدة سنة سبع عشرة وألف واجتمعوا من الأقاليم القبلية والبحرية وتألفوا حزباً واحداً وحلفوا لمن بقى من متشردى أولئك العسكر بعد الواقعة الأولى على الأخذ بثارهم وقطع دابر الأمراء وأكابر الدولة ونصبوا خيامهم بالمرج والزيات وتحالفوا على الهجوم والقتال فلما علم محمد باشا بخروجهم أرسل لهم جماعة من الاختيارية الموصوفين بالعقل والتجربة فوعظوهم وحذروهم عاقبة هذا الأمر فلم ينتهوا فعادوا وأخبروا الباشا بما كان فجمع الباشا طوائف العربان ومشايخها من الأقاليم وجميع العساكر والأجناد وجيش منهم جيشاً عظيماً مدججاً بالسلاح وآلات الحرب وعدة من المدافع وجعل مقدمه الأمير مصطفى بك سردار العساكر فسار مصطفى بك بهذا الجيش لقتال الخوارج فلما وصل إلى بركة الحاج تراءى الجمعان فاقتتلا قتالاً شديداً وظفر بهم مصطفى بك وضيق عليهم المسالك فطلبوا الأمان واختلط الجيشان فقبضوا على أشرارهم ومقدميهم وهرب من خلص منهم فتبعتهم العربان وقتلتهم وعاد مصطفى بك إلى القاهرة بمن معه من الخوارج وهم مشاة حفاة حاسرو الرؤوس مكبلون بالحديد ورؤوس القتلى مرفوعة على الرماح ودخلوا جميعاً من باب النصر والناس ينظرون إليهم ومروا بالقصبة إلى أن وصلوا إلى القلعة فلما تمثلوا بين يدى محمد باشا أمر بجماعة منهم فقتلوا فى ساعة وصولهم والباقى منهم قتل فى ليلة وصوله وألقوا جثثهم فى النيل ثم أخذوا يتتبعون أثر من بقى منهم فكانوا إذا عثروا بأحد نفوه إلى اليمن، ومازالوا حتى لم يبق منهم أحد وصفت الحال وسكنت خواطر الخلق واطمأنت قلوب سكان مصر والقاهرة، ووجه الباشا عنايته إلى ترتيب خراج البلاد وإبطال الكلف والمغارم وتخفيف الضرائب وإبطال طريقة جباية الأموال التى كانت جارية من عهد دولة المماليك الشراكسة ورسم بجبايتها على ما جاء فى حكم السلطان سليمان الموقع فى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وكان شفوقاً بالرعية محباً للضعفاء آخذاً بناصر المظلوم نافذ الكلمة لا يرد له أمر وما زال محفوظاً إلى أن اختار العود إلى دار السلطنة

وتنزيل نفسه عن ولاية مصر فخرج فى يوم السبت ثانى جمادى الآخرة سنة عشرين وألف فى جلالة ومـوكب عظيم ما تخلف عنه أحد من العسكر والأجناد والأمراء فكانت مدة تصرفه أربع سنوات وأربعة أشهر واثنى عشر يوماً وعمر فى ولايته جملة مبان وعدة عمارات بثغر رشيد وأخذ الجزر المقابلة لرشيد وأطياناً بالمنوفية والجيزة وعمل سحابة بطريق الحاج فلما بلغ دار السلطنة ولى مسند الصدارة ثم أرسل بجيش جرار لقتال ملك فارس فلم يقارن أعماله توفيق ولم ينجح له تدبير وعاد مهزوماً فولاه السلطان ولاية حلب فأقام بها قليلاً ومات.

(مطلب)

ولاية حاجي باشا وخلعه
وولاية محمد باشا المعروف بالصوفي

فتولى بعده على مصر حاجى باشا بأمر سلطانى أحضره إليه محمد باشا قبل سفره إلى يالديار الرومية وسلمه إليه إياه بمدينة بلبيس فى يوم السبت ثالث رجب سنة عشرين وألف ودخل القاهرة وتصرف لغاية يوم الخميس العشرين من شعبان من السنة المذكورة فكانت مدتة شهرًا واحدًا وسبعة عشر يوماً وتولى بعده محمد باشا المعروف بالصوفى ودخل القاهرة فى ثانى عشرى شعبان وجعل يتصرف فى الأمور فكان ظاهره اللين والرفق بالرعية وتأمين السبل وقطع شأفة أهل الفتن والفساد فلما كان فى شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين وألف قدمت إلى مصر طائفة من عسكر الدولة يبلغون زهاء أربعة آلاف غير الأتباع وكان السبب فى قدومهم أنهم ثاروا على الدولة وخرجوا عن طاعة كبارهم وكادت فتنتهم تعم فدبر الصدر الأعظم فى إبعادهم إلى مصر وأشاع بينهم أنه يريد بقاءهم بها رباطاً مستديماً فلما وصلوا إلى القاهرة أتى إلى محمد باشا مرسوم سلطانى بتجهيزهم إلى بلاد اليمن وإمدادهم بما يلزم من المؤن والعلائف ودواب الحمل قدر الاستطاعة فلما تحققوا أنها مكيدة عصوا وتمردوا فأعجلهم محمد باشا بالخروج بعد أن صرف لهم جوامك السفر وسير معهم فندق بك أحد الأمراء ليسير بهم إلى مدينة السويس فبرز فندق بوطاقة يوم ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة المذكورة فمر الوطاق بباب زويلة ثم باب النصر وكان به أولئك العسكر فقاموا عليه ورموا بالخيام من فوق ظهور الجمال ومنعوهم من الخروج وهاجوا وماجوا ونادوا بالويل والثبور على السلطان ورجال دولته فوصل

الخبر إلى محمد باشا فجمع من وجد بمصر إذ ذاك من العسكر ورسم إلى فندق بك بالخروج إلى الريدانية بالعسكر وإجهار النداء بأن جميع العسكر الذين قدموا من دار السلطنة يخرجون صحبة السردار المعين ومن خالف قبض عليه وجوزى فامتنعوا جميعاً وأغلقوا بابى النصر والفتوح ورموا خلف البابين بالأحجار وتحفظوا من كل جانب ومنعوا كبارهم من الخروج إلى الريدانية والطلوع إلى الديوان ونصبوا حواجز بالشوارع الموصلة إليهم وتحصنوا بكثير من المتاريس وصعد جماعة منهم إلى أعالى الخانات والربوع والبيوت والجوامع والمنارات وهم ينتظرون من يقدم عليهم فلما بلغ محمد باشا خبر هذا التحصين وأن لا طاقة لفندق بك ومن معه على إخضاع أولئك الخوارج جمع الصناجق والكشاف ومقدمى الخفر بميدان الرميلة وتشاوروا فى الأمر فاستقرت القاعدة بينهم على أن يسيروا إليهم فساروا فلما عاين الخوارج ذلك الجمع أذعنوا للطاعة وأجابوا ورفعوا الحصار وأزالوا المتاريس وفتحوا الأبواب وطلبوا الأمان ودواب الحمل فأحضروا لهم ما يزيد عن ثمانين جملاً فلما وصلت إليهم الجمال عادوا إلى العصيان وضربوا الجمال بالسيوف فنفرت وتشردت وقفلوا الأبواب ثانية وعادوا إلى أقوى مما كانوا عليه من التحصين وشاع الخبر بأنهم قتلوا كبارهم ولم يبقوا على أحد فأمر محمد باشا السردار بالخروج فخرج ومعه جمع كبير من الأمراء والأجناد واثنى عشر من كبار الأمراء وطائفة من حارة الفوالة وساروا إلى الخوارج بستة مدافع كبار محشوة بالفلوس الجدد والمسامير ونودى للرعايا الملاصقين لأماكنهم وبيوتهم بغلق الحوانيت والبيوت فلما وصلوا إليهم وجدوهم متيقظين بعلو الأسطحة والمآذن فلما تراءى الجمعان التحم القتال فكان كل ما ألقى العسكر من الرصاص والنشاب والأحجار لا يصل إلى الخوارج لعلوهم على العسكر وكل ما ألقاهم على العساكر نال منهم فقتل من العساكر سبعة فهال مقدم عسكر الوالى هذا الأمر وخشى استفحال أمر هذه الفتنة وقد اشتد رمى الخوارج وتتابع على العسكر فجعل مقدم عسكر الوالى يتدبر فى الوصول إليهم من وكالة البطيخ ومازال حتى اتصل إليهم بجماعة من العسكر واتصل الأمير قاسم والأمير عبدى من خلفهم وتقدم الأمير يوسف الغاص بأصحابه فرفع الحواجز والمتاريس ونقبوا عليهم أماكنهم ودخلوا عليهم فلما اشتد الحال عليهم ولم يجدوا لهم قوة على القتال وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة طلبوا الأمان وأجابوا بالامتثال فى السفر إلى حيث شاء الباشا فأخرجوا جميعاً ولم يتخلف منهم أحد وسيروا بهم إلى السويس وزالت الفتنة

وسكن الحال واطمأنت خواطر الناس وعادت جميع الأمور إلى سابق مجراها. وسار محمد باشا فى الرعية سيرة حسنة وكان شفوقاً عليهم ميالاً لخيرهم فرفع كثيراً من المغارم القديمة وأبطل بعض المكوس الفادحة وكان يجلس بنفسه للنظر فى مصالح الخلق ويوقع على ما يرفع إليه من القصص فزالت فى أيامه القلاقل والفتن ودرت الأرزاق وحصل رخاء عظيم حتى بيع أردب القمح بخمسة وعشرين نصفاً فلوساً نحاساً والفول كل أردب بخمسة عشر نصفاً والعدس والبسلة كل أردب بثمانية عشر نصفا وكثر وارد المأكولات وتنازلت أثمان غير ما ذكر ففرح الناس فرحاً عظيماً ومالوا إليه بقلوبهم وأحبوه محبة عظيمة. فلما كان فى يوم الأربعاء عاشر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف ورد مرسوم سلطانى بصرف محمد باشا عن ولايته فكانت مدتها ثلاث سنوات وستة أشهر وثمانية وعشرين يوماً فحزن الناس عليه كثيراً.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا الدفتردار

وتولى بعده أحمد باشا الدفتردار ودخل القاهرة فى يوم الخميس حادى عشر ربيع الأول سنة سبع وعشرين وألف فى موكب عظيم مشى فيه جميع العساكر والأجناد وهو على فرس وعلى رأسه عمامة بريشتين قيل إن قيمة كل ريشة منهما ألف دينار فلما وصل بموكبه إلى الجواخين سقط على فرسه حجر من طاقة ببيت بالربع الذى يعلو حوانيت الجواخين فألقى إحدى الريشتين على الأرض ومزق جانباً من القماش فقبض فى الحال على من ألقى الحجر فتطير أحمد باشا من ذلك وأمر برمى عنق الرجل فرموا عنقه وكان الرجل يوصف بخبال العقل، ومازال فى موكبه حتى صعد إلى قلعة الجبل واحتجب أياماً لايراه أحد ثم جلس للناس وتصرف فى الأمور فكان حاكماً سياسيًا صاحب تدبير سهلاً فى أموره قريباً من الناس ليس عنده تحجب ولا غلظة محباً لخير الرعية ميالاً لإسعاد البلاد، فكان يأتى إلى أحسن الأمور من أبوابها حتى اجتمعت القلوب على محبته واتحدت على طاعته وهابه الحكام وخافه الولاة والكشاف وساروا بسيرته إلا القليل وعمت الراحة أفراد الرعية وراجت أسباب الزراعة وكثرت غلات البلاد كثرة عظيمة.

فلما كان شهر شوال وردت الأخبار إلى أحمد باشا بموت السلطان أحمد مات فى اليوم العاشر من القعدة سنة سبع وعشرين وألف حتف أنفه وهو آخر السلالة

المتصـلة من عمـود هذا النسب وكان عـادلاً محـباً للغـير أرسل إلى حـرم صاحب الشريعة الإسلاميـة حجراً من الماس قيمته يومئذ اثـنا عشر ألف دينار وأكثر، ورسم بأن يوضع فى الحجرة وهو موجود إلى الآن وأرسل أيـضاً جملة هدايا وتحف وميزابا من الفضة مموها بالذهب فوضع موضع الميزاب العتيق. قيل وله خيرات أخرى كثيرة وكانت مدة سلطنته أربع عـشر سنة وأربعة أشهر وعشرة أيـام، فتولى بعده السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أخو السلطان أحمد المشار إليه.

ومات فى سلطنته متاوس بطرك المتأصـلين بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة وكانت أيامه كلها هادئة مطمئنة فـأقيم بعده غبريال وهو حادى تسعيـهم فأقام ثمان سنوات ومات فأقيم بعـده ميخائيل وهو ثانى تسعيـهم وكان تقياً فاضلاً متـواضعاً فلم تطل مدته غيـر سنة واحدة ومات فأقـيم بعده يوحنا وهو ثالث تسعـيهم وأصله من بلدة نقادة من صعيد مصر وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.



(الفصل السابع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى ابن السلطان محمد خان)

ثم قام بالأمر بعـد السلطان أحمد أخوه السلطان مصطفى ابن السلطان محمد وهو أول من ارتقى على سرير السلطنة من إخوة ملوك بنـى عثمان. بويع له بالملك ثالث عـشرى ذى القـعدة سنة سـبع وعشـرين وألف هجرية أى سنة سـبع عـشرة وستـمائة وألف ميـلادية وكان فى مدة سلطنة أخـيه أحمد مـقيمـاً فى محل داخل السراى السلطانى ممنوع التـصرف والاجتمـاع بالناس لا يمكن من الخروج من مكانه وعنده بعض صبيان يخدمونه قيل وهو مـوصوف بالصلاح والتقوى لا التفات له إلى سلطنة ولا إلى تصرف فى أمر من الأمـور وكان كلما اجتمع بأخيـه السلطان أحمد يقول له لا حاجـة لى بسلطنة مطلقاً وكان يقال إن السلطان أحـمد كلما خطر بفكرة شىء من قبـل أخيه السلطان مـصطفى كان مـصطفى يقول له ارجع يا أحـمد عـما تقصـده. قيل فكان ذلك سبباً للكف عنه فلمـا تولى السلطنة ظهر عجـزه إذا كان ضعـيف الرأى منبوذ الكلمة لا هيبـة له ولا وقار مغلوباً على أمـره والكلمة لوزيره الأعظم واتفق عقب توليتـه بأيام أن هرب أحد أشراف بولونيا وكان معـتقلاً فى دار

السلطنة بعد الحرب التى أخذ فيها أسيراً وكان هروبه بمساعدة سفير دولة الفرنسيس فى دار السلطنة فأكبر الصدر الأعظم هذا الأمر وأعظمه وأمر فقبضوا على السفير وكاتبه وترجمانه وألقوهم جميعاً فى السجن ووصل الخبر بذلك إلى عاصمة الفرنسيس فهاجوا وماجوا وكادت الحرب تقوم على ساقها وبالغت دولة الفرنسيس فى التهديد والوعيد والتأهب والاستعداد وكثر الأخذ والرد بين الفريقين أياماً ثم كان من أمر ذلك ما سيذكر فى سلطنة السلطان عثمان خان الثانى.

واستمر أحمد باشا الدفتردار يتصرف فى ولاية مصر لا راد لكلمته ولا مانع لأمره وقد خافه الجند وهابه العسكر فاعتنى بأمرهم واهتم بصرف مرتباتهم وجماكيهم وعلوفاتهم فساروا سيرة حسنة وانكفوا عن الإيذاء والشر وأمسوا وهم طوع أمره ثم ورد إلى الباشا المشار إليه مرسوم السلطان بأن يجيش نحو ألف من العسكر المصرى نجدة لعسكر السلطان القائم إلى اليمن لقتال الخوارج من الزيديين وقيل لقتال ملك فارس فأرسلهم صحبة الأمير صالح بك أمير الحاج وزودهم بالمال والسلاح والعلوفة فساروا ومروا بالأقاليم المصرية ولم يقع منهم شىء ولا لحق بالأهالى من مرورهم ضرر وقد كان قبل ذلك إذا مر عشرة منهم بقرية أو مدينة عاثوا فيها وأقلقوا راحة أهلها وأهلكوا الحرث والنسل وفعلوا ما لا خير فيه فلما فرق فيهم المال نال الرجل منهم عشرين ديناراً وبينما هو يتصرف فى الأمور على ما ألفه من العدل وإغاثة الملهوف إذا جاءه الخبر بخلع السلطان مصطفى وتولية السلطان عثمان. وتحرير الخبر، إنه لما كان السلطان مصطفى ممن تربى فى حجر الانزواء وكانت أحواله مخالفة للمألوف من حال الزمان وكان مغلوباً على أمره كما تقدم القول لم تطل مدة تصرفه سوى ثلاثة أشهر وعشرة أيام ثم قام عليه كبار الدولة وأصحاب الكلمة وبينهم شيخ الإسلام وقظلار أغاسى السراى السلطانية وبعض الحرم فخلعوه ليلة الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية، ثم أودع فى جب داخل السراى. قال بعض الكتاب: وسد عليه بابه ماعدا روزنة لطيفة ينزل منها الطعام والشراب وولوا بدله السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى.



(الفصل الثامن)

(فى سلطنة السلطان عثمان بن السلطان محمد خان الثانى)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مصطفى السلطان عثمان ابن السلطان محمد خان الثانى بويع بالملك يوم الأربعاء ثالث ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وألف هجرية أى سنة تسع عشرة وستمائة وألف ميلادية وله من العمر إحدى عشرة سنة لاغير. قال بعض أصحاب التاريخ: فكان مع صغر سنه واسع الفكر هماماً ذا هيبة فأول عمل بدأ به هو أنه أمر فأطلقوا سفير الفرنسيس وكاتبه وترجمانه من الحبس وسير إلى ملك الفرنسيس وهو يومئذ الملك لويز الثالث عشر رسولاً يستعطفه ويستميله إلى الصفح فأجابه إلى ذلك وعادت الأمور بين البلادين إلى سابق مجراها فعمد السلطان بعد ذلك إلى إصلاح ما فسد من أحوال الدولة ودفع ما استولى على جميع أمورها من الخلل فلم يتمكن لخروج العساكر عن الطاعة وتطرق الفساد إلى جميع المصالح وأخذ الأوغاد والأغرار بزمام جميع الأمور وتصدرهم فى الوظائف العالية والمراتب السامية ومع ذلك فإن هذه الشوائن لم تقعده عن الغزو وفتح المدن والبلدان فتأهب لقتال مملكة بولونيا وجعلها حداً بين أملاكه وبين أملاك الروس وجيش لذلك الجيوش وأعد المعدات وخاف أن يترك أخاه الأمير محمداً فى دار السلطنة فينازعه فى الملك فأمر بقتله صبرا وكان إلى هذا الحين لا يبرم أمراً فى دار السلطنة إلا بإشارة مفتيها ولا يتم للسلطان ورجال الدولة عمل إلا برأيه فكان يعزل ويولى من يشاء من الولاة والحكام ويمضى الأحكام بلا معارض ولا منازع فخاف السلطان منه وخشى من تركه فى دار السلطنة على هذا الحال من نفوذ الكلمة وبسيط اليد لاسيما وقد كان الانكشارية لا يقفون عند حد وقد تفشى الخلل والفساد بين كبارهم وصغارهم فنزع منه ذلك النفوذ وأبعد عنه تلك الهيبة وأوقفه عند حد الإفتاء لا غير ليأمن شره وسير فى طلب أحمد باشا الدفتردار والى ديار مصر فجاءه المرسوم السلطانى بالانصراف عن الولاية فانصرف عنها فى يوم الخميس ثالث عشر صفر سنة تسع وعشرين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنتين وأحد عشر شهراً وثلاثة أيام كلها إسعاد وبركة وخير ورفاهية على البلاد وأهلها.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا السلحدار

وولى بعده مصطفى باشا السلحدار فدخل القاهرة فى ثالث عشر صفر من السنة ثم سار السلطان بجيوشه لغزو مملكة بولونيا فالتقى الجمعان واقتتلا قتالاً عنيفاً للغاية ولما كانت طوائف الانكشارية مضطربة الأحوال ناقمة على السلطان تقاعست عن الحرب وأظهرت الملل وطلبت مخابرة البولونيين فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال فمانع السلطان فى ذلك وأبى إلا القتال حتى يتم له النصر فلم يفلح وأبى الانكشارية إلا عقد الصلح وألحوا فى الطلب وبالغوا فى التهديد فتقرر الصلح بين الفريقين وعاد الانكشارية إلى دار السلطنة إلى أن كان من أمرهم ما سيتلى عليك فى موضعه. ولما عاد السلطان إلى القسطنطينية خلع مصطفى باشا عن ولاية الديار المصرية أخريات سنة تسع وعشرين فكانت مدة تصرفه سنة إلا شهراً لم يأت فيها من الأعمال شيء يذكر فإنه كان ضعيف الرأى خامل الفكر كثير التحجب والانزواء.

(مطلب)

ولاية جعفر باشا

وولى بعده جعفر باشا وكان جعفر باشا هذا لما قدم من اليمن أقام بالقاهرة أياماً والناس يترددون عليه فكان ذا علم وفضل ومشاركة فى غالب العلوم العالية وأبحاث جيدة فلما رأى إقبال الناس عليه وميل قلوبهم إليه طمع فى الولاية فأرسل إلى دار السلطنة التماساً بذلك ولبث ينتظر الجواب وكان لما علم مصطفى باشا بذلك خشى الفتنة وساءه ما فعله جعفر باشا فأرسل إليه بعض كبار الأمراء يحثه على الرحيل عن مصر ويعلمه شر عاقبة البقاء فامتنع أولاً ثم عاد فأذعن وسافر براً فى نفر من أتباعه وحاشيته ولكنه لم يلبث أن عاد بمرسوم الولاية فخرج لاستقباله الأمراء والعلماء وأكابر الدولة وكبار العسكر ودخل القاهرة فى موكب لم يعهد له مثيل وفرح العامة والخاصة بقدومه وكان دخوله القاهرة فى أواسط صفر سنة ثمان وعشرين وألف كما تقدم القول فلم يستقر به المقام حتى فشا الطاعون بمصر والقاهرة ثم عم جميع القرى والمدن وكثر الموات فى الناس واشتد اشتداداً عظيماً فقفلت الأسواق بمصر والقاهرة. قال بعض كتاب الأخبار: إلا أسواق الأكفان فلم تقفل ليلاً ولا نهاراً ومنع جعفر

باشا عامل الأموات من التعرض للأموات، فكان الناس يدفنون موتاهم بغير إذن فى الليل والنهار واستمر الحال على هذه الشدة نحو الشهرين مات فيهما خلق كثير لا يكاد يدخل تحت حصر ثم ارتفع الموات وزال فسكنت القلوب واطمأنت الخواطر وكره الناس جعفر باشا وتطيروا من ولايته وحسبوها شؤماً على البلاد، فلما كان شهر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف جاءه مرسوم السلطان بالعزل فسافر بحراً إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه ستة أشهر وأياماً قال بعض كتاب الأخبار: فلم يقم بالديار الرومية إلا أشهرًا قلائل ومات فعاد ولده إلى مصر وعاش بها فقيراً وليس له من يسأل عنه.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى عاشر رمضان سنة ثمان وعشرين وألف فلم تستقر به الولاية حتى جار وظلم وضرب المغارم والمكوس وأكثر من جمع الأموال بجميع وسائل العسف والقهر وشدد على أصحاب الأموال وضيق وهدد وبالغ فى الإرهاب فكثر الوشاة وأصحاب السعاية على بابه ينقلون له أخبار الناس فضاقت أحوال أصحاب الأموال واختلت جميع الأمور فكان من وشى به إليه وبذل ما طلبه منه سلم ومن تقاعس ولم يبذل حقر وأخذ منه أكثر مما طلب منه، قال بعض كتاب الأخبار: وتتبع أثر مصطفى بك البقجلى زعيم ثورة الجند التى حصلت على عهد مصطفى باشا وقبض عليه وقتله بيده فظن الناس قيام الفتنة بسببه وتمنوا ذلك فلم يحصل فكبر خوفهم منه ورفعوا ظلامتهم إلى دار السلطنة وضجوا وطلبوا خلعه فجاءه مرسوم السلطان بخلعه فى ثالث رمضان سنة تسع وعشرين وألف فكانت مدة تصرفه سنة إلا ثلاثة أيام.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

وتولى بعده حسين باشا فى ثالث عشرى الشهر المذكور ووصل إلى القاهرة وأدرك مصطفى باشا المعزول قبل سفره فمنعه من السفر وأنزله من قلعة الجبل إلى بيت مراد باشا بالسبع قاعات بالقاهرة وجعل على بابه الحرس وتركه على هذا الحال

أياماً ثم طلبه فلم يجده وكان قد تخلص بتدبير أحد كبار الدولة وسار إلى الديار الرومية فتبعه كثير ممن صادرهم وأخذ أموالهم فادعوا عليه ونالوا منه وأخذوا جميع ما كان اغتاله منهم وسار حسين باشا الوالى الجديد سيرة حسنة للغاية فأبطل بعض المغارم والمكوس المستحدثة على أيام مصطفى باشا ورتب أمور الدولة وأحكم نظام ما اختل منها أيام أسلافه ووقع فى أيامه غلاء عام حتى بيع أردب القمح بالكيل المصرى بمائتى نصف فضة والشعير بمائة وعشرين نصفاً والفول بمائة وستين نصفا وكذلك بقية الغلال فكانت شدة عظيمة للغاية. ثم زاد النيل زيادة فوق الحد وعم جميع الأرض وثبت على الزيادة فوق جميع الأراضى لغاية شهر هاتور القبطى حتى كاد الناس ييأسون من زرع الأرض ثم هبط فتمكنوا من الزرع ولكنه لم يأت إلا بما قل من المحصول وضربت على الناس فى أيامه أيضاً ضريبة جديدة هى ضريبة النطرون وقد فرضت على جميع المدن والثغور فتألم الناس منها وراجعوه فى رفعها فلم يرض فانحرفت الخواطر عنه وابتعدت القلوب ونقموا عليه وظهر الخلل فى جميع أمور الدولة واستخف الناس بحرمته وزالت عنهم هيبته فعاد أهل الفساد فى جميع المدن والقرى للعبث وكاد يستفحل أمرهم فلما كان عاشر ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وألف جاء مرسوم السلطان بعزله فكانت مدة تصرفه سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام.

(مطلب)

ولاية محمد باشا البستنجي

وتولى بعده محمد باشا البستنجى فى حادى عشر ربيع الآخر ولكنه لم يقدم إلى مصر لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان عثمان وخلعهم إياه ثم سجنه ثم قتله فناب عنه فى الولاية على مصر حسن افندى الدفتردار. قال أصحاب التاريخ: لما ظهر عصيان الانكشارية أيام قتال البولونيين أمام مدينة شوك زم وإكراههم السلطان عثمان على عقد الصلح مع البولونيين والكف عن القتال وإلحاحهم فى ذلك عاد السلطان إلى القسطنطينية وقلبه يلتهب غيظاً وأقسم أن يستأصل الانكشارية ويمحو آثارهم عن وجه الأرض فرسم من هذا الحين بجمع عسكر جديد فى بعض عمالات آسية وجعل يعد لهم المعدات ويبالغ فى إتقانهم وتنظيمهم فأحس الانكشارية بذلك وعلموا ما وراء التقاعد والسكوت فقاموا على

قدم واتحدوا على خلع السلطان فخلعوا بيعته فى التاسع من رجب سنة إحدى وثلاثين وألف هجرية ودخلوا عليه فى قصره وهو بين نسائه وجواريه وقبضوا عليه وأخذوه قهراً إلى محلتهم وسبوه بأقبح السب والشتم ثم نقلوه إلى قعلة يدى قله فلبث بها يوماً وبعض يوم ثم دخل عليه جماعة من كبار الدولة وأصحاب الفتنة فقتلوه ونادوا بولاية السلطان مصطفى الأول ثانية بدله وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فكانت سلطنة السلطان عثمان أربع سنين وأربعة أشهر وعشرة أيام وكان جليل القدر واسع المعرفة كبير السياسة عظيمها شديداً فى الحروب عظيم التدبير ومع هذا كله فإنه لم يفلح مع جماعة الانكشارية ولم يقدر على إبادتهم كما كان يتمنى.

ومات فى سلطنة السلطان عثمان يوحنا بطرك المتأصلين فكانت أيامه كلها شدة وعناء وضيق وفناء ومصائب وإحن ومحن ذاق فيها القبطة من جور العمال وظلم الحكام وعسفهم أشكالاً وكانت مدة تصرفه ثلاث سنوات فأقيم بعده يوحنا وهو رابع تسعيهم وأصله من بلدة صدفة يعرف بابن المصرى وكان تقياً ورعاً كثير الصدقة مهيباً محبوباً ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.



(الفصل التاسع)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانية)

ثم قام بالأمر بعد قتل السلطان عثمان السلطان مصطفى أرجعوه إلى تخت الملك ثانى يوم قتل السلطان العثمانى فى ثامن رجب سنة إحدى وثلاثين وألف هجرية أى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية ولم يستقر به السلطنة حتى قامت الفتنة واشتد لهيبها فإنه لما تم لطوائف الانكشارية ما أرادوه من خلع السلطان عثمان وقتله كبر استخفافهم بالأمور واستصغارهم لكبار الدولة ورجال السلطنة فعاثوا فى القسطنطينية وأفسدوا وصاروا يعزلون ويولون من يشاؤون من الوزراء وكبار الدولة ويبيعون الوظائف جهاراً ويقبضون على من يتوسمون فيه سمة الإنكار حتى اختلت جميع الأمور وفسد نظام الدولة وزالت هيبة السلطنة وظهر الأوغاد وأسافل الناس وقبضوا على زمام الأمور واشتد الكرب وسرت نار الفتنة إلى جميع

العمالات التابعة لدار السلطنة فنهض والى طرابلس الشام ووالى أرضروم إلى شق عصا الطاعة وركب والى أرضروم فى عسكر عظيم للغاية ونادى بالثارات عثمان ونزل على مدينة سيواس وأنقره وفتحهما وأعمل السيف فيمن كان فيهما من طوائف الانكشارية وضبط أموالهم وأرزاقهم ثم سار إلى مدينة بروسة وقد تبعه والى سيواس ووالى سنجق قره شهر فحاصروها وأقاموا على حصارها ثلاثة أشهر حتى دخلوها عنوة ووردت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فلم يلتفت إليها لاشتغال طوائف الانكشارية بالنهب والسلب والقتل وإراقة الدماء ظلماً وظل الحال على ذلك من الخلل والارتباك سنة ونصف سنة والناس فى ضيق ما عليه من مزيد ثم اجتمع رجال الدولة واتحدت كلمتهم على تولية على باشا كما نكش منصب الصدارة وتفويض الأمور إليه لعله يتمكن بخبرته من إرجاع الأمور إلى سابق مجراها فتولى المنصب وجعل يتصرف فى الأمور ويدبر الأحوال جهد الاستطاعة ويعمل على إعادة الأمن إلى داخلية البلاد ويدفع غارات الانكشارية عن أهلها بالتى هى أحسن حتى كان من أمره بعد ذلك ما سيذكر فى محله. ولم تثبت نيابة حسن أفندى الدفتردار فى ولاية مصر عن محمد باشا البستانجى فقد صرف محمد باشا المذكور عن الولاية قبل أن يقدم إلى مصر فكانت مدة تصرف حسن أفندى الدفتردار أربعة أشهر وسبعة أيام.

(مطلب)

ولاية إبراهيم باشا السلحدار

ثم تولاها إبراهيم باشا السلحدار ودخل إلى رشيد فى يوم الجمعة ثانى عشرى شعبان سنة إحدى وثلاثين وألف ووصل إلى القاهرة فى أوائل رمضان من السنة وكان ذا فكر ومهابة واسع الدراية صاحب تدبير ولكنه كان محباً للمال والكسب بكل ما تصل إليه قدرته واتفق أنه وقع فى أيامه غلاء زائد جداً فجاء الناس من الأقطار الحجازية والديار الشامية ومن غزة وغيرها إلى مصر ليمتاروا فمن كان ذا مال امتار ما يحتاج إليه ورجع إلى أهله ومن لا مال معه وله قدرة على الكسب أو الخدمة صار يقتات من خدمته أو كسبه ومن لا مال له ولا قدرة له على الكسب ولا الخدمة صار يستعطى حتى امتلأت مصر وقراها منهم فكان ما بيع فى مصر والمدن والكفور والثغور والقرى من القمح والفول والعدس والشعير وبقية الحبوب شيئاً كثيراً جداً لايكاد يدخل تحت حصر، ولما طالت أيام إبراهيم باشا تغيرت أحواله وتزايد

جوره وجود أتباعه وكثرت على الناس طلباته وطلبات أتباعه فكانت له تجارة واسعة فى بن القهوة يأتيه من اليمن فى كل عام فكان يلزم به التجار ومشايخ الأسواق فحصل لهم بسبب ذلك خسارة عظيمة فشكوا إليه فلم يلتفت لشكواهم فرفعوا ظلامتهم إلى بعض كبار الدولة فتحرك عليه جماعة منهم ومنعوه من ذلك فانحط قدره وقصرت كلمته وبقى مقهوراً مدحوراً إلى أن صرف عن الولاية فى يوم الأربعاء سابع رمضان سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه سنة واحدة وتسعة عشر يوماً.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا

وتولى بعده مصطفى باشا فدخل القاهرة فى الثانى والعشرين من رمضان فلما صعد إلى قلعة الجبل أتى إليه كتبة الديوان يشكون من إبراهيم باشا المعزول وقالوا إنه أخذ من مال الخزينة السلطانية أموالاً جزيلة فسير مصطفى باشا فى أثره جماعة من العسكر فالتقوا به فتهددهم فرجعوا وأخبروا بما كان فسير إليه مصطفى باشا الأمير صالح بك فأدركه وقد نزل البحر عند الاسكندرية فسأله أن يتربص فقال إنى سائر إلى دار السلطنة فإذا كان علىّ للخزينة شىء دفعته هناك فألح عليه صالح بك فلم يلتفت لكلامه وأقلعت به المركب فأطلقوا عليه المدافع من طابية منارة الإسكندرية فلم ينله منها ضرر ونجا بما كان معه من الأموال والمتاع وكان شيئاً كثيراً، فلما وصل إلى القسطنطينية لم يصبه من جانب السلطنة شىء لاشتداد الفتنة يومئذ وارتباك الأحوال وتعذر إرجاع الأمور إلى سابق مجراها وانكماش على باشا الصدر الأعظم ورفضه البقاء فى منصب الصدارة إن بقى السلطان مصطفى فى منصب السلطنة مع ما هو فيه من وهن العزيمة وضعف العقل وعدم الوقوف عند حدّ، فلما رأى رجال الدولة أن لا خلاص من هذه الفتن إلا بخلع السلطان قاموا عليه وخلعوه فى يوم السبت الثالث والعشرين من ذى القعدة وقيل فى الخامس والعشرين منه سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية وولوا بدله ابن أخيه السلطان مراد ابن السلطان أحمد فكانت سلطنة السلطان مصطفى سنة واحدة لاغير.



(الفصل العاشر)

(فى سلطنة السلطان مراد الرابع ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان مصطفى ولد أخيه السلطان مراد بويع له بالملك يوم الأحد فى الرابع والعشرين من ذى القعدة سنة اثنتين وثلاثين وألف هجرية أى سنه ثلاث وعشرين وستمائة وألف ميلادية فكان مغلوباً على أمره لا كلمة له لحداثة سنه إذ كان لايناهز الثانية عشرة من العمر وكانت كلمة الانكشارية فوق كل كلمة ويدهم فوق كل يد. قال أصحاب التاريخ: ولما كان كل من يتولى الحل والعقد فى تلك الأيام من أهل هذا الاختلال والغش كان الخروج من هذه الدائرة الفاسدة وإصلاح الأمور من المحال وشاع الخبر بذلك عند ملوك الدول المجاورة وكثر تحدثهم به وكان ممن سره هذا الخلل وأفرحه وهن أركان الدولة العثمانية عباس شاه ملك فارس لما كان بين الدولتين من البغضاء والشحناء فاغتنم هذه الفرصة وعمد إلى أخذ بعض بلاد الدولة العثمانية وإرجاع ما أخذ من بلاده وسار فى جيش عظيم إلى بغداد فحاصرها وكان بها عسكر السلطان فأقام على حصارها حتى احتلها عنوة وأعمل السيف فى أعناق من بها من العسكر السلطانى وقتل جميع كبار الدولة وعظماء الجند ووردت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فهال السلطان هذا الأمر وأزعجه جداً وكان للصدر الأعظم كثير من الأعداء والخصوم من بطانة السلطان وقرنائه فوشوا به عند السلطان وقالوا إن سقوط دار السلام فى يد العدو إنما كان بخيانة الصدر الأعظم فغضب السلطان وأمر بقتله فقبضوا عليه وقتلوه وولى مكانه شركس محمد باشا فلم تطل مدته ومات وتولى الصدارة بعده حافظ باشا.

وورد مرسوم السلطان إلى مصطفى باشا والى مصر بتثبيته فى مقام الولاية والإيعاز إليه بالرفق بالرعية والقيام بما يلزم للحرمين وخروج الحاج فى أوقاته فقرئ بحضرة العلماء والأمراء والمشايخ وأخذ مصطفى باشا يتصرف فى الأمور ولكنه لم يلبث أن جاءه الأمر بالعزل والعود إلى الديار الرومية فلما شاع خبر عزله اجتمع طوائف العسكر على عادتهم وساروا إلى عيسى بك نائب الغيبة وطلبوا أن يعطيهم العطايا التى كانوا يأخذونها عند تولية الولاة فلم يعطهم ومنعهم من الإتيان إلى ديوانه فألحوا فى الطلب وكرروا النداء فلم يلتفت إليهم فاجتمعوا وساروا من وسط

المدينة وهم يضجون وينادون لانريد أحدًا يتولى أمور البلاد غير مصطفى باشا وكان مصطفى باشا بعد أن جاءه الأمر بالعزل لبث ينتظر الخلف ومازال الجند يطوفون وينادون إلى أن وصلوا إلى قره ميدان فتحالفوا على أن يكونوا جميعاً يداً واحدة وقلباً واحداً ووصل الخبر بذلك، إلى مصطفى باشا ففرح فرحاً لايوصف وتقوت عزيمته وكتب إلى دار السلطنة يلتمس البقاء على ولاية مصر وكذلك كتب العلماء والمشايخ والقضاة فلم تكد تصل رسل مصطفى باشا إلى دار السلطنة حتى وصل الخبر بوصول على باشا الوالى الجديد إلى ثغر الإسكندرية فسيروا إليه فى الحال من يعلمه بأن الجند وأهل البلاد كافة لا تقبله فبعث هو كتاباً إلى العسكر وكافة الأمراء والأجناد وأعيان البلاد يمتدحهم ويثنى عليهم ويقول :

أما بعد، فإنى لم آت إلى مصر إلا طائعاً لأمر السلطان الذى يجب على وعلى كل مسلم صحيح الدين طاعته فلما قرئت الكتب على أهل الحل والعقد سيروا إليه ثانية يقولون إنا لا نقبلك فقبض عند ذلك على الرسل وقيدهم فى سجن قلعة الإسكندرية وكان العسكر المرابطون فيها إخواناً لأولئك الرسل ففكوا فى الحال قيودهم وهجموا جميعاً على وطاق على باشا المذكور بسيوفهم وقبضوا عليه وأنزلوه فى مركب وأخرجوه من مينا الإسكندرية وكانت الريح معاكسة فأعادت المركب إلى المينا قهراً فأطلق عليه الأمير مصطفى أمير جند قلعة المنارة عدّة طلقات ثقبت المركب عدة ثقوب ولم تغرقها فخرج القارب من فوره قاصداً الديار الرومية وعاد الرسل إلى القاهرة فأخبروا بما جرى ففرح مصطفى باشا بذلك.

ولما كان العشرون من ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين قدم إلى القاهرة من الاسكندرية طائر البطاق يحمل الخبر بقرب وصول قابوجى (أى رسول) من دار السلطنة ومعه مرسوم سلطانى فبعد أيام قلائل وصل القابوجى المذكور ودخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وجمع الأمراء والعلماء وجميع الصناجق وتلا عليهم الفرمان بتثبيت ولاية مصطفى باشا على مصر إجابة لطلبهم ثم ألبس مصطفى باشا خلعة سنية وقلده سيفاً عظيماً ففرح الجند بذلك فرحاً لايوصف حيث فازوا بمقصودهم واستقر المنصب بمصطفى باشا فتصرف وعلت كلمته ومالت إليه القلوب وأحبته وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فارتفع إلى أربع وعشرين ذراعاً وثبت على ذلك أياماً فخاف الناس من وقوفه إلا أنه هبط بعد ذلك سريعاً وانكشفت الأراضى ففرح الناس وأخذوا فى الحرث والبذر. وبينما هم على هذا الحال والقلوب

مطمئـنة ساكنة إذا ظهر الـطاعون بالقاهـرة ومصر فى أوائل ربيع الأول سـنة خمس وثلاثين، وامتد امتداداً سريعاً فى جميع المدن والبنادر والقرى وعم البلاد شرقاً وغرباً فمات به خلق كثير.

(مطلب)

ولاية بيرم باشا

قال بعض الكتاب: كان عدد من مات فى هذا الطاعون نيفاً وثلثمائة وألف بين الخامسة عشرة والـعشرين من العمر واشتد اشتداداً عظيمـاً لم يسبق له مثيل ثم أخذ فى التناقص فى شعبان من تلك السنة وارتفع فى أوائل رمضان فتطاولت يد مصطفى باشا إلى أخـذ تركات ومقـتنيات جمـيع من ماتوا فى هذا الوباء وادعى لنفـسه حق التوريـث فشكا الوراث من ذلك فلم يسـمع منهم فرفـعوا أمـرهم إلى دار السلطنة وأكثـروا من الشكوى فجـاء الأمر بعـزله وتولية بيـرم باشا بدله فدخل الـقاهرة فى جمادى الأولى سنة سبع وثلاثين وألف فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور فى المدة الأولى والثانية نحـو ثلاث سنين وبضع أشهر، ولما استقر بيـيرم باشا المقام منع مصطفى باشا من السفر وحجزه فى بيت بالقاهرة ووكل به من يحرسه وحاسبه على ما فى ذمته من أمـوال الخزينة وتركات الأموات وألزمه بإرجاع جميع مـا أخذه فباع كل متـاعه وجميع مـقتنياته ودفع مـا عليه ورحل إلى الديار الروميـة ولبث بها إلى أواخر سنة سبع وثلاثين ثم أمر السلطان بقتله فقتل.

وتصـرف بيرم باشـا فكان يرى فى الجند شـدة العناد الذى يكاد يذهب بنفـوذه ويحط بمرتبته إذ كان تحرشـهم لعزل وتولية الولاة والخروج عند أقل سبب وتداخلهم فى أمور الدولة مجلبة للبـوار وإذهاب رونق النظام الذى أسسه السلطان سليم الفاتح لكل طائفة من الطوائف الحـاكمة بديار مـصر وقد زاد الجند جراءة وتداخـلاً تهاون رجال السلطنة وإجابتـهم إلى كل ما يطلبون وعدم الالتـفات إلى ما ينجم عن ذلك من الخلل والفساد فـبذل بيرم باشا جهده فى ترتيب الأمـور ومنع هذه المضار وإعادة نفـوذ الدولة إلى ما كـان عليه قـبلاً فلـم يفلح ولم يتم له الأمر إلا بقـدر الحاجـة فاطمـأنت مع ذلك قلوب الرعيـة وسكنت الخواطر المضطـربة بسبب الفتن المتـوالية والإحن المتراكم بعضها فوق بعض وراجت أسباب المعاملات وتحسنت التجارة ولكنه أكثر من المكوس والضـرائب على أغلب البضائع ولاسيـما الصابون فلما كـان شهر

شعبان سنة ثمان وثلاثين استدعى بيرم باشا المذكور إلى دار السلطنة فسار إليها فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر.

(مطلب)

ولاية محمد باشا الوزير

وتولى بعده محمد باشا الوزير فدخل القاهرة فى أواخر شعبان المذكور وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل وتصرف وجلس للناس على العادة فكان رجلاً حازماً مهيباً واسع الرأى نافذ الكلمة متحجباً عن الناس لا ينزل المدينة ولا يتجول فى الشوارع ولا يزور المتنزهات قيل ولم يظهر فى طرق القاهرة فى مدة تصرفه إلا ست مرات وكانت الأحوال فى أيامه هادئة والقلوب مطمئنة وظهرت فى أيامه الفتنة فى بلاد اليمن وخرج أهلها عن الطاعة. فعرض على السلطان إخضاعها وتمهيد سبلها وإرجاعها إلى طاعة الدولة فأجابه السلطان إلى ذلك وعهد إليه بالأمر فنظم جيشاً من العسكر المصرى وبالغ فى تنظيمه وعقد لواءه إلى قانصوه بيك أمير الحاج يومئذ فأعجب السلطان ذلك وولى قانصوه بيك ولاية اليمن واعطاه رتبة الباشاوية فجعل قانصوه المذكور يرتب أمور جيشه ويكثر من معدات الحرب فاجتمع تحت لوائه ثلاثون ألفا وبينهم زهاء الألف من العساكر العثمانية وقد حضروا من دار السلطنة لهذه الغزوة وأخرج قانصوه خزائنه فكانت كثيرة للغاية وبعد أن رتب أمور جيشه على ما أراد انقطع فى داره أياماً لغير سبب معلوم ولا أمر ظاهر فأركنت العساكر إلى البغى والفساد وعاثت فى الأسواق وأخذت من الباعة سلعها بغير ثمن فكان إذا مانع البائع عن ماله ضربوه وربما قتلوه وتعرضوا للنساء والصبيان فى الطرق والحارات فانكف الناس عن الخروج وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم واحتاج الناس إلى الخبز فلم يتيسر الحصول عليه لغلق الحوانيت والأفران فضج الناس إلى محمد باشا فجمع إليه كبار العسكر العثمانى وكلمهم فى أمر ذلك فكفلوا له الراحة ورد العسكر المصرى عن فعاله وألزموا قانصوه بالخروج والسفر إلى اليمن فخرج صاغراً قيل وكان امتناعه لأسباب يطول شرحها وسار بالعسكر وقاتل اليمانيين حتى أخضعهم وأرجعهم إلى الطاعة وكان خروجه فى المحرم افتتاح سنة تسع وثلاثين ولبث هناك يتصرف فى الولاية فلما كان شهر شعبان من السنة جاء الخبر إلى محمد باشا والى مصر بأن قد نزل فى الشهر المذكور بمكة سيل عظيم فأغرق معظم أرضها

وهدم جميع بنيان البيت الحرام ولم يبق منه إلا الجدار الأيمن فأبلغ محمد باشا هذا الخبر إلى دار السلطنة فعهد إليه السلطان أمر ترميمه فقام بذلك وتوسع فى النفقة فكان ما أنفق عليه مائة ألف قرش رومى.

وفى سنة أربعين وألف قصر النيل فى الزيادة وجاء شهر توت ولم يبلغ الستة عشر ذراعاً فخاف الناس من حصول القحط فاعتنى محمد باشا بأمر رى الأراضى وتقسيم المياه بقدر الاستطاعة فأمنت البلاد من الجوع وأعطت الأراضى بعض المحصول فاطمأنت القلوب ومالت إلى محمد باشا خواطر الرعية وأحبوه وتعلقت آمالهم به ولكنه لم يلبث أن جاء إليه الأمر بالقيام إلى دار السلطنة فى السنة المذكورة واعتزال المنصب فاعتزله وقام إلى الديار الرومية فى ربيع الآخر من السنة فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر.

(مطلب)

ولاية الوزير موسى باشا

وتولى بعده الوزير موسى باشا فلما وصل محمد باشا إلى القسطنطينية قوبل بأحسن قبول وولاه السلطان مسند الصدارة العظمى ودخل الوزير موسى باشا القاهرة سلخ ربيع الآخر سنة أربعين وألف فى موكب حافل وكان الناس قد خرجوا لملاقاته عند شبرا وصعد إلى قلعة الجبل فى كبكبة فلما استقر به المنصب أطاع هوى النفس فتطاولت يده إلى أخذ أموال الناس وقبول الرشاوى والبراطيل فأداه ذلك إلى الجور والظلم والعسف بالناس وترصد أحوال الأغنياء من أهل البلاد وبالغ فى التجسس عليهم وتعقب زلات الأكابر منهم وتفنن فى أفانين السلب والنهب جهد الاستطاعة واتفق أن أرسل السلطان يعهد إليه تجريد حملة من الجند المصرى وتسييرها لقتال ملك فارس فجمع جيشاً كبيراً وجعل مقدمه الأمير قيطاس ثم فرض على البلاد النفقة لهذه الحملة وبث أصحاب الجباية فطافوا البلاد شرقاً وغرباً وجمعوا من ذلك مالاً جزيلاً فلما جاءوا إليه بالمال أخذه لنفسه ولم ينفق منه شيئاً فى لوازم الحملة فطالبه قيطاس بيك فقال لا قدرة للبلاد على القيام بنفقة العسكر لاسيما وأن الحرب التى أعدت لها هذه الحملة لا تفيد مصر بشىء ما فراجعه قيطاس بيك وألح عليه فى الطلب وبالغ فى الشدة وكذلك فعل أشياع قيطاس بيك، وكان الباشا يكره قيطاس المذكور ويتمنى هلاكه فلما عظم الخلاف بينهما استدعى الباشا قيطاس يوم عيد

الأضحى العاشر من الحجة من السنة إلى قلعة الجبل فصعد إليه فى نفر قليل من غلمانه فلما دخل قبض عليه جماعة من أعوان الباشا وقتلوه بالسيوف وأنزلوا جثته فى نعش إلى بيته بالمدينة وكان ممن تأهب من الأمراء المصريين للخروج مع قيطاس بيك لقتال ملك فارس الأمير كنعان بيك والأمير على بيك فلما جاءهما الخبر بموت قيطاس قاما واجتمعا بكبار الجند وأعلما هم بخبر قيطاس فاجتمع الجند فى الحال بالرميلة تحت قلعة الجبل وحاصروها من كل جانب واجتمع العلماء والمشايخ والقضاة والصناجق وكبار الدولة بجامع السلطان حسن وتناجوا فى الأمر واتفقت كلمتهم على خلع موسى باشا المذكور وتولية من يحل محله حتى يأتى أمر السلطان فخلعوه وولوا حسن بيك مكانه وكتبوا إلى دار السلطنة بالواقعة وطلبوا صرف موسى باشا وتولية من يصلح فلم يكن بأسرع من أن ورد الخبر بعزله وتولية خليل باشا.

(مطلب)

ولاية خليل باشا

فلما كان شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين وألف وصل خليل باشا المذكور إلى القاهرة وخرج موسى باشا وهو فى أسوء حال من الخزى والعار فكانت مدة تصرفه نحو سنة إلا بضعة أيام وجعل خليل باشا يتصرف فى الأمور فكان جليل القدر عادلاً حازماً فسكنت فى أيامه الفتن وزالت عن البلاد الرزايا والإحن وأخصبت الأرض وكثرت محصولاتها فهبطت الأسعار وكثر وارد الغلال والمأكولات وفرح الناس بذلك وخرج فى أيامه الشريف نامى شريف مكه بجماعة من اللصوص فعاثوا فى الأرض ونهبوا مكة فلما جاء الخبر بذلك إلى خليل باشا جيش له جيشاً عظيماً وجعل مقدمه الأمير قاسم بيك فسيار وقاتل الشريف ومن معه فاستظهر عليه وظفر بزعماء الفتنة وأعمل فيهم السيف ثم عاد ظافراً منصوراً فدخل القاهرة فى صفر سنة اثنين وأربعين فخلع عليه خليل باشا خلعة سنية واتسعت من هذا الحين كلمة خليل باشا وظهر نبله وكبرت هيبته وأحبته الرعية. حكى ابن أبى سرور أنه جيء إلى خليل باشا المذكور يوما بثلاثة من اللصوص قبض عليهم وهم يسرقون فرسم بمحاكمتهم فقال رجل من ديوانه ليس فى الأمر ما يدعو إلى المحاكمة وقد قبض عليهم وهم يسرقون فلا شيء بعد ذلك إلا الحكيم عليهم بالقصاص فلما سمع خليل باشا مقالته نظر إلى أحد أعوانه وقال: اذهب الساعة واهدم بناء بيت هذا

وأشار إلى المتكلم فقال: ولماذا أيها الأمير؟ قال إذا كان هدم بيتك المبنى من حطام الدنيا قد دعاك إلى معارضتي فكيف يكون حالنا عند ذلك البانى العظيم إذا هدمنا ما بناه ظلماً. قال ناقل الحكاية: وأطلق اللصوص فتابوا من ذلك الوقت خوفاً من الباشا، وفى أخريات سنة اثنتين وأربعين وألف أنزل خليل باشا المذكور نفسه عن منصب الولاية وكتب إلى دار السلطنة بذلك فأرسل السلطان يستقدمه فسافر فكانت مدة تصرفه سنة وثمانية أشهر كلها خير وبركة على البلاد وأهلها.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا الجورجي

وتولى بعده أحمد باشا الجورجى فدخل القاهرة فى موكب حافل وكان قبل ولايته على ديار مصر أميرا خور للسلطان مراد فتصرف وجعل يدبر الأمور على النحو الذى نحاه خليل باشا فكان حازماً كاملاً واسع المعرفة بأساليب السياسة فلما كان شهر صفر من سنة ثلاث وأربعين جاءه مرسوم سلطانى بتجريد ألف مقاتل من العسكر المصرى ليسيروا مع العسكر المنصور إلى قتال طائفة الدروز بلبنان وأن يسير معهم أربعة آلاف قنطار من البارود وخمسة آلاف من البقسماط فجيش ذلك الجيش ولم يتم تنظيمه حتى جاءه مرسوم آخر بتجريد ألفين آخرين وثلاثة آلاف قنطار من البارود وتسييرهم لغزو ملك فارس فهاله هذا الأمر وكتب إلى دار السلطنة يقول إن البلاد فى فاقة ولا قدرة لأهلها على القيام بهذه المطالب الجسيمة فبعث إليه السلطان باثنى عشر ألف قنطار من النحاس ليضربها سكة ويبعث بدلها إلى خزينة السلطان ثلثمائة ألف محبوب ذهباً نفقة لتلك الحروب فجمع لذلك العمال وأعد المعامل ولكنه لم يفلح إذ مات أكثر العمال وعجز من بقى عن القيام بهذا العمل فجمع إليه أهل الديوان وأصحاب الشورى من الأمراء والقضاة والعلماء وشاورهم فى الأمر وقال إنه يرى وجوب صرف هذا المال من ماله رحمة بأهل البلاد وأن يجعل ذلك النحاس سبائك صغيرة ويبعث بها إلى السودان فتباع فيها وقد رأى أحد القضاة غير ذلك وأن تجبر أهالى القاهرة على أخذ النحاس ودفع مطالب السلطان ثم تقررت القاعدة بينهم على عمل تفريدة على أهالى القاهرة فأقاموا لذلك عمالاً وقيدوهم بالعمل فجعلوا يوزعون النحاس ويجمعون عوضه الذهب وبدءوا بذلك من السادس عشر من ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين إلى أواخر شعبان من سنة أربع وأربعين

فعمت هذه البلوى الغنى والفقير والتاجر والصانع بلا فرق ولا تمييز فكانت من أشد الضربات ويلاً وأثقلها حملاً فضجوا وعجوا إلى الله وقلت النقود ثم امتنعت وارتفعت أسعار المأكولات وغلت غلاء فاحشاً جداً وأعقب ذلك تقصير النيل فى وفاء أذرعه المعتادة وتشريق الكثير من الأراضى فاستغاث الناس وانكشف حال الميسورين وضاقت الدنيا برحبها فى وجوه الفقراء والمحتاجين وظهرت بعض إصابات بالطاعون بأسباب الجوع ولكنه لم ينتشر ولم تشتد وطأته، فلما أتم الجباة جمع أموال هذه التفريدة طمعت نفس أحمد باشا فأخذها لنفسه ولم يرسل منها شيئاً لخزينة السلطان فلم يمض عليه بعد ذلك إلا القليل حتى أتاه الطلب من الباب العالى فرحل عن القاهرة فى سلخ القعدة من سنة أربع وأربعين وألف فكانت مدة تصرفه نحو سنتين إلا أياماً فلما وصل القسطنطينية قام بعض أهالى القاهرة وشكوا أمره إلى الباب العالى وطالبوه بما أخذه من المال فى ضريبة النحاس فعين السلطان جماعة لتحقيق ذلك ثم أمر بقتله فقتل.

(مطلب)

ولاية الوزير حسين باشا

وتولى بعده الوزير حسين باشا فدخل القاهرة فى الثانى من الحجة سنة أربع وأربعين وألف ومعه طائفة من العسكر من دروز لبنان وهم أخلاط من الأشقياء وقطاع الطرق فلما استقرت به الولاية واستقر بهم المقام جار وجاروا وظلم وظلموا وساموا أهل البلاد الخسف وأكثروا من قتل الباعة وهدر دماء السوقة لأقل سبب وتعرضوا للسابلة وقطعوا الطرق وتطاولت أيديهم إلى نهب أموال الناس بغير ممانع واشتدت مظالم حسين باشا أيضا إلى حد لم يسبق له مثيل فكان إذا مات الرجل أرسل أتباعه وأعوانه فيحملون إليه ماله ويحجرون على عقاره فيأخذه لنفسه أيضا ويحرم ورثته وعم فعله هذا جميع المدن والبنادر وكان يكثر التطواف فى الشوارع والحارات راكبا ويقتل فى كل مرة طافها الرجل والرجلين أو أكثر بلا موجب ولا سبب وربما قتل كل ما صادفه من الدواب فى طريقه. قال بعض الكتاب: فكان من قتله في مدة تصرفه زهاء ألفى رجل وكان كثير الأخذ بالشبهات فكثر فى أيامه الوشاة وتزاحم أهل السعاية على بابه فكان إذا وقع بين رجل وآخر مخاصمة وذهب أحدهما ووشى إلى الباشا المذكور بأن خصمه من ذوى الأموال قبض عليه الباشا

وألقاه فى السجن فلا يخرج منه إلا بالبذل الكثير ومازال على هذا الحال من القتل والسلب حتى جاءه الأمر بالعزل من منصب الولاية فى سلخ القعدة سنة ست وأربعين فكانت مدّة تصرفه سنة ونحو أحد عشر شهرا.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا

وتولى بعده الوزير محمد باشا ابن أحمد باشا فدخل القاهرة فى آخر القعدة من السنة المذكورة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل من العسكر المنصور وتصرف فكان شهما مهيبا صاحب فكر وتدبير ثم لم يلبث أن تبدلت حاله وتغيرت أخلاقه وركب متن الجور فأفسد وظلم وتتبع خطوات السلف فى مصادرة الناس ومد اليد إلى تركات الأمراء والأغنياء والمستورين من أهل البلاد فأثرى وكثر ماله ومنع الصدقات والمرتبات الخيرية عن الأرامل واليتامى وأخذها لنفسه فضج الناس واستغاثوا وعجوا إلى الله تعالى وتضرعوا إليه بزوال ولايته فكان كلما طالت أيامه زاد عسفه وكثر فساده وسام الناس الخسف ، وجاءه الأمر من الباب العالى فى شوال من سنة سبع وأربعين بتجريد حملة للغزو مع العسكر المنصور ببغداد لخروج أهلها ففرح الناس بذلك وظنوا خروجه مع الحملة حسب مرسوم السلطان فلم يخرج وسلم قيادتها إلى قانصوه بك أمير الحاج فسارت فى المحرم من السنة أى سنة ثمان وأربعين وعاد من بقى منها فى صفر سنة تسع وأربعين ومحمد باشا الوالى على ما هو عليه من الجور والعسف فضج الناس ورفعوا ظلامتهم إلى دار السلطنة فلم يلتفت لشكواهم لقيام الفتنة فى دار السلطنة وخروج طوائف الانكشارية عن طاعة السلطان وقتلهم حافظ باشا الصدر الأعظم فى السراى السلطانية وإصرار كبارهم على إرجاع خسرو باشا الصدر المعزول وعدم مراعاة حرمة المراسيم السلطانية. قال بعض كتاب الأخبار: لما كانت سنة تسع وثلاثين وألف هجرية أو نحوها مات شاه عباس ملك فارس وتولى الملك بغتة ابنه شاه مرزا وكان صبيا لم يبلغ أشدّه فلما جاءت الأخبار بولايته إلى دار السلطنة تقوت عزيمة كبار العسكر المنصور وفرح خسرو باشا الصدر الأعظم بذلك وسار فى جيش عظيم إلى بلاد فارس لرد ما أخذ من بلاد الدولة ونزل على همذان ودخلها ثم سار منها قاصدا بغداد فلاقته فى الطريق عساكر فارس فقاتلهم وانتصر عليهم وساق خلفهم حتى نزل على بغداد

وحاصرها من كل جانب وشدد فى حصارها ووالى الرمى عليها بالمكاحل بالليل والنهار فلم ينل منها وطالت أيام الحصار ودخل الشتاء فتذمر الانكشارية وطلبوا رفع الحصار والعود إلى القسطنطينية فمناهم بالأمانى الكثيرة فلم يقبلوا وأبوا إلا الرحيل فسار بهم عن بغداد إلى الموصل ولبث معهم حتى انقضى الشتاء وعزم على الرجوع إلى حصار بغداد فلم تطعه العساكر فألح عليهم فأبوا إلا الرجوع إلى القسطنطينية فسار بهم إلى حلب خوفا من أن يداهمه العدوّ وهو بالموصل ولا قبل له على رده ووصلت الأخبار بما جرى إلى السلطان فاستعظم هذا الأمر جدا ورسم بخلع خسرو باشا من منصب الصدارة وسير إليه الفرمان بذلك وأعاد حافظ باشا ثانية إلى منصبه فكبر الأمر على خسرو باشا ودس إلى طوائف الانكشارية من يعلمهم أن خلعه من منصبه إنما كان للذب عنهم والعمل برأيهم فهاجوا عند ذلك وساروا إلى دار السلطنة وأشعلوا نار الفتنة ودخلت طائفة منهم إلى السراى السلطانية وقبضوا على حافظ باشا الصدر وقتلوه فى الثامن والعشرين من رجب سنة إحدى وأربعين وألف ولم يراعوا للسلطان حرمة ولا حفظوا له عهدا ولاذمة فكبر الأمر جدا على السلطان وسير إلى خسرو باشا جماعة فقتلوه وولى الصدارة محمد باشا بيرم وتجرد السلطان من هذا الحين إلى إخضاع الانكشارية وإذلال كبارهم فأعمل فيهم القتل لأقل سبب ورسم بمنع الناس كافة من شرب القهوة والدخان فكان يخرج فى كل ليلة متنكرا ويمشى فى أسواق القسطنطينية بدعوى تأديب المولعين بشرب القهوة والدخان ومعه جماعة من أعوانه وهو إنما يخرج لإتلاف الأشرار وقطع شأفة أهل الفساد من الانكشارية وغيرهم فخافوا وانكمشوا وامتلأت قلوبهم رعبا منه وخشيه الكبير والصغير فمهدت الطرق وزال البأس عن الناس وأمنوا على أموالهم وأعراضهم ولبثوا على الطاعة والانكماش إلى سنة إحدى وأربعين وألف هجرية فهبوا إلى الحركة وتجردوا إلى الثورة ومقدمهم يومئذ رجل اسمه رجب باشا فعاجلهم السلطان وقبض على رجب باشا المذكور وأمر به فذبحوه وألقوا جثته من شباك السراى السلطانية بين جمهور الانكشارية فكبر عند ذلك خوفهم وتفرق جمعهم وعادوا إلى السكينة وملازمة الحدود وزالت من هذا الحين سطوتهم وانحطت شهرتهم وتفرقت كلمتهم وكفى الله الناس شرهم، ولما دانت للسلطان الأمور وزالت عن مقر سلطنته المخاوف بقطع شأفة أهل الفساد سار فى جيش عظيم لغزو بلاد فارس فحارب ملكهم واسترجع كثيراً من القلاع والحصون التى أخذها ملك فارس على عهد الفتن

المتتابعة ونال أيضا من بلاد فارس ففتح بغداد واريوان فسير إليه ملك فارس من يخابره فى الصلح وطال الكلام فى أمر ذلك ثم تقررت القاعدة بين الفريقين على بقاء دار السلام فى حوزة السلطان ورد اريوان إلى مملكة فارس وتم الصلح على ذلك وعاد السلطان ظافر منصورا، ثم مرض بعيد ذلك وطال مرضه فلما كان تاسع عشر شوال سنة تسع وأربعين وألف هجرية مات من غير عقب ولم يتجاوز التاسعة والعشرين من العمر فبكاه أهل الفضل من الناس وتولى السلطنة بعده أخوه السلطان إبراهيم الأول فكانت سلطنة المتوفى ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا وخمسة أيام رحمه الله تعالى .



(الفصل الحادى عشر)

(فى سلطنة السلطان إبراهيم خان الأول)

ثم قام بالأمر بعد السلطان مراد أخوه السلطان إبراهيم الأول ابن السلطان أحمد بويع بالملك فى عاشر شوال سنة تسع وأربعين وألف هجرية أى سنة أربعين وستمائة وألف ميلادية. قال بعض الكتاب: ووافق تاريخ توليته (٩٨١ ٦٨ سنة ١٠٤٩) استعنت بالله ولما كان مشابها فى أحواله وأطواره لعمه السلطان مصطفى تولى أمور السلطنة الأغرار وقرناء السوء فاختلت أحوال المملكة وعادت إلى ما كانت عليه من الفساد وهبت طوائف الانكشارية من رقدة الخمول والانكماش إلى الظهور فعاثوا على عادتهم وطلبوا المطالب الطويلة العريضة فمناهم وأجزل عطاءهم وفتح أمامهم أبواب الحرب ليشغلهم عن العبث بأمور الدولة ومصالح السلطنة فسير طائفة منهم لاسترجاع مدينة أزاق من بلاد القرم التى أخذها القوزاقيون فقاتلوا وأبلوا بلاء حسنا حتى استردوها ثم سير طائفة أخرى لغزو جزيرة كريد إحدى الجزر التابعة يومئذ إلى جمهورية البندقانية وسير لذلك سفنا حربية ومقدمها يوسف باشا ففتحوا الجزيرة المذكورة بعد قتال خفيف فسيرت جمهورية البنادقة سفن حربها إلى بتراس وكورون وورون من ثغور كريد فأحرقتها تشفيا وانتقاما نظير فتح جزيرة كريد فكبر هذا الأمر على السلطان وهمّ بقتل جميع النصارى الذين فى بلاد الدولة فمنعه من ذلك على ما قيل أسعد زاده أبو سعيد مفتى دار السلطنة وهوّن عليه الأمر فأطاعه

وبذل السلطان جهد الاستطاعة فى إصلاح ما اختل من أحوال المملكة الداخلية، وقد وصل إلى مسامعه خبر ما يلاقيه أهل مصر من جور محمد باشا واليها وظلمه فأمر بعزله وورد الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح الناس به فرحا لا يوصف وتأهب محمد باشا للرحيل إلى الديار الرومية وأخذ فى جمع أمواله ومتاعه فكان شيئا كثيرا للغاية وتباطأ فى السفر والخروج من مصر أياما كانت على أهل البلاد كأنها أعوام ثم نزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت أحد الأمراء أياما أخرى جاءه الأمر فيها ثانيا من دار السلطنة ببقائه فى منصب الولاية فلما شاع الخبر بذلك حزن الناس حزنا ما عليه من مزيد فصعد إلى قلعة الجبل وعاد إلى التصرف فى الأمور فضاعف الجور وبالغ فى الظلم واشتد على الرعية وأكثر من مصادرة الناس على اختلافهم وفتك وقتل وأراق الدماء ظلما ومازال على هذا الحال من الجور والعسف حتى قدّر الله سبحانه وتعالى بخلعه فجاءه الأمر بذلك فى سلخ جمادى الآخرة سنة خمسين وألف فكانت مدة ولايته ثلاث سنين ونحو ستة أشهر.

(مطلب)

ولاية مصطفى باشا البستانجي

وتولى بعده مصطفى باشا البستانجى فدخل القاهرة فى غرة الحجة سنة خمسين فى موكب حافل وتصرف فكان عاقلا أبيّ النفس قنوعا لا يتطلع إلى ما بأيدى الرعية وكان له ديوانيّ اسمه أحمد افندى وهو جاف خشن الطباع ظلوم فخور مختال وكان بيده مقاليد الأمور فاستبد وجار وظلم وأعاد أيام أحمد باشا من الأخذ بالشبهات ومصادرة الأغنياء والعظماء وأخذ أموال الصدقات والخيرات فشكا الناس أمره إلى مصطفى باشا المشار إليه فلم يفلحوا لتحجبه عن الناس وترك الأمور إلى ديوانيه المذكور يتصرف فيها كما يشاء فاضطربت لذلك الأحوال غاية الاضطراب واختل النظام وفشا الخصام وظهر أهل الفساد واللصوص وقطاع الطرق وكثرت السرقات فى حارات القاهرة وبيوت مصر القديمة وما جاورها من القرى وقصر النيل فى الزيادة فغلت الأسعار وقل وارد الحبوب واشتد البلاء على الناس فكانوا بين قرمين عنيدين الغلاء واللصوص وكان إذا أتى إلى والى القاهرة بلص أو بجماعة منهم أطلق سبيلهم وكذلك كانت تفعل كشاف البلاد والأقاليم فلما اشتد الحال بالناس اجتمعوا زمرا تحت قلعة الجبل وصاحوا على الباشا وشكوا من أفعال والى

القاهرة وكشاف الأقاليم وضجوا ونادوا ما يحل من الله ياباشا اتق الله فى خلقه فاضطرب الباشا وخشى العاقبة وخلع فى الحال والى القاهرة وولى بدله كنعان بك ورسم بالقبض على كل من تقع عليه شبهة فقبض على كثير حتى ملئوا السجون فاطمأنت القلوب وسكنت الخواطر وظنوا بقاء الحال على ذلك، فلما كان شهر شوال سنة إحدى وخمسين ثار جند وجاق الجاويشية على كبارهم واشتدوا على أميرهم على بك وقالو بأنه لم يفرق عليهم شيئا من أموال العطايا وأن الكتاب هم الذين يأخذون هذه العطايا وطلبوا من الباشا خلعه فسايرهم وطاولهم فلم يرتجعوا وشددوا فى طلب عزله فعزله وأقام مكانه عابدين بك، فلما رأى جماعة العسكر ما كان من فوز إخوانهم الجاويشية ثاروا هم كذلك وشكوا من فراغ مخازن ذخرتهم وطالبوا بمعاشاتهم المتأخرة واتهموا أحمد افندى ديوانى الباشا السابق الكلام عنه ببيع ما فى تلك المخازن وأخذ أثمانها فعين لتحقيق ذلك قاضى قضاة المحروسة فبحث عما فى الأشوان والحواصل فلم ير فيها شيئا وثبت أن الكاتب المذكور باع ما كان فيها وأخذ الثمن لنفسه فخلعه الباشا تسكينا للفتنة واسترضاء لخواطر الجند فاستنجد الكاتب المذكور بجماعة الجاويشية فأنجدوه وأرجعوه إلى منصبه قهرا فزاد عسفه وتضاعف جوره وظلمه وبالغ فى إيذائه ومازال والناس فى شدة وضيق حتى صرف مصطفى باشا عن الولاية فى جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين.

(مطلب)

ولاية مقصود باشا

وتولى بعده مقصود باشا فدخل القاهرة فى رجب من السنة فكانت مدة تصرف مصطفى باشا المذكور سنة وثمانية أشهر ولما استقرت بمقصود باشا الولاية جعل ينظر فيما وقع من مصطفى باشا وعوّقه عن السفر من مصر وقبض على كاتبه أحمد افندى وعلى الكيخيا وجلدهما جلدا مبرحا وأخذ منهما مائتى كيس نقرة من أموال الخزينة السلطانية وقد كانا أخذاها لأنفسهما غيلة ثم بعث مصطفى باشا المذكور إلى دار السلطنة تحرسه طائفة من الجند فلما وصل إليها أخذ منه مائة كيس للخزينة السلطانية ثم أخلى سبيله ولبث حينا متحجبا عن الناس ثم أدخل فى خدمة الدولة ومازال حتى بلغ مسند الصدارة العظمى ودبر مقصود باشا أمور البلاد أحسن تدبير فأبطل كثيرا من المكوس والمغارم وأزال بعض الضرائب وأعاد حقوق الوراثة لأهلها

وضرب على الورثة ضريبة يدفعونها للخزينة السلطانية فقط ثم جعل يتعقب اللصوص وقطاع الطرق فقبض على كل من نالته شبهة منهم وسجن وغرّق وقتل فخافوا واختفى خبرهم وارتاحت الأفكار من شرورهم، وبينما كانت القلوب هادئة والخواطر مطمئنة إذ ظهر الطاعون واشتد وعم القاهرة ومصر القديمة وضواحيهما ثم تفشى فى جميع المدن والقرى وعم وكثر الموات وكان ظهوره أولا من ناحية بولاق القاهرة فى أوائل شعبان من سنة اثنتين وخمسين وألف ومازال على هذا الحال من الاشتداد والانتشار من ابتداء ذى القعدة من السنة إلى غاية صفر سنة ثلاث وخمسين وألف ثم بدأ بالتناقص إلى آخر شهر ربيع الأول ولم يسمع بمثل هذا الطاعون فى الفتك والشدة فكانت تنقل الجثث عشرات عشرات والجنازات تسعى خلف بعضها حتى أبطلت الصلاة على الأموات لكثرتهم وفتك بالقرى كذلك فتكا ذريعا جدا. حكى أن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خرابا ليس فيها ديار ولا نفاخ نار وكانوا يجدون الأموات فى الطرق وعلى جوانب الجدران والكلاب تحوم حولها ومازال على شدته حتى ارتفع وزال .

وبعد انتهاء الطاعون بقليل من الزمان ظهرت فى العشرين من القعدة فتنة بمدينة الإسكندرية والسبب فى ذلك أن ستمائة من الروم المسيحيين كانوا مقيدين بسجن الاسكندرية وقاسوا من العذاب أمرّه فأتت بعد حين لخلاصهم سفينة وجاءت إليهم أخبار قدومها فقاموا وكسروا أبواب السجن فى اليوم المذكور والمسلمون فى صلاة الجمعة وطافوا فى شوارع المدينة وجعلوا ينهبون البيوت والحوانيت ومخازن الأرزاق وعاثوا وأفسدوا فلم يبقوا ولم يذروا ثم نزلوا بتلك السفينة وأقلعوا من فورهم ونجوا بما كسبوا ولم يظفروا بأحد منهم، وضيق مقصود باشا على الصناجق وطالبهم بثلث الأموال المرتبة على الإقطاعات التى بأيديهم لصرف علائف الجند ورواتب العسكر المنصور فأغضب ذلك الجماعة الصناجق ولم يقبلوا فرأوا منه قرما عنيدا فاجتمعوا فى بيت الأمير رضوان أبى شنب فى يوم الجمعة ثانى عشر رمضان سنة أربع وخمسين وتحالفوا على خلعه إن هو شدد فى الطلب فطولبوا فرفضوا وطلبوا عزل كبار مشورة الباشا فأجابهم إلى ذلك وطالبهم فأبوا وكتبوا إلى الباب العالى يشكون من تصرف مقصود باشا فورد إليه مرسوم السلطان بالاستعلام عن السبب الموجب لتلك الشكوى، فأجاب بما دفع عنه الريبة وأفحم أصحاب الخصومة وقد علم أن زعماء هذه الفتنة الأمير على بك والأمير ماماى بك وشعبان الدفتردار

فعزم على الفتك بهم ورتب لذلك كمينا وأقام لهم رصدا ليقتلهم فى الديوان إذا نزلوا إليه فى يوم الاثنين الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة أربع وخمسين فلم ينزل من الديوان من ذلك اليوم إلا الدفتردار فقط فأمسك عن قتله وأبقى العمل إلى يوم آخر فلما كان يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من ذى الحجة من السنة المذكورة جاءه الأمر السلطانى بالخلع واعتزال المنصب وتوليه شعبان بك الدفتردار النيابة حتى يأتى الوالى الجديد، قيل فشق هذا الأمر على مقصود باشا واستعظمه جدا وسلم الأمر إلى الدفتردار صاغرا ثم جاء الخبر من الباب العالى بتولية أيوب باشا فلبثوا ينتظرونه وهم فى خوف حتى انصرف مقصود باشا عن الولاية فكانت مدة تصرفه سنة ونحو سبعة أشهر.

(مطلب)

ولاية أيوب باشا

وقدم أيوب باشا إلى مصر ودخل القاهرة فى موكب حافل قيل ولم يقبل هذا المنصب إلا بعد إقدام وإحجام لما يعلمه من اختلال الأمور واستفحال أمر الجند واتساع سلطتهم وصعد القلعة فى العاشر من صفر سنة خمس وخمسين وألف وأخذ فى تدبير الأمور وترتيبها على الوجه الأتم فأحكم نظامها وقطع دابر اللصوص واقتفى أثر من فر منهم وأعمل فيهم القتل والشنق والتغريق وأخذ على الصغائر فخافه أهل الفساد وانكمش أصحاب الغابات واستتب الأمن وزال الخوف وسادت الراحة واطمأنت قلوب الناس ولازم كل حده ففرحت بأيامه الرعية ولبث يتصرف سنتين ثم كتب يستأذن السلطان فى الانصراف عن منصبه فأذن له فسافر فى سلخ رجب سنة سبع وخمسين وألف فكانت مدّة تصرفه سنتين ونحو ستة أشهر وخرج فى موكب حافل جدا والناس فى حزن عليه.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا ابن حيدر

فتولى بعده الوزير محمد باشا ابن حيدر فلما وصل أيوب باشا إلى دار السلطنة رقى إلى مسند الصدارة العظمى فأحسن التصرف والتزم الحزامة وحسن التدبير ثم

نزل وترك المنصب وعكف على العبادة وتنازل عن جميع أمـواله ومقتنياته إلى خزينة السلطان وتزيا بزى الدراويش وانفرد فى جـامع من جوامع الروم إيلى، وتصرف ابن حيدر المذكور فى ولاية مصر فأساء التصرف وعكـس التدبير وأفسد ما نظمه مقصود باشا فكانت أيامـه كلها خروج وطغيان واشـتد حوله الجند واستفـحل أمرهم فكانوا يثورون عند أقل حادثة أو لأصـغر سبب وقامت منهم طائفة الانكشـارية فى العاشر من رجب سنة سبع وخمسين وألف بمصر القديمة فـعاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيـه فركب عليهم والى القـاهرة وتهددهم إن هم بقـوا على هذا الحال فضـجوا فى وجهـه وساروا إلى ما تحت قلعـة الجبل ونادوا بقتل الوالى المذكـور وكان الوالى من وجاق الجاويشيـة فجاءهم الخبر بعزم البـاشا على قتل الوالى انتصارا للعامـة فركبوا جميعا ونادوا على البـاشا بالويل والثبور فخشى الباشا العاقبـة فدعا إليه قانصوه بك وشاوره فى الأمـر وكان قـانصوه ناقمـا على الأميـر رضوان بك والأميـر علىّ بك فأشار إليـه أن يكتب إلى دار السلطنة بما جرى ويسند حدوث جـميع هذه الفتن إلى الأميرين المذكـورين ويقول إنهما قد أخـذا أيضا مال الخزينة واختلسـا المناصب بغير استـحقاق وكان قـصد قانصوه بذلك رجـوعه هو ومامای إلى منصب إمـارة الحاج وولاية جرجا فجنح الباشا إلى مشورته وطلـب بعض الأعيان للتوقيع على محضر بذلك فاتصل الخبـر برضوان بك فبادر هو بالكتابة يشكو البـاشا إلى الباب وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى فورد الجـواب من الباب بتفـويض رضوان بك وعلى بك فى تحقيق جميع ما أسند فعله إلى الباشا وقانصوه بك وورد إلى الباشا فرمان بذلك فى الحـادى والعشـرين من جـمـادى الأولى سنة سـبع وخمـسـين وألف وفى السـابع والعشرين منه استدعاهما الباشا إلى الديوان الخـاص بقلعة الجبل فصعدا إليه وعقدا مجلسا وتجادلا مع من حـضر من الأمراء والعلماء ثم تقرر قتل قـانصوه بك ومامای بك ومن كان على دعوتهما فقتلا وقتل معهما عدة من الأمراء ثم قام بعد ذلك على بك إلى مـقر وظيفـته بجـرجا وسكنت الفـتنة وزالت بعض القلاقل وتسـابق بعض الأمـراء إلى أخذ منصب قـانصوه بك وكـان ممن تقـدم إلى ذلك وبذل الجهـد فى الحصول عليه مصطفى كتخدا الملقب بالششير فلم يفلح وخاب سعيا فتجرد للعصيان وشق عصا الطاعة وكـادت تستفحل فتنته لولا ماعـاناه رضوان بك من إيقاف تيارها بحسن تدبيره، واستدعى الباشا الأميـر رضوان بك إلى وليمة كان أعدها عنده بقلعة الجبل فخاف رضوان بك على نفسه وأبى الحضـور فغضب الباشا ورسم بتجريده من

إمارة الحــاج وكأنه كان ينـوى له ذلك فقام رضـوان بك من القاهرة فى نحــو مائتى رجل وكثير من الأمـراء والكشاف ولحق بالأمير على بك بجرجا فجهـز الباشا ألفين من الجنود ونحو خمسمائة من الانكشارية وأمرهم فاجتمعوا بالرميلة تحت قلعة الجبل وتأهبوا للسفر ثم عدلوا واتفقوا على نبـذ طاعة الباشا إن هو أصر على قتال رضوان بك وعلى بك فخاف الباشا وتحير فى أمره ولبثت العسـاكر أياما بغير حركة فورد فى هذه الأثناء فرمان السلطان بإبقاء رضوان بك وعلى بك فى منصبـيهما فخاب الباشا سعيا وأرسل يستقدمهما إلى القاهرة فقدما فى التاسع عشر من رمضان من السنة أى سنة سبع وخمسين وسعى فى مصالحتهما مع مصطفى كتخدا وأعقب رجوع رضوان بك وعلى بك إلى القاهرة الإشـاعة بخلع الباشا وتوليـة آخر اسمه مـصطفى باشا فلهج الناس بهذا الخبر وعم واتصل بالباشا فأخذ يتأهب للسفر وجمع أمواله وأمتعته ولم يبق إلا أن ينزل من قلعة الجبل فلما كان السادس والعشرون من رمضان المذكور ورد فرمان السلطان بتثـبيته فى منصب الولاية فعاد وتصـرف فى الأمور على ما كان عليه، وفى غاية شـهر رجب سنة ثمان وخمسين وألف وردت الأخـبار إلى القاهرة بخلع السلطان إبراهيم ابن السلـطان أحمد وتوليـة ابنه السلطان محـمد بدله فـسار المنادى بذلك فى شوارع القاهرة ومصر القديمـة وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، قال أصحاب التـاريخ: ولما كثر عبث طوائف الانكشـارية وزاد تمردهم وعمت شرورهم كبر أمرهم على السلطان إبراهيم وعمد إلى الفـتك بكبارهم وأصحاب الكلمة فيهم وأخذ يدبر الحـيلة فى ذلك فأسر إلى بعض خواصـه أن يقتلوهم إذا حضروا ولـيمة زفاف إحـدى بناته على ابن الصدر الأعظم فـتأهبـوا لذلك واستعـدوا فأحس كـبار الانكشارية بما فى عـزم السلطان فخافوا عـاقبة السكوت وتجردوا لخلعـه وساروا إلى مسجـد أورطـة جامع ونادوا بخلع بيعتـه فوافقهم على ذلك بعض العلمـاء والمفتى عبد الرحيم وشاع الخبر بذلك فهاج الانكشارية وطوائف السپاه ونادوا جميعا بخليعه وولاية ابنه مـحمد بدله وهو لم يبـلغ يومئذ إلا السـابعة فـخلعوه فى ثامن عـشرى رجب سنة ثلاث وخمـسين وألف هجـرية وحجروا عليـه فى مقره فـاضطربت عند ذلك الأحوال واختل النظام وزاد عسف الانكشارية وبقى الحال على ذلك عشرة أيام فعادت طوائف السباه وطلبت إرجاع السلطان إبراهيم إلى منصب السلطنة وألحت فى ذلك وتجردت لإرجاعـه فخشى زعماء الثـورة عاقبة ذلك وعمـدوا إلى قتل السلطان إبراهيم فساروا إلى مقره ومعهم الجلاد ودخلوا عليـه وقتلوه خنقا فمات شهيدا وكان مدة تصرفه نحو ثمان سنين وتسعة أشهر.

ومات فى أيامه يوحنا بطرك المتأصليـن بعد أن أقام أربعين سنة وفى أيام يوحنا المشار إليه كان من حوادث الطاعون والغلاء وتوالى الإحن ومصاردة الناس فى أموالهم وتطاول أيدى العساكر والأجناد وانتشار أصحاب السعاية والوشاة والأخذ بالشبهات وغير ذلك من فرض الفرض والمغارم والمكوس ما مر بيانه فى محله فأقيم بعده غبريال وهو خامس تسعيهم واسمه روفائيل من رهبان دير السريان ومولده فى منشاة المحرق وكان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.



(الفصل الثانى عشر)

(فى سلطنة السلطان محمد الرابع ابن السلطان إبراهيم)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان إبراهيم وقتله ابنه السلطان محمد الرابع بويع بالملك فى العشرين من رجب سنة ثمان وخمسين وألف هجرية أى سنة ثمان وأربعين وستمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبع سنين فكانت سلطنته بالاسم فقط والتصرف للوزراء وكبار الانكشارية فصارت لذلك أحوال المملكة فى انحلال وأمورها فى اختلال ونظامها فى زوال لعدم وقوف طوائف العسكر عند حد وتداخلهم فى جميع أمور الدولة وعزلهم للولاة والحكام عند أقل سبب وتطاول أيديهم إلى أموال الناس وإراقة الدماء ظلما فكان إذا عمد صدر من الصدور إلى إصلاح الأمور وإرجاع الأحوال إلى سابق مجراها قاموا عليه وخلعوه وربما قتلوه وطافوا بجثته فى الشوارع والطرقات فلم يجسر قط أحد على فعل ما لا يرضونه وقد أخلدوا إلى الترف وكرهوا الحروب فكانوا إذا ساروا إلى غزوة تثاقلوا وركبوا متن هواهم ولم يسمعوا لكبارهم كلمة فيستخف بهم العدو ويتم له النصر عليهم. قال أصحاب التاريخ: وقد سرى هذا الداء أيضا إلى الجنود البحرية فتولى عليهم الخمول ولازمهم الفشل فآنست جمهورية البندقية منهم ذلك وسيرت مراكبها لقتالهم عند مدخل الدردانيل فانتصرت عليهم نصرة عظيمة واحتلت مدينة تيننداوس وجزيرة لمنوس وغيرهما وقطعت الطريق على السفن الحاملة للغلال والمؤنة فلم تتمكن من الوصول إلى القسطنطينية فارتفعت لذلك الأسعار ووقع الغلاء وعز وجود الخبز واشتد الحال بالفقراء وطالت أيام هذه الشدة إلى سنة ست وستين وألف هجرية وقد

تولى الصدارة محمد باشا الكوبريلى وفوض إليه تدبير جميع الأمور وكان شيخا قوى العزم ثابت الجأش حسن التدبير عظيم السياسة خبير بأحوال المملكة فأخذ بزمام جميع الأمور وأتى أوجه الإصلاح من أبوابها واشتد على طوائف الانكشارية شدة عظيمة للغاية فقتل منهم وغرق وشرد وسام كبارهم الخسف فثاروا فاشتد عليهم وضيق فخافوا وانكمشوا ولازموا الطاعة وسير سفن الحرب لاسترجاع ما أخذته مراكب جمهورية البندقية من الجزائر والثغور العثمانية وفتح طريق القسطنطينية فلاقتها سفن البندقية واقتتلوا فكانت الحرب بينهم سجالا ثم انتصرت سفن الدولة واستردت ما أخذ من الجزائر والثغور ومازال يقاوم أعداء الدولة فى الداخل والخارج ويأتى على أوجه الإصلاح من أبوابها حتى مرض واشتد به مرضه فسأله السلطان عمن يتولى المنصب بعده فقال ولدى وعليه فى إتمام ما لم أتمه معتمدى، ومات فى سنة اثنتين وسبعين وألف هجرية فتولى الصدارة بعده ولده أحمد باشا فكان كأبيه فى الحزم وأصالة الرأى وحسن السياسة والتدبير فخافه طوائف الانكشارية وتجرد لمحاربة أعداء الدولة ففاز وظفر ونهى وأمر وغلب وقهر وفتح القلاع والحصون ودوخ المدن والأمصار وأتم الإصلاحات التى كان بدأ بها أبوه فأعاد للدولة مجدها القديم.

(مطلب)

ولاية الوزير أحمد باشا

وكان لما تولى السلطان محمد الملك وبلغ مسامعه خبر الخلاف الواقع ما بين محمد باشا والى الديار المصرية ورضوان بيك وعلى بيك مقدمى الأمراء المصريين رسم بخلع محمد باشا المذكور فجاءه الفرمان بالعزل فى أواخر رمضان سنة ثمان وخمسين وألف، وتولى مكانه الوزير أحمد باشا فسافر محمد باشا المعزول فى العشر الأولى من شوال فكانت مدة تصرفه سنة ونحو ثلاثة أشهر ودخل أحمد باشا القاهرة فى غاية شوال وصعد إلى قلعة الجبل وتصرف فكان سيىء التدبير ضعيف الرأى مشئوم الطالع على البلاد فإنه منذ قبض على زمام الأحكام ظهرت الفتن وبدأت القلاقل ودرج أهل الفساد وقصر النيل عن زيادته المعتادة فلم يبلغ فى سنة ستين وألف زيادة عن الستة عشر ذراعا فشرقت الأراضى فى الأقاليم القبلية جميعها وبعض أراضى الأقاليم البحرية وغلت الأسعار وعزت الأقوات وانقطع واردها إلا القليل جدا وتجرد أحمد باشا من ذلك الوقت إلى تجديد المغارم وفرض

الفرض وإحداث المكوس وتتبع أهل اليسار وعادى جميع الأمراء وخص بالمكيدة رضوان بيك أمير الحاج وكاتب دار السلطنة فى شأنه وطلب عزله من منصب إمارة الحاج وتولية على بيك بدله ليوقع النفرة بينهما فلم يفلح إذ كان رضوان بيك وعلى بيك على غاية المودة والإخاء.

(مطلب)

ولاية عزل أحمد باشا وولاية الوزير عبد الرحمن باشا

فلما كان يوم السبت السادس من صفر سنة إحدى وستين وألف جاء فرمان السلطان إلى أحمد باشا المذكور بالعزل وولاية الوزير عبدالرحمن باشا فدخل عبدالرحمن باشا القاهرة فى سلخ صفر وصعد إلى قلعة الجبل وقبض ومن ساعته على أحمد باشا وسجنه فى بيت وحاسبه على ما فى ذمته من أموال الخزينة فكانت شيئا كثيرا ولم يفرج عنه إلا بعد أن دفعها وسافر إلى الديار الرومية فكانت ولايته نحو سنتين.

(مطلب)

ولاية الوزير محمد باشا

وتصرف عبدالرحمن باشا المذكور فأساء السلوك وحذا حذو السلف فأكثر من جمع الأموال السحت وزاد فى التعرض لأموال الناس وأكثر من الفرض والعوائد والمغارم وتطاولت يديه إلى مال الخزينة السلطانية ولم يقف عند حد فجار وظلم ومازال إلى غرة شوال سنة اثنتين وستين وألف فخلع من منصبه، وأتى مكانه الوزير محمد باشا ولم يدخل القاهرة فى موكبه إلا فى ثامن المحرم افتتاح سنة ثلاث وستين وألف وصعد إلى قلعة الجبل وقبض على عبدالرحمن باشا الوالى المعزول وسجنه ثم حاسبه على ما كان فى ذمته من مال الخزينة السلطانية ولم يفرج عنه من السجن إلا بعد أن أدى ما عليه صاغرا.

وتصرف محمد باشا المذكور فكان حازما عاقلا مدبرا واسع الكلمة مهيبا فخافه الجند وخشوا بأسه فتجرد إلى إصلاح ما أفسدوه ورتب أمور البلاد على أحسن ترتيب فأمن الطرق وقطع دابر اللصوص وأهل الفساد فسكنت فى أيامه القلاقل

واطمأنت قلوب الرعية ودرت الأرزاق وكثرت الأقوات وزال الغلاء وانقطعت أسبابه ومازالت أيامه زاهيــة زاهرة حتى جاءه فرمــان السلطان بالخلع سلخ المحرم سنة ست وستين وألف هجرية فـأسف الناس على فراقه أسفا ما عليه من مـزيد وخرج جميع الأمراء والكبراء والعلماء والأعيان في ركابه مودعين.

(مطلب)

ولاية غازي باشا وعزله وولاية عمر باشا

وتولى بعده غازى باشا فأقام بضعة أشـهر وجاءه الأمر بالعزل فسار إلى الديار الروميــة وتولى بعده عــمر باشــا فى أواخر سنة سبــع وستين وألف هجـرية فطالت أيامه، ولما كانت سنة إحـدى وسبعين وألف قامت الفتنة بين العـساكر المصرية على اختلاف طبقاتها واشتدت نارها وعلا لهيبها فى القاهرة ومصر القديمة ثم امتدت إلى الأقاليم القبليــة وعظم أمرها فتطاولت أيدى الجند والغوغـاء معا إلى السلب والنهب وهتك الحرمـات وظهر العـربان فتـخطفت كل من خرج من مـصر فرارا من الـفتنة فكانت شدة عظيمة للغاية مات فيــها الجم الغفير من الناس وجرى الدم فى الشوارع والحارات ومات الكثيـر من الأمراء الفقارية وغيرهم وطالت أيام الفـتنة ثم انحسمت أسبـابها ولبث عـمر باشـا الوالى المذكور يتـصرف إلى سنة سـبع وسبعـين وألف هجرية، **قلت**: فإن صح ذلك كانت ولايته زهاء عشر سنين وهذا بعيد فى جانب ما تعوده رجال السلطنة من كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر لاسيما وقد كانت أيام عمر باشا المذكور مفعمة بالفتن والكوارث والمحن وخروج الجند بعضهم على بعض فكان لابد لتسكين الفتنة ومنع حدوث مثل هذه القلاقل من تغيير وتبديل فى الولاة.

(مطلب)

ولاية أحمد باشـا أو وهـه إبراهيم باشـا وعزلـه وولاية حسين باشـا

ثم عزل عمر باشا المذكور وتولى بعـده أحمد باشا وقيل إبراهيم باشا وذلك فى أواخر سنة سبع وسبعين فأقام سنة وعزل فى أواخر سنة ثمان وسبعين وألف هجرية وفى رواية أنه أقام يتصرف إلى سنة خمس وثمانين وألف هجرية فكانت مدة تصرفه زهاء تسع سنين، وتولى بعـده حسـين باشا وجـاء الخبـر بوصوله إلى بولاق مـصر

فخرج الناس للقائه وركب في موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل ومعه كثير من الخدم والحشم فأخذ يتصرف مع الحكمة والعقل وكان محبا للرعية غير متحجب كان يجلس للناس فترفع له القصص فيأمر وينهى مع الرفق واللين وجاءه فرمان السلطان بطلب ثلثمائة كيس قروش كلاب على حساب القرش الكلب ثلاثون نصف فضة. قال بعض الكتاب: وكانت قيمة القرش الكلب إلى ذلك الوقت أربعين نصف فضة، وكانت قيمة الريال اثنين وأربعين، والشريف البندقى خمسة وتسعين نصف فضة، والشريف المحمدى خمسة وثمانين.

(مطلب)

ولاية حسن باشا جانبلاط

ولبث حسن باشا يتصرف حتى جاءه الأمر بالعزل فى المحرم افتتاح سنة سبع وثمانين وألف هجرية وتولية حسن باشا الجانبلاط فكانت مدة تصرف حسين باشا سنة وبضعة أشهر ودخل حسن باشا الجانبلاط القاهرة فى منتصف المحرم فخرج للقائه العلماء والمشايخ والأمراء وكبار الجند وأصحاب العكاكيز فصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد وأطلقت لقدومه البشائر فأخذ يتصرف فى الأمور فكان مشئوم الطالع وقع فى أيامه غلاء عظيم وانقطع الوارد من المأكول وعز وارتفعت الأسعار جدا فبيع الأردب القمح بمائة وثمانين ونصف فضة والأردب الشعير بمائة وثلاثين وكذلك الفول والتبن كل حمل بمائة وخمسين نصفا فضة واشتد الحال على الفقراء حتى أكلوا الميتة وجذور الأشجار وطافوا فى الشوارع يتخطفون الخبز من الأفران ويرجمون بيوت الأمراء بالأحجار ويصيحون ويضجون. قال بعض أصحاب التاريخ: ومع هذا فقد كان النيل فى غاية الكمال.

(مطلب)

ولاية عثمان باشا

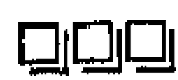
وأقام حسن باشا يتصرف إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى المحرم سنة إحدى وتسعين وألف هجرية وتولية عثمان باشا فكانت مدة تصرفه أربع سنين، ودخل عثمان باشا القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور فكان عادلا

كاملا حسن السيرة قنوعا غير محب لأخذ ما بأيدى الناس وزاد النيل فى أيامه زيادة عظيمة فعم جميع الأراضى القبلية والبحرية ورواها وأخصبها فأثمرت وأنتجت غلاتها فنزلت الأسعار وكثر الوارد وامتلأت العرصات بالقمح والفول والشعير والعدس والأرز وكثر الخبز بالأفران والدكاكين وشبع الفقراء ووجه غايته إلى ضبط المقاييس والمكاييل وتحرير عيار النقود على اختلافها فلم يتم ذلك حتى جاء الأمر من دار السلطنة بأن يكون وزن الالف نصف فضة مائتين وثلاثين درهما وكل مائة درهم فضة يدخله خمسة وعشرون درهما من النحاس ونودى بذلك فى القاهرة ومصر القديمة فتكدر الناس من ذلك جدا وخصوصا السوقة وأصحاب التجارة وراجعوا الباشا فى ذلك فرفع الأمر إلى دار السلطنة وبالغ فى شكوى الناس من ذلك فلم يلتفت إليه وجاءه الأمر بالتعجيل ففعل.

وكانت إلى هذا الحين لم تبطل الحرب القائمة ما بين الدولة وخصومها ولم يتم جميع الإصلاحات التى بدأ بها كوبريلى أحمد باشا بعد توليته الصدارة العظمى إنجازا لمقاصد أبيه إذ عاجلته المنية فمات حتف أنفه فى سنة سبع وثمانين وألف هجرية، فولى الصدارة بعده زوج أخته قره مصطفى. قال بعض الكتاب: فلم يكن كفؤا لهذا المنصب الجليل ولا هو موصوف بحسن السياسة التدبير فلما استقر به المنصب تغلب عليه هواه فركب متن الشطط وباع المناصب العالية وعاقد الدول على ما يأباه شرف دولته وعزة جانبها وخلط وخبط فأبعد عن الدولة قلوب معاهديها وأزال بسوء تدبيره ما أسسه كوبريلى الكبير وابنه من بعده فظهر الخلل وتطرف إلى جميع مصالح الدولة وتقدمت الأوغاد وعلت كلمة الأغرار واشتد خصوم الدولة عليها فسار قره مصطفى الصدر المذكور فى جيش عظيم يريد محاصرة ويانه عاصمة النمسا فنزل عليها وحاصرها وضيق عليها وأقام على حصارها زهاء شهرين واستولى على جميع قلاعها الأمامية ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمى ليلاً ونهاراً حتى هدم بعض أسوارها ولما يأخذها فسير بابا رومه رسله إلى ملك پولونيا وملك ساكس وبافييرا يستنهضهم إلى نجدة النمساويين وقتال المسلمين وخلاص البلاد من أيديهم فقاموا جميعا للقتال وهاجموا عساكر المسلمين وقاتلوهم قتالا عنيفا للغاية فظفروا بهم وانتصروا عليهم نصرة عظيمة وفشلت جنود قره مصطفى باشا وتمزقت فاستولت الأحزاب على جميع مدافعهم وما تركوه من مؤنة ودواب وآلات الحرب وكانت شيئا كثيرا للغاية ثم جمع قره مصطفى باشا مابقى من جنوده على نهر داب وقفل

راجعا بهم إلى مدينة بور فتتبعه ملك پولونيا فى عكسره وصار يتخطف من خلفه ووصل الخبر بذلك إلى دار السلطنة فكبر الأمر على السلطان وسير على الفور أحد حاشيته إلى قره مصطفى باشا فقتله وبعث رأسه إلى القسطنطينية وولى مكانه إبراهيم باشا وكبر الأمر على دولة النمسا وتعلقت آمال ملكها بالنصر بعد استخلاص ويانه من هجمات العساكر العثمانية فتحالف مع مملكة بولونيا وجمهورية البندقية ورهبنة القديس يوحنا وبابا رومية ودولة الروس على قتال المسلمين وأخذ جميع ما بأيديهم من البلاد فى قارتى آسية وأوربا ودعوا هذه المحالفة بالمحالفة المقدسة ثم فتحوا الحرب على الدولة من كل صوب وحدب فسارت سفن جمهورية البنادقة تتهدد سواحل اليونان وبلاد الموره ومعها سفن حرب البابا وسفن رهبنة القديس يوحنا فتغلبوا على مدن اليونان وأخذوا كورنيشه وأثينه وزحفت جيوش الملك سوبسكى على بلاد البغدان وأغارت عساكر النمسا على بلاد المجر فاحتلت مدينة بست وحاصرت مدينة بور وضيقت عليها فلم تنل منها فهاجموا بعض القلاع والحصون وأخذوها عنوة وفاز الأحزاب وانتصروا عدة نصرات متتابعة فكبر ذلك على السلطان وظنه خيانة من الصدر الأعظم فسير إليه الأمر بالعزل والإبعاد إلى جزيرة رودس وعين مكانه سليمان باشا السردار فلم يغن عزله شيئا ولم يفلح لسليمان باشا السردار عمل وافتتح النمساويون مدينة بور ودخلوها وأعملوا فيمن بها من العساكر العثمانية القتل، وقتلوا عاملها المدعو عبدى باشا فكان سقوط هذه المدينة فى أيدى الأعداء خسارة عظيمة على الدولة العثمانية وفشلت بعد ذلك عساكر سليمان باشا وتولى عليها الجبن والضعف وفازت عساكر الأحزاب وتقدمها النصر فى جميع حروبها والسلطان فى شاغل عن جميع أمور السلطنة بالصيد والقنص ومنادمة قرناء السوء فى القسطنطينية وضواحيها.

ولما وردت الأخبار إلى دار السلطنة بتوالى هزيمة العساكر العثمانية وفوز الأحزاب ودخول الشتاء رسم السلطان بأن يكون الروم إيلى مشتى العساكر فى ذلك العام أيضا وقد كانوا أشتوا فيها عدة سنين فهاج العسكر عند ذلك وماجوا وأبوا إلا العود إلى دار السلطنة فلما صاروا على مقربة منها كتبوا محضرا بما عليه السلطان من سوء الأخلاق وعدم صلاحيته لمنصب الخلافة وطلبوا خلع بيعته فوافقهم على ذلك العلماء والمشايخ وأهل الدولة وخلعوه فى غرة المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية وأجلسوا بدلا منه أخاه السلطان سليمان الثانى وبقى السلطان محمد محجورا عليه حتى مات سنة خمس ومائة وألف هجرية.



(الفصل الثالث عشر)

(فى سلطنةالسلطان سليمان خان الثانى)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان محمد أخوه السلطان سليمان خان الثانى بويع له بالملك فى الثانى من المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانين وستمائة وألف ميلادية وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما تمت له البيعة دخل جميع العساكر الذين كانوا فى حومة القتال إلى دار السلطنة بسلاحهم وكراعهم ودوابهم وضربت كتائب السباهيين خيامهم فى المكان المعروف بميدان السلطان أحمد وضرب الانكشاريون خيامهم فى المكان المعروف بأت ميدان وما غنموا حتى قبضوا بعد ذلك على أزمة الأحكام وأمروا ونهوا وصاروا يعزلون ويولون ويقصون ويدنون من شاءوا ويقتلون ويصادرون الوزراء والأمراء والحكام على السواء وتطاولت أيديهم أيضا على أموال الرعية واشتدوا على الناس شدة بالغة وعاثوا وأفسدوا وهتكوا الحرمات ودخل جماعة منهم يوما إلى الباب العالى وقبضوا على الصدر الأعظم سيواس باشا وقتلوه شر قتلة فعم الخلل وظهر أهل الفساد فتبعوا العسكر فى النهب والسلب وعاثوا وعربدوا واتفق أن جماعة منهم دخلوا إلى بيت شريف من الأشراف ينهبون فمانعهم الشريف فلم يقدر فخرج وهو يصيح ويضج ثم رفع منديلا على رأس عصا وصار ينادى من كان مؤمنا بالله ورسوله فليأت تحت الصنجق فلما سمع الناس نداءه أتوا إليه من كل صوب وحدب وأحاطوا به وهم يضجون ويعجون إلى الله وذاع الخبر فى جميع أطراف القسطنطينية بخروج البيرق النبوى أى بيرق صاحب الشريعة فهرع الناس أفواجا أفواجا إلى السراى السلطانية وهم لا يشكون فى أن منديل ذلك الشريف هو البيرق النبوى فتعجب الأمراء وكبار الدولة من هذا الأمر الغريب وظنوا أن اجتماع هذه الجموع الكثيرة على هذه الصورة إنما هو بإرادة سماوية ومشيئة إلهية فأسرعوا فى إخراج البيرق النبوى للحال ووقع السيف فى أعناق أهل الشقاوة والفساد وكثر القتل والتفريق وعمت الثورة واستفحل الخطب واشتد الويل والكرب وأغلقت الأسواق وتترس الناس فى البيوت والدروب فكانت فتنة كبرى .

وبينما كانت القسطنطينية تتأجج بنار الفتنة والدماء تسيل فى طرقاتها كانت

عساكر الأحزاب تقاتل بلاد الدولة وتحتل الثغور وتأخذ القلاع والحصون فاستولى البندقيون على إيالة المورة ووصل النمساويون إلى بلغراد ثم استولوا على قلاع ودين وفتح الإسلام ونيس والافلاق وغيرها ووردت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فاجتمع كبار الدولة وأهل الحل والعقد فيها وتشاوروا فى الأمر واعترفوا بعجزهم وعدم قدرتهم على إطفاء نار هذه الفتنة وبعد إقدام وإحجام اتفقت كلمتهم على تسليم كوبريلى مصطفى باشا خاتم الصدارة العظمى فاستقدموه فى الحال وسلموه الخاتم فتبض على زمام الأمور بهمة عالية وأبطل كثيرا من البدع والمظالم المستحدثة وأزال جميع الأمانات والالتزامات وأبطل رسوم وعادات الوزراء فى الأعياد والمواسم وبالغ فى إرجاع الجند إلى حدود الطاعة وملازمة النظام وصرف لهم جميع جماكيهم وعلوفاتهم المتأخرة وبث حول كبارهم العيون والأرصاد فخافوه وأخلدوا إلى السكينة وقطع دابر أصحاب الشقاوة وأهل الفساد وأمن الطرق فأحبه الناس ومالت إليه قلوب الجند فأذعنوا لأمره واجتمعوا عند كلمته وانطلقت ألسنة الناس كافة بالدعاء له فلما تم ما أراده من تنظيم أمور المملكة الداخلية تجرد للغزو وأخذ الثأر من الأعداء وأثار الحرب على النمسا وجمهورية البندقية وبقية الأحزاب وسير لقتالهم عسكرا جرارا فكانت بينهم سجالا، وبينما كانت نار الحرب تشتعل بين العساكر السلطانية وجيوش الأحزاب تحرك كذلك بطرس الأكبر قيصر الروس ونكث العهد وزحف بجيش عظيم يريد إما التخلص من الجزية المفروضة على مملكته لبكوات القريم وإما الحرب والقتال فكبر هذا الأمر على الصدر الأعظم ورسم لجيوش التتار بقتال الروس فقاتلوهم قتالا عنيفا وهزموهم شر هزيمة وغنموا ما كان معهم من المدافع وآلات الحرب والخيام والدواب وكانت شيئا كثيرا وعادت التتار ظافرة وتفرغ الصدر الأعظم حينئذ لقتال الأحزاب وشدد فى ذلك فهزمت العساكر السلطانية عساكر جمهورية النبدقية وانتصرت عليها نصرا عظيما وركب هو بعسكره أيضا على دولة النمسا فافتتح قلعة نيس وجميع القلاع والبقاع المتصلة إلى قلعة بلغراد وقلعة سمندرة واسترجعت أيضا السفن العثمانية قلعة ودين وسير طائفة من العسكر إلى أطراف أردل ففتحوها وانتصروا على من كان بها من الأعداء.

(مطلب)

ولاية حسن باشا السلحدار

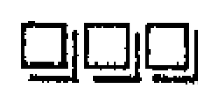
ولم تكن هذه الحروب المتتابعة لتشغل رجال السلطنة عن التولية والعزل فى ولاة

مصر فإنه بعد أن لبث عثمان باشا يتصرف جاءه الأمر بالعزل فى أوائل سنة تسع وتسعين وألف هجرية وتولية حسن باشا السلحدار فكانت مدة تصرفه نحو ثمان سنين وبضعة أشهر، ووصل حسن باشا إلى الإسكندرية فخرج للقائه الأمراء وكبار الجند والعلماء والوجهاء فدخل القاهرة فى موكب حافل للغاية وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ يتصرف فى الأمور فلما كانت سنة ألف ومائة هجرية وقع الغلاء بمصر وامتنع الوارد من الغلال إلى القاهرة فبيع الأردب القمح بمائة وعشرين نصفا فضة والأردب الشعير بثمانين والفول بخمسة وتسعين نصفا. قال بعض الكتاب: وأجرة طحين ويبة القمح أربعة أنصاف فضة فضج الفقراء وطافوا بالأزقة والحارات يتساءلون وصاروا يتخطفون ما يجدونه من الخبز فى الأفران وفى الدكاكين واهتم حسن باشا بأمر الغلاء ففتح الأشوان السلطانية وأطعم حتى زال الغلاء وكثر الوارد من الغلال واطمأنت قلوب الناس.

(مطلب)

ولاية أحمد باشا جانبلا

ولبث حسن باشا يتصرف إلى ربيع الثانى سنة إحدى ومائة وألف هجرية فجاءه الأمر بالعزل وتولية أحمد باشا فنزل من قلعة الجبل، ودخل أحمد باشا القاهرة فى آخر ربيع الثانى المذكور فكانت مدة تصرف حسن باشا ثلاث سنين غير كوامل وتصرف أحمد باشا تصرفا حسنا إلا أنه لم تطل مدته وكان السلطان سليمان قد رحل عن القسطنطينية إلى أدرنه وأقام بها يستطلع أخبار الحرب ويستنشق نسمات النصر بعد ذلك الخذلان المتتابع فبينما هو على هذا الحال جاءته الأخبار بظفر جنوده وقهرهم للأعداء ففرح بذلك فرحا لا يوصف وسار من أدرنه إلى دار السلطنة فضربت لقدومه البشائر وعاد بعد أيام أيضا الصدر الأعظم بجميع عساكره ورايات النصر تخفق على رؤوسهم كان ذلك فى وقت الشتاء فتفرغ من الحرب إلى إمضاء الأحكام وتنظيم أمور الدولة وإعادة ما خسرته من العز والجاه وبقى كذلك إلى دخول الربيع فخرج بجيوشه يريد بلغراد للغزو والجهاد وخرج السلطان إلى أدرنه تشجيعا للمقاتلين فلم يلبث بها إلا أيامًا حتى مرض واشتد به مرضه فمات فى العشرين من رمضان سنة اثنتين ومائة وألف فكانت سلطنته ثلاث سنين وتسعة أشهر وتولى الملك بعده أخوه السلطان أحمد خان الثانى ابن إبراهيم خان.



(الفصل الرابع عشر)

(فى سلطنة السلطان أحمد الثانى ابن إبراهيم)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليمان أخوه السلطان أحمد الثانى ابن السلطان إبراهيم بويع له بالملك يوم موت أخيه سنة اثنتين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة إحدى وتسعين وستمائة وألف ميلادية فلما استقرت به السلطنة أخذ يتصرف فى الأمور ولم تكن الحرب القائمة بين جيوش مصطفى كوبريلى صدر الدولة وبين جيوش النمسا قد انقضت إلى ذلك الوقت فاهتم السلطان أحمد بأمرها وسير مصطفى باشا المشار إليه إلى بلاد النمسا لإخضاعها واسترداد ما بقى تحت يدها من المدن والبلدان فسار مصطفى باشا ومازال يحارب حتى مات فى ساحة الحرب وانهزم جيشه شر هزيمة ومات منه زهاء العشرين ألفا وتشرد من بقى منه فاضطرب السلطان من ذلك وصمم على الأخذ بالثأر فجعل يعد المعدات ويجيش الجيوش ويراقب الفرص ويتبين انتفاعها فبينما هو على هذا الحال إذ قام الحريق بالقسطنطينية واشتد بها شدّة بالغة جدا فاحترق نحو ربع المدينة ومات كثير من الشيوخ والأطفال وعم الخطب فتعوق تسيير الحملة على بلاد النمسا ولم تخرج إلا فى سنة خمس ومائة وألف وكانت جيوش النمسا فى هذا الحين تشدد الحصار على مدينة بلغراد فلما جاء الخبر بمقدم العساكر العثمانية خاف قائد جيوش النمسا وفك الحصار عن بلغراد ورجع عنها فنزلت العساكر العثمانية حول بلغراد ولبثت هناك من غير قتال ولم يقع الاتفاق بين قائد الجيوش العثمانية وقائد جيوش الفرنجة على شيء من أسباب الصلح أو المهادنة ولم تزل الحال كذلك إلى أن مات السلطان أحمد سنة ست ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته ثلاث سنين وبضعة أشهر وقيل أربع سنين ومات فى أيامه أحمد باشا والى مصر فدفن بالقرافة.

(مطلب)

ولاية علي باشا قلج

وجاء فرمان السلطان بتولية على باشا قلج بدله فدخل القاهرة فى ربيع الثانى سنة اثنتين ومائة وألف هجرية فكانت مدة تصرف أحمد باشا سنة وبضعة أشهر

وتصرف على باشا قلج فكان غير موفق فى جميع أعماله ميالا للإيذاء غير قنوع وقصر فى أيامه النيل عن زيادته المعتادة فرسم للشيخ يوسف السادات بأن يبيت فى قاعة المقياس ويتلو حزبه فى كل ليلة حتى يحصل الوفاء وأقام بطرك المتأصلين كذلك الصلاة ودعاء الله سبحانه وتعالى، قيل فزاد النيل ووفى فى السابع والعشرين من مسرى القبطى وعم الأراضى ثم انحدر عنها فأخصبت وأنتجت غلاتها ولبث يتصرف حتى تولى السلطنة السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع وكان من أمره ما سيذكر فى محله .



(الفصل الخامس عشر)

(فى سلطنة السلطان مصطفى الثانى

ابن السلطان محمد الرابع)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان مصطفى الثانى ابن السلطان محمد الرابع وبويع بالملك سنة ست ومائة وألف هجرية أى سنة خمس وتسعين وستمائة وألف ميلادية وكان متأدبا حسن السيرة محبا للعلوم والمعارف رزينا كريم الأخلاق فلما استقرت به السلطنة جيش على جزيرة ساقس ففتحها ثم سار إلى قتال النمسا إذ الحرب لم تكن خمدت نارها بين الفريقين فلما التقى الجمعان واقتتلا انهزمت جيوش السلطان شر هزيمة فقفل راجعا بمن بقى معه ثم سار بجيش آخر لقتال الروس فلاقته جيوشهم وقاتلته قتالاً عنيفاً فانتصرت عليه نصرة عظيمة وأخذت منه مدينة أزوف ولما رأى السلطان من توالى نصرة أعدائه وموت عساكره سلم خاتم الصدارة إلى حسين باشا عموجه زاده من عائلة كوبريلى ففرح الناس بذلك وعدوا هذا الفعل من تدابير السلطان الحسنة وكانوا يودون لو أن الصلح يقع مع الدول المحاربة على يد حسين باشا الصدر المذكور فتحقن الدماء وتزول ويلات الحروب وكان الصدر الأعظم يرى وجوب التمسك بقول القائل: إذا أردت الصلح والصلاح كن مستعدا للحرب والكفاح. فسار من فوره بالعسكر السلطانى إلى نواحى بلغراد يريد القتال فتداخلت عند ذلك دولتا الإنجليز والفلمنك

فى تقرير قاعدة للصلح فأذعن الصدر بذلك خوفا من ملل الجنود من توالى الحروب عليهم فى أربع جهات مختلفة ونفاد الأموال فضلا عما طرأ على البلاد من الخراب فتم أمر الصلح مع الأحزاب ولكن لم يرق هذا العمل الخطير فى عين فيض الله افندى شيخ الإسلام وحسد الصدر الأعظم على هذا الفوز فدس فى حقه إلى السلطان وأكثر من النميمة والوشاية به وأثار عليه الخواطر ورماه بالمروق ووسمه بالخيانة فلم يطق الصدر هذا الحال واعتزل المنصب وكتب إلى السلطان بذلك فجاءه جواب السلطان بالقبول. قال أصحاب التاريخ: وقد ختمت بهذا الوزير سياسة محمد باشا الكوبريلى ولم تلبث الأحوال أن تغيرت وظهر الأغرار وقبضوا على زمام الأحكام وكان للسلطان ميل تام إلى فيض الله افندى شيخ الإسلام لأنه شيخه ومربيه نارکن إليه واعتمد فى كل الأمور عليه فتاقت نفس فيض الله إلى الانفراد بالأمر فعمل ما لم يفعله أحد قبله من سلفائه وأمضى ما لا يليق بشأن العلماء فولى أولاده ومن ينسب إليه المناصب العالية وإرقاهم المراتب السامية وقبض على أزمة جميع الأمور فنهى وأمر وفاز واشتهر وغلب وقهر وحصر المنافع فيه وفى أولاده وأتباعه وأقبلت عليه الدنيا بحذافيرها فلم تبق كلمة فوق كلمته ولا يد فوق يده، وتولى السلطان مصطفى والوالى على مصر على باشا قلج فأتى إليه فرمان الرضا فلبث يدبر الأمر وكان على باشا هذا سيئ الطالع قليل الرأى عديم التدبير متحجبا عن الناس إلا عن بعض خواصه وكانت أيامه كلها شدائد وقع فيها غلاء شديد جدا فقل ورود الغلال يوما عن يوم حتى انقطع وعزت الأقوات وضافت أمور الفقراء واشتد بهم الجوع شدّة بالغة فأكلوا الجيف وجذور الأشجار ثم اجتمع منهم السواد الأعظم رجالا ونساء وصبيانا وصعد إلى قلعة الجبل وذلك فى منتصف المحرم من سنة سبع ووقفوا بحوش الديوان وصاحوا من الجوع واستغاثوا ونادوا على الباشا فلم يجبهم أحد فرجموا بالأحجار وأكثروا من العربدة فركب الوالى وطردهم فنزلوا إلى الرميلة ونهبوا ما بها من حواصل الغلال وكذلك وكالة القمح وحواصل كتخدا الباشا وكانت ملأى بالشعير والفول وأصناف الحبوب الأخرى فلم يقدر أحد على ردهم واشتد الغلاء حتى بيع الأردب القمح بستمائة نصف فضة والشعير بثلثمائة والفول بأربعمائة وخمسين والأرز بثمانمائة نصف فضة أما العدس فكان لاوجود له بالكلية وحصلت شدة عظيمة بمصر والأقاليم كافة وجاء أهالى القرى والأرياف إلى القاهرة ومصر القديمة فامتلأت منهم الأزقة والحارات واشتد الكرب وعم الخطب

ومات الكثير من الناس جوعا وخلت أكثر القرى من أهلها وخطف الأهالى الخبز من الأسواق ومن الأفران والذى على رؤوس الخبازين مع ندرته فكان يذهب الرجلان والثلاثة مع طبق الخبز يحرسونه من الخطف وبأيديهم العصى حتى يخبزوه ويعودوا به واستمر الأمر على ذلك إلى أن عزل على باشا المذكور فى ثامن عشرى من المحرم افتتاح سنة سبع ومائة وألف هجرية.

(مطلب)

ولاية مسلم باشا إسماعيل

وخلفه فى الولاية مسلم باشا إسماعيل وهو من ولاة الشام فلما جاء الخبر بعزله فرح الناس فرحا لا يوصف واستبشروا بالفرج بعد الضيق وقام إبراهيم بك أبو شنب فى نيابة الغيبة حتى يقدم مسلم باشا إسماعيل المذكور إلى مصر، ونزل على باشا المخلوع إلى بيت أحمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل واستقر به فكانت مدّة تصرفه أربع سنين وثلاثة أشهر وأياما وحضر إسماعيل باشا الوالى الجديد من البر وصعد إلى قلعة الجبل بالموكب فى يوم الخميس السابع والعشرين لصفر من السنة فلما استقر به المنصب ورأى ما فيه الناس من الجوع والكرب والموات رسم بتوزيعهم على بيوت الأمراء والأعيان كل إنسان على قدر حاله وقدرته وأخذ لنفسه جانبا ولأعيان دولته جانبا وعين لهم ما يكفيهم من خبز وطعام فى الصباح والمساء إلى أن انقضى الغلاء ثم أعقب ذلك وباء عظيم للغاية فرسم الباشا لأصحاب بيت المال بأن يكفنوا جميع الفقراء والغرباء كافة فكانوا يحملون الموتى من الطرقات عشرات عشرات ويذهبون بهم إلى مغسل السلطان عند سبيل المؤمن ومازالوا على هذا الحال إلى أن انقضى الوباء أيضا فكان عدد الموتى لا يكاد يحصر وكان انقضاء الوباء فى آخر شوّال من السنة فعمل الباشا أفراحا وختن ولدا له اسمه إبراهيم وختن معه ألفين وثلثمائة وستة وثلاثين غلاما من أولاد الفقراء ورسم لكل غلام بكسوة كاملة ودينار، وكان من ملتزمي دار الضرب على عهد على باشا الوالى المنفصل يهودى اسمه ياسف وكان طاغية داهية وقد طلب إلى دار السلطنة وسئل عن أحوال مصر وما يتعلق بها فأملى على أمور والتزم بتحصيل أموال الخزينة زيادة عن القاعدة المقررة فى كل عام وحسن إحداث بعض إحداثات فأجازت له الدولة ذلك وأعطت له مرسوما فلما حضر مصر تلقته طائفة اليهود من بولاق وأصعدوه إلى الديوان فى

كبكبة فقرئت الأوامــر التى حضر بها ووافقه الباشا على إجرائهــا والعمل بها وأشهر النداء بذلك فى شوارع مصــر والقاهرة فاغتم الناس وتوجه التجــار وأعيان البلد إلى الأمراء وراجـعوهم فى ذلك فـركب الأمراء والصناجق وطلعــوا إلى القلعة وكـلموا الباشــا فلم يقبل منهم فغـضبوا وسـألوه أن يسلمهم اليهــودى فامتنع فـأغلظوا عليه وصمموا على أخـذه فأمرهم بوضعه فى العرقانة وأن لا يشـوشوا عليه حتى ينظروا فى أمره ففعلوا به ذلك فـقام الجند على الباشا وطلبوا أن يسلمهم اليــهودى ليقتلوه فامتنــع فمضوا إلى الســجن وأخرجوه وقتلوه عند بابه وجــروه من رجله وألقوه فى الرميلة فـقام العــامة وجمـعوا حطبا وأحــرقوه بمرأى من الناس كــافة وذلك فى يوم الجمعة بعد الصلاة ثم سكنت الفتنة ،كأنها لم تكن، ومن هذا الحين انحرف الجند على الوالى ونقموا عليه وصاروا ينكرون عليـه كل فعل ولو لم يستحق الإنكار حتى قــاموا عليـه فى الثانى والعــشرين من ربيــع الأول من السنة وعزلوه فكانت ولايتـه سنتين اثنتين.

(مطلب)

ولاية حسين باشا

وقام مصطفى بك بالأمر إلى أن حضر الوالى الجـديد واسمه حسين باشا واليا على صيدا من أعمال الشام فلما حـضر إلى القاهرة طلع إلى قلعة الجبل فى موكب حافل في منتصف رجــب سنة تسع ومائة وألف فلما استقــرت به الولاية أخذ ينظر فى أمور البلاد ومصالح الخلق فكان يرى نفسه مغلوبا على أمره لا كلمة له بين الجند والأمراء والصناجق فعمل على تعزيز جانبه وإعــلاء كلمته فلم يتمكن لقصر أيامه، واتفق فى ولايته أن خـرج المغاربة من أهل تونس وفــاس المقيمــين بالقاهرة فى رابع عشــر شوال من السنة ليحمـلوا كسوة الكعبـة التى تحمل فى كل عام للبـيت الحرام وكــانت عادتهــم فى ذلك اليوم إنــهم يمرون بالكــسوة فى وسط القــاهرة مع غــاية الاحتفــاء والاحتفال ويـضربون كل من رأوه يشرب الدخان فى أثناء مــرورهم فرأوا رجلا من أتباع مــصطفى كتخدا القــازدغلى يدخن فكسروا أنبوبته وضــربوه وشجوا رأسه وكان فى مقدمتهم أناس منهم متسلحون فزاد التشاجر واشتد الأمر فقام عليهم أهل السوق وأوقــعوا الضرب فى بعـضهم بعضا وكــادت الفتنة تعم القاهرة ومــصر وخاف الناس العــاقبة وحضــر أودة باشا البوابة فقــبض على جماعة منهم وقــيدهم

بالحديد وصعد بهم إلى حيث الباشا فأمر بهم فحبسوا حتى سافر الحاج من مصر ومات منهم جماعة في السجن ثم أفرج عنهم بعد ذلك.

(مطلب)

ولاية قره محمد باشا

وورد عقب هذا الحادث بقليل الخبر بعزل حسين وولاية قره محمد باشا فحضر مصر فى منتصف ربيع الآخر سنة إحدى عشرة ومائة وألف فكانت ولاية حسين بشا سنة وسبعة أشهر وأياما ولم يكن لقره محمد من حظ الولاية على البلاد إلا ما كان لسلفه فإنه كان مغلوبا على أمره وكانت الكلمة للأمراء والصناجق ولم يبق له إلا صغائر الأمور فوجه عنايته إليها وما هى إلا إزالة بعض السقائف والدكاكين لتوسعة الطرق والأسواق وقطع الأرض وتمهيدها ورسم بترميم جامع الأربعين الذى بجوار باب قره ميدان وأنشأ فى الميدان المذكور جامعا بخطبة وتكية لفقراء الخلوتية من الروم وأسكنهم بها وأنشأ تجاهها مطبخا ودار ضيافة للفقراء وفى علوها مكتبا للأطفال ورتب لهم ما يكفيهم وأنشأ فيما بينها وبين البستان المعروف ببستان الغورى حماما فسيحا مفروشا بالرخام الملون وجدد بستان الغورى وغرس فيه الأشجار ورمم قاعة الغورى التى بالبستان وعمر بجوار المنزل سكن أمير اخور وبنى مسطبة عظيمة برسم الباس القفاطين وتسليم المحمل لأمير الحاج وأرباب المناصب، **قلت** : وهى موجودة إلى يومنا هذا، وعمر مسطبة يرمى عليها بالنشاب وأنشأ الحمام العظيم بقره ميدان ونقل إليه من قلعة الجبل حوض رخام ضمن قطعة واحدة وعملوا به فسقية فى وسط المسلح وعمر بالقرافة مقام سيدى عيسى بن عبدالقادر الجيلانى وجعل به فقراء مجاورين ورتب لهم ما يكفيهم وأنشأ صهريجا بداخل القلعة بجوار نوبة الجاويشية ورتب فيها خمسة عشر نفرا يقرؤون القرآن كل يوم بعد الشمس.

أما فيض الله افندى شيخ إسلام دار السلطنة فإنه لما اتسعت كلمته وبسط يده على جميع الأمور وصار السلطان طوع يده أبغضه الناس وكثرت خصومه وناواه جميع أعيان الدولة وأركانها وظهرت الفتنة وعظمت واستفحل أمرها فقامت الجنود على السلطان فخلعوه وقبضوا على شيخ الإسلام وقطعوا عنقه بحد السيد وسجنوا السلطان مصطفى ووكلوا به طائفة منهم تحرسه وذلك سنة خمس عشرة ومائة وألف

هجرية فكانت مملكتــه تسع سنين وقيل ثمان سنين ومــازال مسجونا حــتى مات فى نحو سنة تسع عشرة وخلفه أخوه السلطان أحمد ابن السلطان محمد .

ومات فــى أيام السلطان مصطفى مــتاوس بطرك المتــأصلين بعد أن أقــام أربع عشرة سنة وكان اسمه جرجس من رهبــان دير البراموس ونقل فى أيامه دار البطركية من حارة زويلة إلى إلى حارة اروم بالقــاهرة وسكن بها وكان تقيا عالما فــأقيم بعده يوحنا وهو الثــالث بعــد المائة واسمــه إبراهيم من رهبــان دير انطونيوس وكــان من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل السادس عشر)

(فى سلطنة السلطان أحمد ابن السلطان محمد)

ثم قام بالأمر بعــد السلطان مصطفى أخوه السلطان أحمد ابن السلطان مــحمد بويع بالملك بعد خلع أخيــه سنة خمس عــشرة ومائة وألف هجــرية أى سنة اثنتين وسبعمائة وألف ميلادية فلما استــقر به الملك اشتد على العسكر وضيق عليهم وكان شديد البطش عظيم البأس سفاكاً للدماء فهــابه العسكر وخافته الرعية فأصلح بعض الأمور التى فسدت على عهد السلف وأعاد للدولة بعض القوة والنظام وظهرت فى أيامه وقــعات الروس مع الأسوجــيين وزحف بطرس الأكبــر قيصــر الروس بعسكر عظيم للغاية على قلعة ازاق فى بلاد القــريم وحاصرها وضيق عليها حتى فــتحها وطمحت آمــاله إلى ضم بلاد اسوج إلى مملكته فــسار لقتــالها وكان ملكهــا كرلوس الثانى عشر جليل القــدر واسع المعرفة بأساليب السياسة وتدبيــر الممالك وكان يعرف عند أهل الإسلام باسم تيــمور باش وقد أنذر الدولة العثمــانية بالخطر الذى يلحق بها إذا تركت بطرس قيصر الروس وشأنه يغزو ويدوخ الممالك المجاورة له فلم تلتفت يومئذ لقــوله فلما نال بطرس الغلبة وكاد يأخذ ملك أسوج أســيرا هرب ملك أسوج إلى دار السلطنة العثــمانية فنال بطرس من بلاد أســوج وضم جانبا عظيمــا منها إلى مملكته من ناحية بحر البلطيق وتجاوزت العساكر الروسية بعض الحدود العثمانية فرسم السلطان إلى بلطجى محــمد باشا الصــدر الأعظم بالمسير لقتــال بطرس ورد غارات عسكره فسار فى جيش عظيم وعبر الطونة وقطع أياله بسارابيا وكانت عساكر الروس قد عــبرت قــبل ذلك نهر بروت فنزلوا على ســاحل الطونة فلم يلتفت إلــيهم وظل

سائرًا بجيوشه حتى بلغ ممر فالجى وقصد عبور نهر بروت من هذا الممر فلما تحقق ذلك القيصر ظن الظنون البعيدة وسير فريقا من عساكره لمنعهم من العبور فلم يقدروا وتمكنت العساكر العثمانية من العبور وقاتلوا الروس فهزموهم وساقوا خلفهم حتى ألحقوهم بمعسكرهم بعد الزوال ولم يطلبوا الراحة من التعب بل فاجئوا العدو وهجموا عليه هجمة رجل واحد فانهزم وتقهقر فعارضه نهر بروت من جهة وسد عليه أيضاً خان القريم الطريق من الجهة الثانية فنظر القيصر وإذا به قد وقع بين منتطح عنزين فسير رسله إلى الوزير فى طلب الأمان وتقرير قاعدة للصلح فأجابه الوزير إلى ذلك وتقررت بين الفريقين القاعدة وتم الصلح على ما سيذكر وكتب به أيضا عقد مؤقت وهو:

الباعث لتحرير هذا الكتاب الصحيح النصاب هو أنه بتوفيق الله الملك العلام انتهت حرب عساكرنا المنصورة مع قيصر الروس وعسكره فى طرف نهر بروت وبعد حصارهم والتضييق عليهم فبلطفه تعالى الكريم وفضله العميم طلب القيصر المرقوم إجراء المصالحة وعند ذلك عقدت وربطت قيود وشروط الصلح والصلاح على الوجه الآتى بيانه: وهو أن قلعة أزاق مع أراضيها وسائر ملحقاتها يجرى تسليمها كالأول للدولة العلية، والقلعة الجديدة الكائنة فى أعالى طغيان وقمانكة وصمصار المختصة بالقيصر تهدم بالكلية والمدافع والجبخانة الموجودة ضمن قمانكة يجرى تسليمها بتمامها للدولة العلية، وفيما يأتى من الزمن لا ينشأ فى المحل المذكور قلعة ولا تحصل مداخلة بعد الآن من طرف القيصر المرقوم مع اللهوبين والتابعين لهم وهم راياش والبورتغال ولا إلى القزاق التابعين لحضرة صاحب السعادة دولتكراى خان القريم بل يرفع القيصر يده عن جميع تلك المواضع بحيث تعود كما كانت قبل الآن وبعد اليوم لا يحق للقيصر أن يقيم سفيرا فى استانبول من طرفه. وأما التجار الروسيون الذين يأتون برا للممالك المحروسة لأجل التجارة فإنهم مأذونون فى الإقامة بها. والأسرى من المسلمين الذين أسروا من قبل ومن بعد يلزم ويجب على القيصر أن يسلمهم للدولة العلية مهما كان عددهم. وملك أسوج حيث إنه التجأ ووقع تحت جناح عناية الدولة العلية فبعد الآن يتوجه إلى مملكته بالأمن والسلامة ولا يحصل له التعرض والممانعة من طرفهم قطعيا وإذا وجد بينهم عدم توفيق ورضا اتحاد فعليهم أن يجريا المصالحة. وأنا أرجو من كمال أفضال مولانا وسلطاننا صاحب الشوكة والعناية والعظمة ومن فيض مكارمه الملوكية غض النظر من طرف الدولة

العلية عن الحركات الخارجية عن الأدب التى سبق وقوعها فى جانب رعايا الدولة وسائر المنسوبين إلى الممالك المحروسة وأن لا يصير عليهم فيما يأتى من الزمان تعد كما تقرر ذلك فى الشروط والعهود. وبحسب الوكالة المطلقة حرر هذا الصك وأعطى لطرف القيصر إلى أن يعقد العهد والميثاق إن شاء الله تعالى فى دار السعادة بالوجه المشروح وتعطى صورته له. وبعد أن يأخذ القيصر صك العهد فلا تكون حينئذ ممانعة ومداخلة في أمر ذهاب عساكره إلى بلاده فى الطرقات المستقيمة لا من طرف العساكر المنصورة ولا من فرد من أفراد طوائف التتار وجماعتهم. وأما أمين أسرار القيصر قدوة أعيان الملة المسيحية قبارون فانجلبر بترد شافروف والجنرال ميخائيل أولدبورس حفيد شرمت. ختمت عواقبهما بالخير حيث إنهما كانا حضرا من طرف القيصر للمعسكر المنصور ليكونا رهنا فمن بعد تسليم المواد المذكورة وإعطاء صك العهد من طرف القيصر وإتمام خدمتهما يعطى لهما الأذن والرخصة من طرف الدولة العلية بذهابهما إلى بلادهما بلا تأخير ولبيان ذلك حرر هذا فى اليوم السادس من جمادى الآخرة سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف .

بيور لدى صحراء التوقيع خدش كجدى

قال بعض كتاب الأخبار : وكان الوزير المحكى عنه صاحب حيل ودهاء دقيق الفكر فى أعماله وحركاته ولم ينل مسند الصدارة العظمى إلا بما أجراه من الدسائس الكثيرة والحيل الغريبة فلما علم السلطان أحمد بحقيقة حاله وأنه من الطغاة أعرض عنه ثم عزله من منصب الصدارة وبقى معزولا حتى قامت الحرب بين الروس وأسوج وكان من أمرها ما تقدم بيانه فاقتضت المصلحة إعادته إلى مقام الصدارة ثانية فأحسن فيها العمل وفاز بالظفر والغلبة على ذلك الرجل العظيم وهو بطرس الأكبر ولكن لم تطل أيامه حيث وشى به خصومه ورموه بالخيانة وقالوا إنه إنما عقد هذا الصلح بالرشاوى والبراطيل وقد كان فى وسعه أن يقطع شأفة جميع الجيوش الروسية بعد أن تحقق له أن بطرس الأكبر لم يسلم بهذه الشروط مع ما فيها من الفضيحة والعار عليه وعلى بلاده إلا بعد أن أكلت جيوشه جميع دواب الحمل حتى جذور الاشجار وبعد أن سدت عليهم جميع المسالك ومازالو يحسنون للسلطان الانتقام منه إلى أن أمر بعزله ونفيه قبل أن يصل إلى دار السلطنة بعد نصرته فى تلك الحرب الهائلة. قال بعض الكتاب: وهو وإن كان بريئا من هذه التهمة فقد ارتكب فى صدارته الأولى من المعاصى والذنوب ضد الكثير من خيار الناس ما لا يكاد يعد فظهر به الآن سر قولهم. إن الجزاء من جنس العمل.

(مطلب)

ولاية رامي محمد باشا

وكان الوالى على ديار مصر عند تولى السلطان أحمـد للسلطنة قره محمد باشا فأقره فى منصبه وأتاه فرمان الرضـا فلبث يتصرف بعد ذلك أشهرا ثم خلعه. وولى مكانه رامى محمـد باشا وكان قد تولى مسند الصدارة على عـهد السلطان مصطفى وعزل منها وتولى على جزيرة قبرس ثم حضر منهـا واليا على مصر فصعد إلى قلعة الجبل يوم الاثنين سادس شعبان سنة ست عـشرة ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف في الأمـر فكان مشـئوم الطالع قليل الحظ توقـف النيل عن الزيادة فى سنته فـضج الناس وعجوا وابتهلوا إلى الله بالدعاء وطلب الاستسقاء واجتمعوا على المقطم وغيره فاسـتجاب الله لهم فـى حادى عشـر توت وزاد النيل فكان من النوادر الغريبـة وقد أرخه بعضهم بهذين البيتين:

النيـل فى مـصـر وافـى فى تـوت حـادى وعـاشـر
والنـاس قـد أرخـوه للّـه جـبـر الخـواطـر

فروى بعض البلاد وهبط سريعا فشرقـت البلاد الأخر وحصل الغلاء وبلغ سعر الأردب القمح مائتين وأربعين نصف فضة والفول كذلك والعدس مائتى نصف فضة والشعير مـائة نصف فضة والأرز أربعمائة نصف فـضة وبيع اللحم الضأن كل رطل بثلاثة أنصاف فضة والجاموسى والبقـرى بنصفى فضة والسمن القنطار بستمائة نصف فضـة والزيت بثلثمـائة وخمسـين والدجاجـة بثمانيـة أنصاف. قـال الراوى: فكثر الشحاذون فى الأزقة وعزت الأقوات وعم الكرب واشتد الخطب على الفقراء وخشى الناس العاقبة بظهور الوباء فلم يقع شيء من ذلك.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وجاء الخـبر بعـزل رامى محمـد باشا فى رجب سنة ثمـان عشـرة ومائة وألف هجرية وشـاع القول بولاية على باشا فنزل محـمد باشا من قلعة الجـبل فى موكب عظيم وسكن فى بيت أحمد كتخدا العزب المطل على بركة الفيل بالقرب من حمام

السكران حتى قدم على باشا الوالى الجديد من طريق البحر وذهب الناس لملاقاته فأرسى بساحل بولاق يوم الاثنين تاسع شعبان من السنة وهو فى نحو ألف ومائة رجل خلاف الأتباع فلبث ببولاق إلى ثانى عشرى رمضان وركب فى موكبه وصعد إلى قلعة الجبل فأطلقوا المدافع لقدومه وزينت القاهرة ومصر ثلاثة أيام ولم يكد يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة على ساق بين وجاق العزب والمتفرقة . وتحرير الخبر أن شخصا من وجاق العزب اسمه محمد افندى من صغار الكتاب كان بعد عزله من منصبه تولى خليفة أى ثانى كاتب فى ديوان المقابلة وحصل له تهمة عزل بسببها من هذا الديوان أيضا فجعل يسعى ويجد حتى نال وظيفة سردار على طائفة العزب النازلين بالإسكندرية ثم كتخدا القبطان واتفق بعد ذلك أن سافر فى إحدى المراكب فشاع الخبر بموته غرقا فحلوا اسمه وماله من المعلقات فى بابه ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر وصعد إلى الديوان وصحح اسمه الذى فى سجلات العزب وجراياته ومتعلقاته وبقى له بعض تعلقات لم يقدر على خلاصها ولم يساعده أهل بابه على ذلك وأهملوا أمره فأعظم هذا الأمر وأكبره وذهب من فوره إلى تلك المتفرقة وطلب الانضمام إليهم وسألهم أن يخرجوه من العزب فأجابوه إلى ذلك فجعل يركب معهم كل يوم للديوان ويمر على باب العزب. وبينما هو ذات يوم سائر إلى الديوان إذ وقف له جماعة من العزب وقبضوا عليه وأنزلوه وحبسوه فى بابهم فبلغ الخبر جماعة المتفرقة وهم فى الديوان فحضر أمين بيت المال إلى باب العزب وكان يومئذ نائبا عن باشجاويش لتمرضه فعاتبه جماعة المتفرقة على ما فعله جماعة العزب فأغلظ عليهم في الكلام وخاطبهم بفحش القول فقبضوا عليه من أطواقه وأرادوا ضربه فحال بينهم وبين بعض المصلحين وخلصوه من أيديهم فنزل إلى باب العزب وأخبرهم بما فعله المتفرقة فاجتمعت طائفة العزب ووقفوا على بابهم فمر بهم اثنان من جماعة المتفرقة ذاهبين إلى منازلهما فهجم عليهما جماعة العزب وضربوهما ضربا مبرحا وأنزلوهما عن الخيل وشجوا رؤوسهما ونهبوا ما على الخيل من العدد وأخذوا ما عليهما من الملبوس فلما جاء الخبر للمتفرقة اجتمعوا مع بقية الوجاقات وجلسوا على باب الانكشارية ورفعوا أمرهم إلى الأغوات والصناجق وأهل الحل والعقد وبقوا على هذا الحال ثلاثة أيام إلى أن وقع الاتفاق على إبعاد أربعة أشخاص عن الديار المصرية وهم سبب إشعال نار هذه الفتنة فوافق الجميع

على هذا الرأى وصمموا عليه وبعثوا بهم إلى الصعيد الأعلى وانحسمت هذه الفتنة وكفى الله الناس شرها.

وأعقب هذه الفتنة ورود مرسوم السلطان بعزل على باشا الوالى فعزل فى أوائل رجب من السنة ثم حبس فى قصر يوسف بك وبيعت جميع موجوداته لوفاء ما عليه لبعض تجار القسطنطينية ثم أفرج عنه. ووردت الأخبار بولاية حسين باشا فقدم إلى الأسكندرية وجاء منها إلى القاهرة فى ثالث عشرى شعبان سنة تسع عشرة ومائة وألف هجرية فكانت ولاية على باشا سنة واحدة وأياما وكانت قبل قدوم حسين باشا المذكور بأيام قد وقعت فتنة أخرى بباب الانكشارية لها وكادت تشتعل نارها ويعلو لهيبها فتسارع الأغوات وأصحاب الحل إلى تسكينها خوفا من قدوم الوالى الجديد فيرى ما هى عليه البلاد من الخلل وعدم طاعة العسكر وعزلوا أحمد أوده باشا المشهور بأفرنج أحمد وحسين أوده باشا وأبعدوهما إلى الطينة بدمياط فسكنت الفتنة وخمدت نارها فلبثا بالطينة أياما ثم هربا وعادا إلى القاهرة واختفيا عند أغوات الشراكسة والتجأ أحدهما حسين إلى باب النفكشية فلما علم الانكشارية بقدومهما فارين اجتمعوا ببابهم وطلبوا رجوع فرنج أحمد إلى منفاه فلم تقبل طائفة الشراكسة وامتنعوا من تسليمه وقالوا لابد من نقله من وجاقكم وساعدهم على ذلك بقية الوجاقات فصمم الانكشارية على طلبهم ووقفوا ببابهم يومين وليلتين وكذلك فعل كل بلك ببابه فعم الخوف الناس وانقطعوا عن الخروج من بيوتهم وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وكاد ينقطع الوارد من المأكول والمشروب إلى القاهرة ومصر خوفا من عبث العساكر فاجتمع العلماء والمشايخ والتقوا بالصناجق والأعيان وخاطبوهم فى أمر العسكر وفيما كان عليه الناس من الخوف وما يتهدد راحتهم من هذه الفتن المتراكمة وسألوهم فى حسم الفتنة منعا من تفاقم الخطب وانتشار العامة والحرافيش فى الأسواق للعربدة والنهب ثم كلموا الباشا فى ذلك أيضا وألحوا فى الطلب فوقع الاتفاق على أن يولوا فرنج أحمد المذكور رئاسة طبلخاناة وأرسلوا له القفاطين مع كتخدا الباشا وأصحاب الدرك وأحضروه إلى مجلس الأغا وقرءوا عليه مرسوم الصنجقية وأنه إن خالف ولم يطع عوقب بغير معاودة فأطاع وقبل وخرج بموكب عظيم إلى بيته ونزل له الصنجق السلطانى والطبلخاناة فانحسمت الفتنة وسكن الاضطراب واطمأنت قلوب الخلق.

وكان الوالى يرى أنه غير مسموع الكلمة مقهور على جميع أعماله وأقواله ولا قدرة له على دفع هذا الخلل الضارب على البلاد فكان كثير التوجع والشكوى قلقا مضطربا لا يستقر له قرار حتى مال إلى وجاق الانكشارية واستمال كباره إليه واستخلصهم لنفسه ليقوى بهم على قمع الفتن ومنع الدسائس. فبينما هو يدبر هذا الأمر إذ وقعت الفتنة بين طوائف العسكر وكان من خبرها أن مملوكا لرجل من آحاد الناس وقف على دكان قصاب بباب زويلة يشترى منه لحما فوقع بينه وبين حمار عثمان أوده باشى نزاع أدى إلى المشاتمة ثم إلى الملاكمة فوصل الخبر إلى عثمان أوده باشى المذكور فأرسل أعوانه وأتباعه فقبضوا على ذلك المملوك وأحضروه إليه فأمر بحبسه فى سجن الشرطة فلما بلغ سيده خبر حبسه حضر هو وأولاده وأتباعه إلى باب صاحب الشرطة لخلاص المملوك فتطاول بعضهم على بعض بفحش القول ووقعت بينه وبين صاحب الشرطة مشاجرة فقبض عثمان أوده باشى على سيد ذلك المملوك ووضعه فى السجن وأعلم باش أوده باشى وكتخدا مستحفظان بما فعله فلم يرضيا بما وقع وأمراه بإطلاق المملوك وسيده على الفور فرجع وأخرجهما من السجن فاجتمع فى ثانى يوم الحادثة طائفة الجاويشية مع طائفة المتفرقة والاسباهية والأمراء والصناجق والأغوات فى الديوان وطلبوا إبعاد عثمان أوده باشى المذكور جزاء ما فعله من حبس ذلك المملوك وسيده فلم يوافق الانكشارية على ذلك ومانعوا فى إبعاده فوقع بينهم جدال طويل ثم صعدوا جميعا إلى الديوان وطلبوا عثمان المذكور للدعوى فحضر وأقيمت الدعوى بحضرة الباشا والقاضى فأمر القاضى بحبس عثمان كما حبس محمد جاويش سيد ذلك المملوك فلم يرض الأخصام بذلك وقالوا لابد من عزله وإبعاده فلم يوافقهم الانكشارية فطلب العسكر من الباشا أن يرسم بنفيه فأبى عليهم ذلك فنزلوا مغضبين واجتمعوا بمنزل كتخدا الجاويشية وأنزلوا مطبخهم من نوبة خاناه إلى منزل كتخدا صالح أغا وأقاموا به ثلاثة أيام وامتنعوا من الذهاب إلى الديوان ثم اجتمع أهل البلكات وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وصمموا على نفى عثمان أوده باشى المذكور ثم اجتمعوا على الصناجق واتفقوا على أن يكونوا معهم على طائفة الانكشارية وأرسل الأسباهية الرسائل إلى أصحابهم المحافظين على الكشاف بالولايات يلزمونهم بالحضور فلما شاع الخبر بذلك رسم الباشا بعزل عثمان أوده باشى المذكور إخمادا النار الفتنة فلم يغن عزله شيئا ووردت الأخبار إلى وجاق الانكشارية بأن العسكر على أهبة القتال وأنهم قد

تجهزوا لذلك فبعثوا هم كذلك يطلبون أصحابهم من الجهات فاجتمعوا على الأثر ومروا بالأسواق فانزعج أهلها وأغلقوا الحوانيت كافة واستمر أهل الوجاقات الستة يجتمعون ويتشاورون فى الأمر وكذلك الانكشارية كانوا يجتمعون بالباشا ويتشاورون معه فيما يفعلونه مع العسكر وفى كيفية قتالهم وبالغ كل من الفريقين فى التأهب والاستعداد. وقدم فى هذه الأثناء محمد بك حاكم الأقاليم القبلية فى جند كثير وأتباع وعدة وطلع إلى ديوان مصر على عادة حكام الصعيد المخلوعين ثم لبس الخلع السلطانية ونزل إلى بيته بالصليبة فظن الناس أنه إنما أتى بعسكره لقتال العسكر أو وجاق الانكشارية فخافوا وانكمشوا حتى كادت الأسواق كلها تتعطل وطال الحال بين أخذ ورد أياما فكانت الانكشارية لا تنفك عن مراقبة الحوادث والأخذ بصغائر الأمور وقد شاع أن بعض الأمراء يسعى للحصول على منصب إمارة الحاج بدلا من قيطاس بك المعتاد تقريره فى كل عام لهذا المنصب فلما علم الانكشارية بذلك اجتمعوا بسلاحهم ووقفوا خارج الباب الكبير على طريق الديوان كى لا يمكنوا أحداً من تولى إمارة الحاج خلاف قيطاس بك وعلم الصناجق والأمراء بذلك فخافوا شر العاقبة وأجمعوا رأيهم مع أهل الوجاقات الستة على نفى ستة أشخاص من الانكشارية وهم الذين بيدهم الحل والعقد وإخراجهم من مصر إلى بلد التزامهم تسكيناً للفتنة وعلم الانكشارية بما دبره هؤلاء فاجتمعوا فى بابهم أيضاً فى عدَدَهم وعِدِدهم فلم يهم الأمراء والصناجق أمر اجتماعهم وقالوا لابد من نفيهم أو محاربتهم واجتمعوا هم كذلك فى أبوابهم واستعد الانكشارية فى بابهم وشحنوه بالأسلحة والذخيرة والمدافع وأغلق أصحاب الحوانيت حوانيتهم وخلت الطرق من المارة ونقل جماعة الجاويشية مطبخهم من قلعة الجبل من النوبة إلى دار كتخدا الجاويشية وأقام الانكشارية منهم طوائف يحافظون على أبواب القلعة وباب الميدان والصحراء الذى بالمطبخ الموصل إلى القرافة خوفاً من أن العسكر يستميلون الباشا وينزلون إلى الميدان واجتمع الصناجق بعد ذلك وكبار العسكر واستقر الرأى بينهم على أن ينتدبوا محمد بك الذى كان بالإقليم القبلى لحصار القلعة من جهة القرافة على المقطم بالمدافع والعسكر فقبل ذلك وأسرع فى عمل الحصار فأتمه على أحسن ما يرام وخاف العسكر من وقوع النهب والفتنة بالمدينة إذا انتشب القتال بينهم وبين الانكشارية فألزموا مصطفى أغا الشراكسة بالتطواف فى الأسواق وفى شوارع البلد وحاراتها وأقاموا أحمد بك المعروف بإفرنج أحمد أغات التفكشية لحصار طائفة

الانكشارية من بابهم الموصل إلى المحجر وباب الوزير ومنعوا من يصل إليهم بالمدد.

أما الانكشارية الذين كانوا بالقاهرة فإنهم اجتمعوا بباب الشرطة واتفقوا على أن يدهموا العسكر المحافظين بالباب ويدخلوا إلى باب الانكشارية فلما بلغ الصناجق والعسكر ذلك انتدبوا إبراهيم الوالى ومصطفى أغات الجبجية فى طائفة من الأسباهية فنزلوا إلى باب زويلة وعلم الانكشارية الذين اجتمعوا فى باب الشرطة بنزولهم فتفرقوا واختفوا فجلس مصطفى أغا محل جلوس أوده باش وإبراهيم بك فى محل جلوس العسس وانتشرت طوائفهم فى نواحى باب زويلة وباب الخرق واستمروا على هذا الحال ليلة الأحد وأصبحوا وقد خرج نقيب الأشراف والعلماء وقاضى القضاة وأرباب الأشائر واجتمعوا بالشيخونية فى الصليبة وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم كتبوا فتوى بأنه إن لم يذعن الانكشارية إلى نفى المطلوبين وإلا جاز محاربتهم بغير معاودة. وأرسلوا الفتوى صحبة جوخدار قاضى القضاة إلى باب الانكشارية فلما قرئت عليهم فترت عزائمهم وانفشلوا وأذعنوا إلى إبعاد المطلوبين بشرط ضمانهم من القتل فضمنهم الأمراء والصناجق وكتبوا بذلك حجة وسلموها لهم ثم أنزلوهم إلى أمير اللواء إيواز بك ورضوان أغا فسارا بهم فى الحال إلى بولاق ومن هناك سيروهم إلى الريف فلبثوا حيناً ثم عادوا ففرقوهم على الوجاقات بعد رضا الأمراء والصناجق.

ولم تكن الفتنة قد سكنت تماماً حتى جاء الخبر بعزل حسين باشا الوالى وتولية إبراهيم باشا القبودان وأن يكون حسين باشا المعزول نائباً عن إبراهيم باشا حتى يحضر فحضر فى منتصف الحجة سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف هجرية وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد ونزل حسين باشا من القلعة إلى بيت الأمير يوسف أغا دار السعادة بسويقة عصفور وأمامه الصناجق والأغاوات وكثير من أرباب المناصب فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين وأربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً. ولم يستقر المنصب بإبراهيم باشا الوالى المذكور حتى أتاه الأمر بخلعه وتولية آخر اسمه خليل باشا وذلك فى الخامس عشر من رجب سنة اثنتين وعشرين فنزل ابراهيم باشا من القلعة إلى بيت عباس أغا ببركة الفيل وأقام به أياماً فكانت مدة تصرفه ثمانية أشهر لم يعمل فيها عملاً يذكر. ووصل خليل باشا وكان بصيدا والياً فأقام بالبر يوم الثلاثاء خامس شعبان سنة (١١٢٢) اثنين وعشرين ومائة وألف وصعد إلى القلعة فى

الموكب المعتاد فلم يمض على جلوسه إلا شهران حتى قامت الفتنة ثالثة بين أصحاب الوجاقات واستفحل أمرها وعم ضررها. وتحرير الخبر أنه فى صفر من السنة أى سنة ثلاث وعشرين اجتمع من يدعى حسن جاويش القازدغلى وآخر اسمه الأمير سليمان جريجى وآخر اسمه إبراهيم جوربجى وعقدوا النية على ترك خدمة باب مستحفظان والانتقال إلى خدمة أخرى فذهب إليهم اختيارية بابهم واستعطفوهم وسألوهم الرجوع عن هذا العزم فلم يقبلوا وصمموا على الخروج ثم طلب آخر اسمه موسى جوربجى الخروج كذلك فلم يرض رؤساؤه بذلك فذهب موسى إلى إبراهيم بك وإيواز بك وقيطاس بك فسألهم الوساطة فى أمره فلم يقبل رضوان أغا رئيسه إجابة طلبهم ومانع فى ذلك وشدد فى المنع فلما رأوا منه الشدة وعدم الرضوخ لطلبهم من إخلاء سبيل موسى المذكور اتفقوا على إغراء الوالى على عزل رضوان أغا وتولية على أغات الانكشارية سابقاً بدله وأن يعزل أيضاً سليمان كتخدا الجاويشية ويولى بدله إسماعيل أغا تابع إبراهيم بك فكلموا الباشا فى ذلك وألحوا عليه فى عزلهم فامتنع وقد كان اختيارية وجاق الجملية توافقوا مع الأمراء والصناجق على عزل رضوان أغا المذكور واجتمعوا ببيت باشجاويش واجتمع أهل كل وجاق ببابهم واستمروا على ذلك أياماً والوالى لا يجيبهم إلى ما يطلبون خوفاً من قيام العسكر عليه: أما الانكشارية الذين انتقلوا إلى العزب فإنهم اجتمعوا بباب العزب وقطعوا الطريق الموصلة إلى القلعة ومنعوا من يريد الصعود إلى باب الانكشارية من العسكر والأتباع فلم يبق فى الطريق الموصلة إلى القلعة إلا باب المطبخ ثم قصدوا سد السواقى لمنع الماء عن القلعة فمنعهم العسكر من الوصول إليها فكسروا آلات السواقى التى بعرب اليسار وخربوها وسار نفر من الانكشارية من طريق المحجر يريدون الصعود إلى قلعة الجبل فقبضوا عليهم وضربوهم وشجوا بعضهم فمضى أحدهم من طريق الجبل ودخل من باب المطبخ واجتمع بافرنج أحمد وبقية الانكشارية وأخبره بحالهم وما جرى لهم فأخذه جماعة منهم ورفعوا أمره إلى الوالى وقاضى القضاة وبالغوا فى الشكوى وعظموا البلوى فقال القاضى قد جاز قتال هؤلاء القوم حيث منعونا الماء وخرجوا عن طاعتنا وأخافوا الناس وسلبوهم فحقت محاربتهم. فلما فاض الخبر بذلك تقدم أحمد أوده باشا إلى الوالى فى محاربة أصحاب باب العزب فأذن له بذلك وتعوق القاضى عن النزول ولبث مع الوالى وخرج أحمد أوده باشا وشرع فى القتال وراسل الرمى بالمدافع على أصحاب باب العزب من بعد الزوال إلى

ما بعد العشاء واشتد عليهم شدة بالغة فقتل من جماعة العزب كثيرين وعم الخوف أهالى مصر والقاهرة وباتوا ليلتهم تلك وهم فى خوف ما عليه من مزيد وأصبحوا وقد اجتمع الأمير إيواز بيك أمير الحاج والأمير إبراهيم بيك أبو شنب وقانصوه بك ومحمود بك ومحمد بك تابع قيطاس بك الدفتردار وتحادثوا فيما أصاب أصحاب باب العزب واتفقوا على أن يلبسوا آلة سلاحهم ويذهبوا إلى الرميلة مددا للعزب على الانكشارية وهموا بذلك فأخبروا أن أيوب بك قد وضع المدافع على طريق المارين على منزله وعلى قلعة الكبش فامتنعوا من الركوب وجلسوا فى بيوتهم بسلاحهم خوفاً من طارق واستمر إفرنج أحمد يقذف نيران مدافعه على أصحاب باب العزب ثلاثة أيام بلياليها واجتمع على رضوان أغا طائفة من نفره وتذاكروا فيمن كان السبب فى إثارة هذه الفتنة فعرفوهم وهم أربعة من الاختيارية فخلعوهم وكتبوا لهم مرسوماً بأن يخرجوا من بيوتهم ثم ذهبوا إلى بيت قيطاس بك وأرسلوا من كل بلك اثنين من الاختيارية إلى منزل أيوب بك يطلبون رضوان أغا فأركبوه فى موكب حافل ثم عادوا إلى منزل أيوب بك وتناجوا فى أمر الصلح وكتبوا إلى أحمد أوده باشى الذى هو إفرنج أحمد بالكف عن القتال فأبى فكتبوا عرضاً إلى الباشا من جميع الصناجق وأغوات الوجاقات الخمسة بطلب الكف عن القتال فأرسل الباشا إلى الانكشارية بالكف فامتثلوا وتركوا القتال وتكلم الصناجق والأغوات المذكورون مع بعض الاختيارية من وجاق الانكشارية فى أمر الصلح فتقررت القاعدة بينهم على إرسال حسن كتخدا العزب وأحمد بن بقر رسلاً إلى المعسكر فى طلب ذلك فاجتمعوا بالعسكر والصناجق فى بيت إسماعيل بك وحضر معهم أيضاً جميع أهل الحل والعقد وتشاوروا فى إخماد نار الفتنة بالتى هى أحسن وأرسلوا إلى باب الانكشارية فى ذلك فقالوا لا نأبى الصلح بشرط أن هؤلاء الثمانية الذين كانوا سبباً فى إثارة هذه الفتنة لا يكونون فى باب العزب بل يذهبون إلى وجاقهم وأن يسلم الأمير حسن الأخميمى إلى الباشا يتصرف فى أمره كيف يشاء فأبى أهل باب العزب ذلك ولم يرضوه فأرسل الأمراء إلى إفرنج أحمد يشفعون عنده بأن الأشخاص المذكورين يرجعون إلى وجاقاتهم فقط ويعفون من النفى ومن القبض على الأمير حسن الأخميمى فلم يوافق افرنج أحمد على ذلك وقال إن لم يرضوا بشرطى وإلا حاربتهم ليلاً ونهاراً حتى أمحو أثرهم فتفرقوا على غير صلح وبقى الحال على ذلك أياماً ثم اجتمع جميع الأمراء بمنزل إبراهيم بك بقناطر السباع وتذاكروا فى أمر

الصلح على كل حال وكتبوا حجة علـى أن من صدر منه بعد اليوم ما يخالف رضا الجماعة يكون خصم الجمـاعة كلهم وكلموا أيوب بك فى أن يرسل إلى إفرنج أحمد بصورة الحـال وأن يكف عن القتـال إلى تمام الأمر المشـروع فيه فـبطل القتـال نحو الخمسة عشر يوماً وأخذ أفرنج أحمد فى خلال هذه الأيام فى تحصين جوانب القلعة وعمل المتاريس ونصب المدافع وتعـبية الذخيرة وقد ملأ الصـهاريج بالماء وصار على تمام الأهبة والاسـتعداد واتفق أن حـضر فى هذه الأثناء مـحمد بك حـاكم الأقاليم القبلية ونزل بفضاء البساتين ولبث به ثلاثة أيام ثم دخل القاهرة ومعه السواد الأعظم من العربان والمغاربة والهوارة فلم يكن بأسرع من أن جعل يقاتل كذلك بمن معه من جامع السلطان حسن ومن بـيت يوسف أغاة الجراكسة فلم يفلح وقـتل من أصحابه جماعة كثـيرة وانتصر عليه محمد بك المعروف بالصـغير مع من انضم إليه من أتباع إبراهيم بك وإيواز بك ومماليكه وكانوا قد تترسوا فى سوق السلاح ووضعوا المتاريس فى شبابيك الجـامع الذى هناك فانتقل محمد بك المذكـور وسار إلى طولون وتترس بها وهجم على طائفة العزب الذين كانوا بسبيل المؤمن فـوقعت بينهم موقعة عظيمة مات فيها خلق من الفريقين ولم يطق أهل العزب المقـاومة فتركوا السبيل وذهبوا إلى باب العزب فعند ذلك انكف محمد بك عن القتال وترك جماعة من أصحابه بالسبيل رباطا وسار بمن بقى إلى غـير ذلك المكان. ولما اشتد الحال وضـاقت أمور أهل البلد وكبر خوفهم سـار جماعة من كبارهم إلى الشيخ الخليفى أحـد كبار المشايخ وشكوا إليه ما يلاقيـه الناس فسار الشيخ الخليفى إلى إفرنج أحمـد وتكلم معه ومع من كان معه من الاختيارية فى أمر الصلح والكف عن القتال وشدد فى ذلك فرد عليه إفرنج أحمد ببـذئ الكلام وبفحش القول وأرسل فى الحال إلى أصـحاب المدافع أن يطلقوا مدافعهم على أصـحاب باب العزب وأن يوالوا رمى القنابل فجعلوا يطلقـونها تباعاً فانـزعج الناس كافـة وكبـر خوفـهم وقام سكان باب العـزب وأخذوا مـا خف من أمتعتـهم وتركوا بيوتهم ونزلوا بالمدينة وتفرقوا فى الحارات بالـقاهرة ومصر وأغلقت جمـيع الوكائل والخـانات والأسواق وخرج أكـثر السكان القـريبين من قلعـة الجبل كالرمـيلة والحطابة والمحجر هائمين علـى وجوههم وقد هدمت المدافع أكثـر بيوتهم وأحرقتـهم نارها وطاف الانكشارية يحرقـون ما بقى من تلك الدور ولـم يصب باب العزب شىء من ذلك إلا القليل من أماكنه ثم إن إفرنج أحمد وأيوب بك أقاما بعض أصحابهما بالمـدرسة بقوصون وجامع مزداره بسويقة العزى وجـامع قجماس بالدرب

الأحمر ليعطلوا الطريق على العزب واختار إفرنج أحمد جماعة من الانكشارية وأعطى لكل واحد دينارا وأرسلهم بعد الغروب إلى تلك الأماكن مدداً لمن بها وجعل هو يقاتل من كان مع الجانبكية. واتفق أن مرّ فى صباح ذلك اليوم رجل من أهل العزب ممن كانوا مرابطين فى جامع مزدارة من ناحية السلطان حسن يريد منزله فقبض عليه طائفة من الانكشارية وسلبوه ثيابه وتركوه عرياناً وبعثوا به إلى إفرنج أحمد فلما بلغ أهل العزب ما حل برجلهم أرسلوا طائفة منهم إلى المترسين بجامع مزدارة فدخلوا من بيت الشريف يحيى بن بركات ونقبوا منزل عمر كتخدا مستحفظان إذ ذاك وما يجاوره من الدور إلى أن وصلوا منزل مراد كتخدا فلما رآهم العسكر الذين كانوا بالجامع المذكور فروا هاربين وتركوا الجامع وما فيه من أسلحة وذخيرة. أما عمر أغاة الشراكسة ومن كانوا معه بجامع قجماس فإنهم بعد أن تترسوا وأحكموا متاريسهم بشبابيك الجامع فرقهم عمر المذكور جهة باب زويلة وجهة التبانة فوقع الخوف فى قلوب سكان تلك الجهة ونزحوا منها إلى حوارى القاهرة حتى ضاقت بهم فأرسل أهل العزب صالح جوربجى الرزاز بجماعة من عسكر العزب وآخرين ممن انضم إليهم من الانكشارية وغيرهم فقاتلوا من كان بجامع قجماس واستولوا على الجامع والمتاريس وأخذوا كذلك جامع المردانى وقهروا من كانوا فيه وأقام به طائفة منهم وأخرى بجامع أسلم وانتشرت طوائفهم بتلك الأخطاط والأماكن فسكنت خواطر أهلها واطمأنت قلوبهم قليلاً.

وهجم طائفة من تلك المتفرقة والأصبهانية على بيت الأمير قرا إسماعيل كتخدا مستحفظان فدخلوا من بيت مصطفى بك ابن إيواز ونقبوا الحائط بينه وبين بيت قرا إسماعيل المذكور فلما جاء الخبر إلى أهل العزب أرسلوا طائفة منهم ومعهم بيرق ومقدمهم أحمد جويجى فلم يتمكن أحمد من الدخول من جهة الباب فخرق صدر دكان هناك وتوصل منه إلى بيت أحمد افندى كاتب الشراكسة ثم نقبوا منه محلا توصلوا منه إلى حيث المتفرقة والأصبهانية فداهموهم وهم مشغولون بنهب الأثاث والأمتعة وهجموا عليهم هجمة واحدة فألقوا ما بأيديهم من السلب ورجعوا القهقرى إلى المكان الذى دخلوا منه فتبعوهم واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً إلى أن دارت الدائرة على طائفة المتفرقة والأصبهانية وتمزقوا كل ممزق ونهبت طائفة العزب بيت مصطفى بك المذكور حيث مكن المتفرقة والأصبهانية من الدخول إلى بيته وانتقل أحمد بمن معه من العسكر إلى قوصون ودخل جامع الماس وتحصن به وكان محمد بك حاكم

الأقاليم القبلية فى هذا الحين يغدو ويروح ما بين جامع الماس والصليبة فكمن له أحمد بطائفة من أصحابه بمنزل البيرقدار فى محل فيه يشرف على الطريق فلما مر بهم فى وسط قومه أطلقوا عليه البنادق فأصابوا أربعة من أصحابه فظن أن النيران أتت من بيت محمد كتخدا البيرقدار فوقف على بابه وأضرم فيه النار فاحترق أكثره ونهبوا ما فيه من أثاث وأمتعة ولحقت النار بالبيوت الملاصقة والمواجهة له فعلقت بها وعلا لهيبها وطار شررها إلى جميع بيوت تلك الخطة فأحرقت أكثرها من الرباع والدكاكين التى هناك من ناحية جامع الماس إلى تربة المظفر يميناً وشمالاً وأفسدت ما بها من أثاث ومتاع وما لم يحترق نهبه النهابة والحرافيش الذين كانوا يتبعون الحريق ويزيدونه ضراماً فكان المنظر مخيفاً جداً وخرجت النساء حاسرات مكشفات الوجوه هائمات فى الأزقة والحارات يطلبن الملجأ وعم النهب والسلب فى هذا اليوم إلى حد لم يسبق له مثال وتعطلت الطرق من المارة والهاربين من نيران الحريق وعلى الخصوص طريق بولاق القاهرة ومصر القديمة والقرافة فقد كانت ملأى بالأخلاط من طوائف الدجوية والهوارة وغيرهم الذين جاءوا مع محمد بيك حاكم الأقاليم القبلية كما تقدم القول وقد أحاطوا بأطراف البلد وصاروا يسلبون المارة واستاقوا جميع جمال السقائين وأخذوها فكان الخطب شديداً والكرب عميماً. وانقسم العسكر فى هذه الآونة إلى فريقين فريق مؤلف من إيواز بك وقيطاس بك وإبراهيم بك أمير الحاج سابقاً ومحمد بك وقانصوه بك وعثمان بك ابن سليمان بك ومحمد بك ومعهم بلوكات الأصبهانية الثلاثة والجاويشية والعزب والثانى من أيوب بك ومحمد بك الكبير وأغوات الأصبهانية ومحمد بك أغاة متفرقة باشى وأهل بلكة وسليمان أغا كتخدا الجاويشية وبلك الانكشارية المقيمين بقلعة الجبل مع إفرنج أحمد والوالى وقاضى القضاة ونقيب الأشراف وأغلقوا أبواب القلعة جميعها ما خلا باب الجبل فامتنع الناس من النزول من القلعة أو الصعود إليها إلا من الباب المذكور واستمر افرنج أحمد ومن معه يطلقون المدافع على باب العزب ليلاً ونهاراً وبالباب المذكور خلق كثيرون منتشرون حوله وحول ما قاربه من الحارات ورتبوا لهم جوامك تصرف إليهم فى كل يوم . ولما طال الأمر على هذا الحال واشتد البلاء على الرعية اجتمع الأمراء بجامع يشبك بدرب الجماميز وأجمعوا على خلع الباشا وتعيين نائب من الأمراء حتى يرد الأمر من السلطان بما يراه واتحدت كلمتهم على إقامة قانصوه بيك ثم ولوا أغوات البلوكات وأرباب الرتب والوظائف وأحكموا الترتيب فبلغ الخبر

أغوات الانكشارية فأعلموا خليل باشا الوالى به فكبر عليه وأعظمه وكتب إلى أغوات جميع البلكات الثلاثة يحضهم على قتال الصناجق ومن معهم لخروجهم على نائب السلطان ثم جمع جماعة للقتال ورتب لهم جوامك ومرتبات واتفق محمد بك حاكم الصعيد مع إفرنج أحمد على أن أحدهما محمد بك يهجم بأصحابه على طائفة العزب من طريق قراميدان ويكسر باب العزب الموصل إلى الميدان فوصل خبر ذلك أيضاً إلى طائفة العزب فاستعدوا وكمنوا على مقربة من بابهم فلما كان بعد العشاء الأخيرة هجم محمد بيك وأصحابه على الباب وكان جماعة العزب قد أحضروا شيئاً كثيراً من حطب القرطم وطلوه بالزيت والقار والكبريت فلما تكامل عسكر محمد بيك أوقد جماعة العزب النار فى ذلك الحطب فأضاء لهم قراميدان وصار كالنهار فأطلقوا على أصحاب محمد بك البنادق وأحكموا الرمى وتابعوه ففر جماعة محمد بك وتقهقروا وقد قتل منهم خلق كثير وأرسل خليل باشا إلى إبراهيم بك وإيواز بك وقيطاس بك يطلبهم إلى الديوان ليتفاوضوا فى الأمر فاعتذروا بما هم عليه من ترتيب أمور الدفاع وعدم فتح الطريق فلما أيس منهم جمع إليه أيوب بك ومن انضم إليه من العسكر واستقرت القاعدة بينهم على استمرار القتال حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً وبرزوا جميعاً إلى ظاهر القاهرة وأخذوا فى التأهب للقتال.

فلما كان يوم الأحد ثالث ربيع الأول أرسلوا أيوب بك ومحمد بك إلى العربان ليأتوا بجميع جمال السقائين وحميرهم ويمنعوا الماء عن البلد ففعلوا وأخذوا جميع ما وجدوه من الجمال والحمير فعز الماء وبلغ ثمن القربة خمسة أنصاف فضة فضج الناس وعجوا وابتهلوا إلى الله تعالى وكبر الأمر على أصحاب العزب فسار طائفة منهم إلى القصر العينى ليستخلصوا تلك الدواب وجلسوا يراقبون من يمر بهم من المتصبين فلم يكن بأسرع من أن دهمهم محمد بك بجماعة من طائفة الهوارة فدافعوا ساعة ثم هربوا وقد قتل منهم جماعة كثيرة وأرسلت رؤوسهم إلى الباشا قيل فسره ذلك جداً ورجع المنهزمون إلى بيت قانصوه بك وإيواز بك وأخبروا بما حل بهم فكبر الأمر على قانصوه بك وإيواز بك وصمما على البراز فركبا فى يوم الاثنين رابع عشر ربيع الثانى وخرج الفريقان إلى جهة قصر العينى والروضة واقتتلا قتالاً عنيفاً قتل فيه من العسكر خاصة زهاء الأربعمائة من الفريقين خلاف العربان والهوارة وغيرهم من الأخلاط وركب إيواز بك على محمد بك حاكم الأقاليم القبلية فانهزم محمد بك إلى جهة المجرى فساق خلفه وكان محمد المذكور قد أجلس

كميناً فوق المجرى فلما مر بهم إيواز بك أطلقوا عليه الرصاص وعلى من معه فأصابوه فى صدره فسقط عن جواده ميتاً وتفرق من كان معه فقام عليه من بالكمين واحتزوا رأسه وجاء الخبر بقتله إلى أصحابه ففترت عزائمهم وضعفت قلوبهم وذهبوا فى طلبه فوجدوه جثة بغير رأس فحملوه وذهبوا به وتفرقوا وتمزق جمعهم. أما جماعة الانكشارية فإنهم طلعوا بالرأس إلى مقر الباشا وأعلموه بما جرى ففرح وظن تمام الامر وسكون الفتنة بموت إيواز بك وأمر بالرأس فسلخ ثم طلبه أصحاب إيواز من أيوب بك فدفعه لهم فدفنوه مع الجثة. واشتد حزن أصحاب إيواز بك على فقده وكبر كيدهم مما حل به فاجتمعوا ببقية الأمراء وولوا ابنه بدله وتجهزوا للقتال فتجهز الفريق الثانى أيضاً وخرجوا فى يوم السبت تاسع عشر ربيع الثانى والتقى الجمعان فوقع بينهما أمور يطول شرحها فلما رأى جماعة العزب اشتداد الأمر وعدم التمكن من الوصول إلى قلعة الجبل وامتناع من بها وتوالى الرمى عليهم بالمدافع ليلاً ونهاراً اتحدت كلمتهم على أن يولوا كتخدا جديداً لطائفة الانكشارية ويجلسوه بباب الوالى بطائفة من العسكر وينادوا فى الشوارع أن كل من له علوفة فى وجاق مستحفظان يأتى تحت البيرق بالبوابة ومن لم يأت بعد ثلاثة أيام نهب بيته من غير معاودة ففعلوا ذلك وركب الكتخدا المذكور وألبسه قانصوه بك النائب قفطانا وسلمه البيرق فسار العسكر أمامه بالبيرق والمنادى ينادى بما ذكر إلى أن وصل إلى بيت الوالى . وعادوا إلى القتال فبرزوا إلى خارج القاهرة من باب قناطر السباع واجتمعوا بقرب قصر العينى بالمدافع وآلات الحرب واقتتلوا من ضحوة النهار إلى العصر فقتل من الفريقين خلق ثم افترقوا وعاد بعضهم إلى البلد وتخلف طائفة من العزب فأتىٰ إليهم محمد بك حاكم الأقاليم القبلية وأحاط بهم من كل جانب فلما بلغ الخبر قانصوه بك أرسل إليهم مدداً فقاتلوا محمد بك وهزموه شر هزيمة وتبعوه إلى قنطرة السد وكان أيوب بك فى هذه الأثناء متترساً بداخل التكية المجاورة لقصر العينى. فلما شاهد احتدام الوطيس فر ونجا بنفسه فأحرق طائفة العزب القصر ونهبوا ما فيه واستمر الحال على هذا المنوال أياماً متتابعة.

وأرسل قانصوه بك إلى من بالقلعة من الوجاقات يتهددهم بحرق بيوتهم ونهب ما فيها إن لم يتركوا ما هم فيه من القتال والعمل بإشارة إفرنج أحمد فاختلفت عند ذلك كلمتهم وخارت عزائمهم وأرسل قانصوه بك بعض الأمراء والعسكر إلى نهب بيت أيوب بك وغيره من بيوت الأمراء فاتصلوا بها من ربع يجاورها وأطلقوا على

من بها النيران فهرب أيوب بك وأتباعه فدخلوا ونهبوا ما فى البيت وعم النهب فى ذلك اليوم جميع دور الأمراء وأحرقوا منها ما قدروا عليه ونهبوا ما جاورها من الدور والربوع والدكاكين وغيرها وتقوت بذلك عزيمتهم فأرسلوا طائفة منهم إلى الجيوشى ومعهم بعض المدافع فجعلوا يطلقونها تباعاً على بيت الباشا وعلى قلعة المستحفظان وأحاطوا بالقلعة من أسفل ورموا بالبنادق فرفع الباشا عند ذلك على بيته بيرقاً أبيض يطلب الأمان وفر من كان داخل القلعة من العسكر فهجمت العساكر الخارجة على الباب واقتحموه عنوة ودخلوا الديوان فانزعج الباشا وأرسل القاضى ونقيب الأشراف يطلبان له الأمان فتلقوهما بالتكريم فقالا إن الباشا يقرؤكم السلام ويقول لكم إنا كنا اغتررنا بهؤلاء الشياطين وقد فروا والمراد أن تعلمونا مطلوبكم فلا نخالفكم فقالوا اعلما بأن الصناجق والأمراء والأغوات وسائر العسكر قد اتفقوا على خلعه وأن قانصوه بك يكون نائباً وأما الباشا فإنه ينزل ويسكن فى المدينة إلى أن تعرض الأمراء على الدولة ويأتينا الجواب فأرسل القاضى نائبه إلى الباشا يعرفه بذلك فأجابه بالطاعة واستأمنهم على نفسه وماله وأتباعه وركب من ساعته فى خواصه يقدمه قانصوه بك وأغات مستحفظان على يمينه وأغات المتفرقة على شماله واختيارية الوجاقات من خلفه وأمامه ونزل من باب الميدان إلى الرميلة على الصليبة وقد اصطف العامة على جانبى الطريق وهم يسبونه ويلعنونه ويخاطبونه بفحش القول إلى أن وصل إلى بيت على أغا الخزندار بجوار المظفر. وهجم بعد ذلك أصحاب العزب على باب مستحفظان فملكوه ونهبوا ما وجدوه فيه من متاع وغيره وقتلوا من صادفوه بالباب وبطريق المحجر من أصحاب الفتنة وطلع الذين كانوا بباب العزب من الانكشارية إلى بابهم فكانت عدتهم ستمائة ثم اجتمع الأمراء جميعاً ببيت قانصوه بك وكتبوا محضراً بصورة ما وقع وطلبوا من دار السلطنة إرسال وال آخر وانقضت الفتنة وسكنت الخواطر.

(مطلب)

ولاية والي باشا

ولبث خليل باشا محجوراً عليه بالقاهرة حتى جاء والى باشا من دار السلطنة وصرح له بالسفر فسافر فى ثامن عشر جمادى الأولى سنة أربع وعشرين ومائة وألف هجرية فكانت أيامه كلها فتناً وقتالاً وهى سنة وتسعة أشهر وأيام وكانت أيام

هذه الفتنة خمسة وسبعين يوماً. وطلع والى باشا إلى مقره بقلعة الجبل فى أواخر شهر رجب سنة ثلاث وعشرين ومائة وألف هجرية.

واتفق أن جلس فى مستهل شهر رمضان واعظ من الروم بجامع السلطان الملك المؤيد وأخذ يعظ الناس فكثر عليه الجمع وازدحم المسجد بالأتراك وصار يجلس كذلك فى كل عام ثم انتقل الوعظ إلى ذكر ما يفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء من إيقاد الشموع والقناديل فى القبور وتقبيل أعتاب الأولياء وغير ذلك وصرح بأن فعل هذا كله منكر يجب على الناس الإقلاع عنه وعلى ولاة الأمر السعى فى إبطاله وعرض بذكر ما قاله الشعرانى فى طبقاته أن بعض الأولياء اطلع على اللوح المحفوظ وقال إنه لايجوز ذلك أبداً وان الاطلاع على اللوح المحفوظ لا يمنح حتى ولا للأنبياء فضلاً عن الأولياء وندد ببناء القباب على أضرحة الأولياء والتكايا وجزم بهدمها وذكر أيضاً وقوف الفقراء بباب زويلة فى ليالى رمضان فكان لقوله وقع مهم فى قلوب السامعين وما أتم كلامه حتى خرج الناس بعد الصلاة ووقفوا بالنبابيت والمساوق والأسلحة على مقربة من باب زويلة فهرب الذين يقفون هناك فقطعوا الجوخ والأكر التى كانت معلقة وهم يقولون أين الأولياء فتأثر الناس من ذلك جداً وذهب بعض العامة إلى العلماء بالأزهر وحدثوهم بما قاله الواعظ الرومى وما فعله الناس بباب زويلة فأفتى الشيخ أحمد الغزاوى والشيخ الخليفى بأن كرامات الأولياء لاتنقطع بالموت وإن إنكار الواعظ المذكور اطلاع الأولياء على اللوح المحفوظ لا يجوز ويجب على الحكام كفه عن ذلك فأخذ بعض الناس تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو فى مجلس وعظه فلما قرأها غضب وقال: أيها الناس إن علماء بلدكم قد أفتوا بخلاف ما ذكرت لكم وإنى أريد أن أتكلم معهم وأباحثهم فى مجلس قاضى القضاة فهل منكم من يساعدنى على ذلك وينصر الحق فصاحوا جميعاً نحن معك لا نفارقك فنزل عن كرسيه واجتمع عليه من العامة خلق كثير ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت قاضى القضاة فانزعج القاضى وخاف وسألهم عن السبب لحضورهم فرفعوا له ورقة الفتوى وطلبوا منه إحضار المفتين والبحث معهم بحضرته فقال القاضى: لا بأس عليكم اصرفوا أولاً هؤلاء اللموم ثم نحضر من أفتى بهذه الفتوى فقالوا: وما تقول أنت فى هذه الفتوى؟ فقال هى باطلة قالوا: اكتب لنا حجة ببطلانها فقال إن الوقت قد فات والشهود قد انصرفوا. قال الراوى: وكان الذى يخاطبهم ترجمان القاضى فقبضوا على الترجمان وأوسعوه ضرباً وطلبوا

القاضى فهرب فقبضوا على النائب فكتب لهم حجة بما شاءوا فتفرقوا وانصرفوا واجتمعوا بعد ذلك لسماع الواعظ على عادتهم فلم يحضر فأخذوا يسألون عنه فقال بعضهم ربما منعه القاضى من الجلوس فقام فى الحال رجل منهم وقال: أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليتبعنى فتبعه الجم الغفير فمضى بهم إلى مجلس القاضى فدخلوا عليه وقالوا أين شيخنا؟ قال لا أدرى فقالوا قم واركب معنا إلى الديوان لنكلم الباشا فى هذا الأمر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين أفتوا بقتل شيخنا ونتباحث معهم فإن أثبتوا دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم فركب القاضى مكرها وتبعوه إلى أن طلعوا الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره فعرفه بقصة القوم الذين حضروا معه وما وقع منهم بالأمس واليوم وأنهم ضربوا ترجمانه وأخذوا الحجة قهراً وأتوا اليوم وأركبوه قهراً فأرسل الباشا إلى كتخدا الانكشارية وإلى كتخدا العزب وقال اسألا هؤلاء عن مرادهم فقالوا نريد إحضار الغزاوى والخليفى ليبحثا مع شيخنا فيما أفتيا به فرسم الباشا بإحضارهما وافترقوا على ذلك فأرسل الباشا بعد افتراقهم إلى إبرهيم بك وقيطاس بك يعلمهما بما حصل من العامة ويقول: إن لم يعاقب هؤلاء فلابد لى من السفر أنا وقاضى القضاة. أما العامة فإنهم نزلوا بمرسوم الباشا إلى جامع الملك المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه إلى كرسيه فصار يحضهم على الاجتماع فى غد بالمؤيد كى يذهبوا بجملتهم إلى القاضى ويحضهم أيضاً على الانتصار للدين وقمع طائفة المفسدين ثم افترقوا على ذلك. ولما وصل مرسوم الباشا بمعاقبة العامة إلى الأمراء اجتمعوا جميعاً ببيت الدفتردار وتناجوا فى الأمر فاتفقوا على أن تركب الأغوات وتطوف بالشوارع والحارات فمن وجدوه من أهل تلك العصابة قبضوا عليه وأن يطردوا كل من يجدونه فى جامع المؤيد من طائفة الترك فلما كان اليوم الثانى صباحاً ركب الأغا وأرسل الجاويشية إلى جامع المؤيد فلم يجدوا منهم أحداً وجعل يفحص ويفتش على أفراد المتعصبين فمن ظفر به أرسله إلى بابه فضرب بعضهم ونفى بعضهم ومازالوا كذلك حتى سكنت الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه.

وما كادت تطمئن القلوب بسكون هذه الفتنة حتى ظهرت فتنة أخرى ومحنة كبرى وذلك أن رجلاً من الأشراف تشاجر مع تركى فى سوق البندقانيين فضرب التركى الشريف فقتله وفر ولم يعلم أين ذهب فقام الأشراف كافة ووضعوا المقتول فى نعش وطافوا به الأسواق حتى طلعوا به إلى الديوان وأثبتوا القتل على القاتل فلم

يقفوا له على أثر فنزل الأشراف وأصبحوا وقد قفلوا الأسواق التى بالقاهرة وصاروا يرجمون أصحاب الحوانيت بالحجارة كى يقفلوا حوانيتهم ويضربون كل من عثروا عليه فى الطريق من المارة ومكثوا على هذا الحال يومهم وأصبحوا كذلك وأرسلوا إلى الأشراف القاطنين بقرى مصر ليحضروا ثم اجتمعوا بالمشهد الحسينى وخرجوا وأمامهم بيرق وساروا إلى بيت قيطاس بك الدفتردار فخرج عليهم أتباعه وطردوهم وهزموهم بعد قتال فرجعوا وقد عاثوا بالطرق وفعلوا ما لا خير فيه فلما تفاقم أمرهم وكادت الفتنة تتسع تحرك عليهم العسكر وركب أغوات الأصبهانية الثلاثة وأغوات الانكشارية فى عدَدَهم وعددِهم وطافوا المدينة فخاف الأشراف وتفرقت جموعهم ثم نادوا بالأمن والأمان وفتح الحوانيت ففتحت وسكنت الفتنة بعد أن كاد يستفحل أمرها.

وأعقب هذه الفتن المتراكمة والمحن المتوالية طاعون شديد أمات خلقاً كثيراً جداً وبقى على شدته بالقاهرة ومصر من ربيع الأول من السنة إلى أواخر جمادى الثانية ففتك فتكاً ذريعاً وعم وامتلأت البيوت والطرق بالموتى والدفن مستمر ليلاً ونهاراً فكانت شدة عظيمة للغاية ثم ارتفع وزالت بزواله ولاية والى باشا وجاءت الأخبار بعزله وتولية عابدين باشا فقدم إلى مدينة الإسكندرية ثم حضر إلى القاهرة فى صفر سنة خمس وعشرين ومائة وألف هجرية فنزل والى باشا وسافر إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه عشرة أشهر وأياماً. وأخذ عابدين باشا يتصرف فى الأمور فقدم له الأمراء كافة التقادم والتعابى النفيسة وقدم له إسماعيل بك أيضاً تقدمة نفيسة للغاية فاستعظمها عابدين باشا ومال إليه وأحبه واختص به ومال إلى طائفة القاسمية إرضاء لإسماعيل بك المذكور فجعل يوليهم المناصب العالية حتى ظهروا بمظهرهم القديم من الأبهة والتكريم وزال عنهم البأس ولازمتهم النعمة فصارت أمور البلاد على أحسن ما يرام واستتب الأمن وعم واطمأنت قلوب الرعية وكثرت الأقوات ودرت الأرزاق وارتفع الغلاء وزال الوباء وراجت أسباب التجارة وسلكت الطرق وأخصبت الأرض وأجادت فكانت أيام عابدين باشا المذكور كلها راحة وهناء.

(مطلب)

ولاية علي باشا

فلما كانت أخريات سنة ثمان وعشرين ومائة وألف جاء الخبر بعزله وولاية آخر

اسمه على باشا فأسف الناس لذلك وحزنوا عـليه ونزل عابدين باشا من قلعة الجبل عند ما وصل الخـبر بوصول على باشـا إلى الإسكندرية ثم سافر إلى الديار الرومـية قبل وصول على باشـا إلى القاهرة فكانت مدة تصرفه ثلاث سنين إلا شـهراً وسافر إلى الاسكندرية أرباب الخـدم والعكاكـيز وكـبار الأمـراء للقـاء على باشا المذكـور وحضـروا معه إلـى القاهرة فصـعد إلى قلعـة الجبل على الرسم المعتـاد واستـقر به المنصب والأمور والفتن نائمة والقلوب مطمئنة فلم تبق الحال كـذلك مستتبة إلا قليلاً حتى قامت الفتنة بين أهل بولاق القاهرة من حـارة الجوابر وبين بعض الجمالة أتباع أمـير الحـاج وذلك أن بعض سكان الحارة المذكـورة تشـاجروا مع نفـر من الجمـالة لأسباب طفيفة للغاية فأدت هذه المشاجرة إلى الملاكمة والمضاربة بالأيدى ثم بالهراوى والمساوق وعلا الصـياح واجتمعت الغوغـاء والحرافيش وكثرت الجلبة فـخرج لمعاونة الجمـالة أميـرأخور الاصطبل ومـعه نفـر من الأتباع فـقام عليـهم أهل الحارة كـافة وأوسعـوهم ضرباً بالمساوق فوصل خـبر ذلك إلى الأمير إسـماعيل بك أمـيـر الحاج فأرسل إليـهم أغات الأنكشارية والوالى فـقاموا عليهـما كذلك وضربوهمـا وكانت النساء فى هذه الأثناء يصـوتن بأعلى أصواتهن والصغـار يضجون ويسـبون كل من يحضر إليهم ويرجمون بالأحجـار فى الحارات ومن أعالى البيوت فعاد الوالى ورجع إليهم بطائفة من الجند وقصـدوا الحارة فتترس فيها أهلهـا وعلت الأصوات وصعدت النساء على أسطحة البيوت وصرن يرجمن بالأحجار فأطلق الجند البنادق فقتلوا عدة رجال ثم هرب من بقى فـدخلوا البيوت وأخـرجوا النساء والأولاد وحـملت النساء متـاعهن ثم قفلوا الأبواب ودقـوا فيهـا المسامير فـسكنت الفتنة ولما بلغ خـبرها من بالقاهرة ومصـر القديمة خافوا وظـنوا أنها من الفتن الكبرى فانكمشـوا ليلتهم تلك وتعطلت الأسواق حتى شاع الخبر بسكون الفتنة ورجوع الحال إلى سابق مجراه.

واتفق ان أرسل الوالى الخزينة السلطانية صحبة محمد بك ابن إبراهيم بك أبى شنب وكان بين محمد بك المذكـور وبين إسماعيل بك ابن إيواظ وعلى باشا الوالى نفور ووحشـة فلما وصل محمـد بك إلى دار السلطنة واجتمع بصدر الـدولة يومئذ وشى فى حق إسماعـيل بك وبالغ فى الوقيعة به وقال إنه إن استـمر على هذا الحال وطالت أيامه فى مصر استقل بملكها وأزال عنها نواب الدولة فقد تمكن منها وبث فى خدمتها أتباعه ومماليكه ومماليك أبيـه وأن لا حرمة للوالى عنده ولا كلمة فوق كلمته وقد أبعد كل من كان ناصحاً للدولة وصادقـاً فى خدمتها وجعل للدولة أربعة آلاف

كيس إن هى أزالت إسماعيل بك المذكور وخلعت على باشا الوالى وأتت بغيره قيل فأجابه الصدر الأعظم إلى ذلك وبقى الأمر مكتوماً بينهما إلى أن تعين أمير للحاج الشامى اسمه رجب باشا فرسم له الصدر بأنه إذا وصل مصر يعرج على القاهرة ويقبض علَى على باشا واليها ويقتله ثم يحتال على قتل إسماعيل بك ابن إيواظ مع جميع عشيرته ماعدا علي بك الهندى. ورجع محمد بك أبو شنب ظافراً مطمئناً وجاء رسول رجب باشا ومعه مرسوم بحبس على باشا الوالى وإقامة أحمد بك الأعسر نائباً فحبسوه فى قصر يوسف بك ثم جاء رجب باشا إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل فلما استقر به المقام أحضر على باشا بين يديه وكذلك خازنداره وكاتب الخزينة والروزنامجى ورسم بعمل حساب على باشا ثم أمر به فذبحوه ذبح الشاة واحتزوا رأسه وسلخوها وبعث بها إلى دار السلطنة. قال بعض الكتاب: فمات على باشا شهيد الزور والافتراء ودفن بمقام أبى جعفر الطحاوى بالقرافة قال: ويعرف قبره إلى الآن بعلى باشا المظلوم ثم رسم بضبط جميع مخلفاته واستحضر إليه خفية محمد شركس وشاوره فى كيفية قتل إيواظ بك وجماعته فدبروا له ولكن لم يتم له تدبير إذ اختفى ابن إيواظ مدة ثم ظهر ومعه فرمان السلطان بخلع رجب باشا فدفعه إليه وأنزله من قلعة الجبل إلى بيت مصطفى كتخدا عزبان ووكل به من يحرسه ولبث على هذا الحال أياماً إلى أن جاء للولاية من قبل الدولة محمد باشا البستانجى وذلك فى أوائل سنة ثلاث وثلاثين فكانت مدة ولاية على باشا المظلوم سنتين وبعض أشهر.

(مطلب)

ولاية محمد باشا البستانجي وخلع رجب باشا

ولما استقرت بمحمد باشا الولاية أبرز فرماناً سلطانيا بالعفو عن ابن إيواظ وسرح رجب باشا بالسفر فسافر مهاناً مرذولاً وقد كان استفحل أمر محمد بك شركس واعتز جانبه فى أيام رجب باشا فظهر بمظهر الكبرياء والعظمة والاستخفاف بأقرانه من الأمراء وكان حقده على الأمير ذى الفقار وقومه يزداد يوماً عن يوم فطلب من محمد باشا الوالى مرسوماً بالخروج على ذى الفقار المذكور وقتله فأبى محمد باشا ذلك فألح عليه فلم يقبل فقام من عنده يوماً مغضباً وانقطع من ذلك اليوم عن الصعود إلى الديوان وأهمله فغضب لذلك الباشا وأبرز مرسوماً بخلع محمد شركس

المذكور من منصبه وكتب إلى المشايخ وأرباب الوجاقات بذلك فلما علم محمد شركس بالخبر أسرع وجمع إليه أصحابه ورتب أموره وقام معهم وأحاطوا بالرميلة وحوالى قلعة الجبل ونادوا بخلع محمد باشا البستانجي ثم أنزلوه من القلعة وسجنوه فى بيت ابن الوالى وكان ذلك فى أخريات سنة سبع وثلاثين فكانت مدة تصرفه فى هذه المدة التى هى المرة الثانية أربع سنين وأرسل إلى محمد بك أبى شنب فخلع عليه وولوه النيابة وأخذوا منه مرسوماً بقتال ذى الفقار وأصحابه وأرسلوا من يقتله ويأتى برأسه فلم يظفروا به واختفى ذو الفقار فنهبوا داره وأخذوا ما فيها وكتبوا بصورة الحال إلى دار السلطنة وطلبوا أن ترسل لهم والياً آخر بدل محمد باشا البستانجي.

(مطلب)

ولاية علي باشا

وكان محمد باشا المذكور قد كتب أيضاً بصورة ما وقع فأرسلت الدولة آخر اسمه على باشا فدخل القاهرة فى أوائل المحرم سنة ثمان وثلاثين ومائة وألف هجرية فلم تستقر به الولاية حتى عمد إلى العزل والتنصيب فى الأمراء والحكام ونقض فيهم وأبرم والكلمة يومئذ لمحمد بك أبى شنب وإسماعيل بك ابن إيواظ. قال بعض الكتاب: ولما كان هذا العزل والتغيير لم يتناول إلا ذو الفقار وجماعته اجتمعوا وتشاوروا فى الأمر وتكلموا فى كيفية خلاصهم من فعال على باشا المذكور وقد تحققوا ما وراء ذلك من الخيبة إن هم تراخوا ومازالوا حتى أحكموا تدبير أمورهم وعلى باشا وبقية الأمراء فى شاغل عنهم بالمناصب وتفريق الوظائف والعزل والتولية ثم ظهر ذو الفقار من مخبئه واجتمع بمحمد باشا البستانجي المعزول ولم يكن إلى ذلك الحين قد سافر إلى الديار الرومية وكلمه فى أمر الخروج واضطرام نار الفتنة فاستقرت القاعدة بينهم على إعمال الحيلة على قتل كتخدا العزب فإذا تم لهم قتله امتلكوا باب العزب وظفروا بمقصودهم ثم جمعوا لذلك طائفة من الفقارية وأخرى من الشواربية وركب أبو دفيه أحد المقدمين عند فجر ذلك اليوم ومعه بعض الأمراء وقيطاس ذو الفقار وحوله عدة من الكبراء من قومه وربطوا الأربطة بالطريق الموصل إلى قلعة الجبل وساروا إلى الرميلة ووقفوا هناك فلما مر بهم كتخدا العزب المذكور تقدم إليه أحدهم ليسلم عليه وقبض على يده وتبعه آخر وضربه بسيفه فسقط على

الأرض فتركوه وتراكضوا جميعاً إلى الباب وأجلوا من كانوا عليه وامتلكوه ووصل الخبر إلى محمد باشا البستانجى فركب فى الحال وجاء إلى جامع المحمودية وأتى إلى على باشا من أعلمه بالخبر فنزل إلى باب العزب وهو فى دهشة وحيرة واجتمع جميع الصناجق وتشاوروا فى الأمر طويلا فلم يروا بدأ من أن يعيدوا الوظائف إلى ما كانت عليه تسكيناً للفتنة وقسموها بين الفقارية . واتفق أن قبطانا من قباطين دار السلطنة كان قدم إلى القاهرة فى نفر من العسكر السلطانى ولبث بها فلما ظهرت هذه الفتنة ووصل إليه خبرها ركب فى عسكره وأتى إلى جامع السلطان حسن واستقر به مع ذى الفقار بك وظهرت كلمة محمد باشا البستانجى فى الحال فجعل يقسم المناصب العالية ويتصرف فى الولاية وخلع على الأمراء أصحاب الفتنة ولبث على هذا الحال بجامع المحمودية مع أصحابه أياماً. فلما رأى محمد بك شركس أن قد تمت الحيلة ودارت عليه وعلى أعوانه الدوائر كبر عليه هذا الأمر جداً وجعل يتأهب للذب والقتال وسير من فوره إلى بيت قاسم بك عدة كبيرة من الجند والمدافع ورسم فأقاموا المتاريس عند درب الحمام وجامع الحصرية وهجمت عساكره على من كانوا بسبيل المؤمن بالبنادق حتى أجلوهم وهزموهم وهربوا إلى جهة القلعة وسوق السلاح ولكنهم تمكنوا من عمل متاريس عند مذبح الجمال ورموا على من كانوا بجامع المحمودية وتتابع الرمى من كل صوب وحدب فهرب المجتمعون بالرميلة وبنى أصحاب شركس المذكور المتاريس أيضاً عند وكالة بالأشكمنية ومازال فى دفاع وقتال حتى كاد يتم له الظفر بالفقارية وبدأت شارات النصر وعلائم الفوز والغلبة فبرز يوسف الجربجى البركاوى وألقى بنفسه وتسلق على باب العزب ونط الحائط تحت رمى البنادق واتصل بمحمد باشا البستانجى ومن معه بجامع المحمودية وطلب أن يعطوه مرسوماً إلى كتخدا العزب كى يعطيه بيرقاً ومائة مقاتل وضمن لهم إجلاء الذين كمنوا بسبيل المؤمن ثم يتحول بعد إجلائهم بمن معه إلى بيت محمد شركس فيخربه تخريباً بشرط أن يولوه منصب كتخدائية العزب إن عاد إليهم ظافراً فأجابوه إلى ما طلب فنزل بمن معه من باب الميدان وسار بهم من جانب تكية إسماعيل باشا ووقف بجانب باب كان هناك يوصل إلى الرميلة وطوى البيرق وهجم بمن معه على سبيل المؤمن يطلق النيران المتتابعة وهم يهللون ويكبرون فانزعج من كانوا بالسبيل وتحيروا فى أمرهم وولوا جميعاً الأدبار إلى درب الحصرية وأصحاب يوسف جوربجى فى أقفيتهم يعملون فيهم الضرب والطعن حتى جاوزوا جميع متاريسهم

ودخل بيت قاسم بـك فحولوا المدافع صـوبه وصعدوا منـارة جامع الحصـرية ورموا بالبنادق على البـيت فنزلت عند ذلك سـائر البيـارق من الأبواب وساروا إلى جـهة الصليبـة وطلع القبطان إلى قـصر يوسف بك ووضع مدفـعاً على بيت محـمد بك شركس وأطلق عليه الكلل تباعاً وقد كان قاسم بك أصيب برصاصة ممن كانوا بمنارة جامع الحصرية فمات فلما رأى محمـد شركس ما حل بقومه وما يترصده من المكاره خرج هارباً فخـرج معه محمـد بك الأعسر ومحمـد شركس الصغير وأخـذ جميع أمواله وذهب بأصحابه إلى ناحية مصر القديمة وعبروا النيل إلى الجانب الغربى خفية وركب محمد باشا البستانجى وصعـد إلى قلعة الجبل فى أهبة وكبكبة ثانية فنزل على باشا وسافر إلى جزيرة جريد وقبض ذو الفقار بك على زمام الأمور فارتفعت كلمته وظهرت بعد الخـمول والانكماش عظمته وبعث بمن يقبض على مـحمد بك چركس فجد الرسل السـير خلفه فلم يدركوه ورجعـوا فأخبروا أنه سار إلى الجـبل الأخضر ومنه إلى أدرنة وكان خـروج محمـد جركس المذكـور فى يوم السبت سابع جـماى الآخرة سنة ثمـان وثلاثين ومائة وألف فسكنت بعد خـروجه الفتنة وزالت أسـبابها ووقف كل عند حده. قال بعض الرواة: وهذه الفتنة كانت بإيعاز من دار السلطنة.

واتفق بعـد ذلك بقليل أن على بك المعـروف بأبى العـزب ومـصطفى بك ابن إيواظ ويوسف بك الخائن ويوسف بك ابن الشرابـى-وعبد الله أغا كتخدا الجـاويشية وسليمان أغـا أبادفية وهم جميعـاً من طائفة القاسميـة جلسوا على عادتهم فى بيت أحدهم على بك أبى العزب يشـربون الخمر فلما أخذ الشـراب-من عقولهم فى تلك الليلة تأوه مصطفى بك ابن إيواظ وقال: يموت أخى العزيز الصـغير والكبير ويصير الهندى مملوكنا سلطاناً على مصر وله الكلمة النافذة علينا والوالى فى قبضة يده وكان النيل قريب الوفاء فقال على بك: خفف عنك والله إنى لقاتل الباشا يوم جبر البحر فقال أبو دفية وإنى لقاتل ذو الفـقار وقال مصطفى بك وإنى قاتل الهندى مملوكنا ثم تحالفوا على ذلك وتعاهدوا على العـمل وكان معهم فى تلك الليلة مملوك من مماليك عبد الله بك وقد كان هرب عند قتل سيده ولحق بالهندى وأقام فى خدمته أياماً فلما ارتقى مصطفى بك المناصب العالـية أخذه من الهندى وجعله فى خدمتـه فلما سمع هذا المملوك ما تحالفـوا عليه ذهب إلى على بك الهندى وأعلمه بالخبـر فبعث به إلى ذى الفقار فأخـبره أيضاً فبعثه إلى مـحمد باشا فأخبره. فـلما كان يوم الديوان وقد صعد على بك أبو عزب إلى الخـدمة بالديوان أمر به الباشا فقبـضوا عليه وقتلوه من

ساعته تحت ديوان السلطان قايت باى وأحاط بداره ونهب ما فيها وكان شيئاً كثيراً للغاية وأرسل فى الحال مرسوماً إلى الأغا بالقبض على باقى أصحاب هذه المؤامرة فكان أول من قبض عليه منهم ابن إيواظ فأركبوه حماراً وأتوا به إلى الباشا فأمر به فقتل فى الحال واختفى الباقون فضعف بذلك جانب القاسمية وانحط قدرهم وعلت كلمة الفقارية ولم يبق ظاهراً من القاسمية إلا على بك الهندى فعمل ذو الفقار على قتله أيضاً فقتله وقتل معه آخرين.

واتفق أن عاد فى هذه الأثناء محمد بك شركس من فراره على ما تقدم بيانه فلما علم أصحابه برجوعه جاءوا إليه وأقبلوا جميعاً عليه فركب معهم ونزل إلى البحيرة يريد الإسكندرية فلاقاه حسين بك الخشاب فى جنوده يريد منعه والظفر به فهزمه جركس وغنم خيامه وخيله وجماله ثم هبط إلى الفيوم ونزل على بنى سويف ثم إلى القطيعة على مقربة من جرجا فاجتمع عليه من بقى منهم من القاسمية المتشردين فقام لصده حسين بك حاكم جرجا فركب عليه جركس المذكور وقاتله فقتل حسين بك وجماعة كثيرة من أتباعه وغنم جركس آلاتهم وجميع معداتهم وجاءت الأخبار بذلك إلى القاهرة فجمع ذو الفقار الأمراء وشاورهم فى الأمر فجهزوا لذلك عسكراً عظيماً صحبة عثمان بك وآخر اسمه على بك قطامش فتلاقوا مع جركس بوادى البهنسا واقتتلوا فكانت الهزيمة على عسكر ذى الفقار ومن معهم واستولى جركس على ما كان معهم من آلات الحرب والخيام والخيل وحال الليل بينهم فافترقوا ورجع المنهزمون إلى القاهرة فشق أمرهم على ذى الفقار وهاله جداً وجمع الأمراء ثانية واتفقوا على إرسال حملة أخرى ولكنهم لم يجدوا ما ينفقونه فطلبوا مرسوماً من محمد باشا البستانجى بثلثمائة كيس من مال الخزينة نفقة وعليهم رده من أموال السنة القابلة فامتنع الباشا فألحوا عليه فصمم على الامتناع فشكوا فلم يسمع فركبوا عليه وأنزلوه من قلعة الجبل وأقاموا محمد بك قطامش نائباً وأخذوا منه مرسوماً بالنفقة وجهزوا العسكر واهتموا بأمرها اهتماماً عظيماً فسارت هذه الحملة والتقت بجركس ومن معه فوقعت بين الفريقين حروب هائلة ووقائع متوالية انجلت عن هزيمة جركس وتبديد شمل جماعته وتمزيقهم كل ممزق.

(مطلب)

عزل محمد باشا البستانجي وولاية شاكر باشا

أما محمد باشا البستانجى فإنه بعد أن خلعوه أنزلوه من قلعة الجبل وحجروا

عليه أياماً حتى ورد الخبر بولاية باكر باشا وذلك فى سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه الثانية أربع سنين وأشهراً ووصل إلى مصر باكر باشا الوالى الجديد فكان وصوله فى خلال الفتن واشتداد الخطوب والمحن فلم يعمل عملاً يذكر لأن البلاد كانت فى شدة وضنك بأسباب الحوادث المتراكم بعضها فوق بعض ولم يستقر به المقام إلا أياماً قلائل حتى ثار من فى البلد من القاسمية المختفين وثار معهم سليمان أغا أبو دفية فدخل منهم جماعة على ذى الفقار بك وقت العشاء فى رمضان من السنة وقتلوه وكان ذلك بتدبير من محمد بك جركس وهو مختف جهة الشرقية ينتظر موعدهم بعد قتل ذى الفقار بك فقضى الله بموت جركس قبل أن يعلم بخبر موت ذى الفقار وذلك أنه لما بعث ذو الفقار قومه فى طلب محمد جركس المذكور شددوا فى البحث عنه وتتبعوا خطواته فكان ينتقل من جهة إلى أخرى حتى سار إلى الشرق ومعه جماعة من عربان خويلد فتبعه عثمان بك قطامش بعسكره وسالم بن حبيب البدوى وقومه فتلاقوا معه واقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً جداً انجلى عن هزيمة جركس ومن معه ففروا وألقوا بأنفسهم إلى النيل ونزل جركس بفرسه يريد العبور إلى الجانب الغربى من النيل فانغرز الفرس فى روبة تحتها الماء غزير فترجل عنه ليخلصه فسقط ومات غريقاً وكان على مقربة منه شادوف وعليه رجلان من الفلاحين ينقلان الماء إلى مزرعة لهما فنزلا إليه فوجدا الفرس وجركس ميتين ولم يعلما من هو فأخرجاه وأخذا ما عليه من الملابس وسلاحه وزرخه وما فى جيوبه ودفناه بالجزيرة ومر بها قارب صيد فطلباه ووضعاه فيه، وكان على بك جالساً بجانب النيل ومعه سالم بن حبيب فنظر سالم إلى القارب وهو مقبل فقال: ما هذا إلا سمكة عظيمة مقبلة إلينا فأوقفوا القارب فتقدم أحد الشدافين إلى على بك وقبل يده فقال له ما خبرك؟ قال وجدنا جنديا من المهزومين غريقاً ومعه حصان فلعله من المطلوبين وإلا ألقيناه فى الماء فقال لأحد أصحابه اذهب وانظر من هو فلعلك تعرفه فذهب وعاد فأخبر أنه محمد جركس الكبير وقد أحضر معه خاتمه فأمر به فأخرج من القارب وقبض على بك على أحد الشدافين وألزم الآخر باستحضار ما أخذه من الثياب والسلاح فأحضرها ثم أمر فاحتزوا رأس محمد بك جركس وغسلوا جثته ودفنوه ناحية شرونة وارتحلوا إلى القاهرة وكان القاسمية الذين بالقاهرة قد دخلوا على ذى الفقار وقتلوه كما تقدم القول ولبثوا ينتظرون قدوم محمد جركس وكان أبواب المدينة مقفلة وعلى كل باب منها صنجق والوجاقلية يطوفون فى الشوارع

وبأيديهم السيوف والقرابين المحشوة فلما وصل على بك قطامش إلى الآثار النبوية المعروفة عند العامة (بأثر النبى) أرسل يخبر بما جرى فخرج إليه عثمان بك ودخل صحبته بموكب حافل والرأس أمامهم محمولة فى صينية حتى طلعوا بها إلى قلعة الجبل ووضعوها بين يدى الباشا فخلع عليهم الخلع السمور ونزلوا إلى بيوتهم فأتتهم التقادم أيضاً من جميع الأمراء. قال أصحاب التاريخ : وكان جركس المذكور من أظلم خلق الله وأشدهم طغياناً وكان أتباعه على شاكلته فكانت أيامه شر الأيام وكانت الحروب فى عهده لا تقعد لها قائمة فاشتدت على الرعية الخطوب وتوالت المحن والكروب وتعاقب الغلاء وعم الويل والوباء واشتد البلاء وقتل البنون والآباء وكان موت محمد جركس المذكور فى أواخر سنة اثنتين وأربعين. أما الأمير ذو الفقار فقالوا أنه كان أميرًا جليل القدر شجاعاً بطلاً كريم الأخلاق مع قلة ثروته وعدم ظلمه وكان كثير الحسنات يرسل فى كل شهر رمضان من السنة لجميع الأمراء والأعيان والوجاقلية اليلكات والكساوى وللعلماء بالأزهر ستين كسوة ودراهم تفرق على الفقراء والمجاورين فكان محبوباً محترماً مهيباً نافذ الكلمة بكاه الناس كافة وحزنوا على فقده هذا ما كان من أمر الفتن بديار مصر.

أما ما كان من أمرها فى دار السلطنة فإنه لما تم لخصوم محمد باشا البلطه جى الصدر الأعظم النكاية به وعزله وتبعيده كما تقدم القول تولى الصدارة بعده عدة من الوزراء فلم تطل أيامهم ولم يفلحوا إلى أن تولاها على باشا دماد فأحسن التدبير وأصلح ما أفسده السلف وساق الجيوش إلى إخضاع أهل الجبل الأسود لتمردهم وخروجهم عن طاعة السلطان ثم سار لتدويخ البلاد التابعة لجمهورية البندقانيين وضمها إلى أملاك الدولة ومحو أثر الجمهورية المذكورة حيث كانت الدولة قد ملت من حروبها المتتابعة ففتح كثيراً من البقاع والقلاع كاستنديل وكورودوس وأتابولى وقتل وسبى وخرب ثم عاد إلى دار السلطنة ظافراً غانماً ولبث إلى أن زال الشتاء وكر راجعاً فى جيش عظيم لأخذ ما بقى من جمهورية البندقانية فلما علمت دولة النمسا بما وراء ذلك من استيلاء العثمانيين على خليج البندقانيين وأن هذا مما يفتح للعثمانيين بابا واسعاً لنقل مهماتهم وذخائر حربهم ويسهل لهم الهجوم على بلادهم ويغنيهم عن المجىء إليها عند طريق بلغراد وطمشوار أفاقت من غفلتها وراسلت الدولة العثمانية فى مجانبة الحرب مع جمهورية البندقانيين وأنذرتها بإنها إذا أبت ذلك أشهرت الحرب عليها فاستعظم الصدر هذا الأمر جداً وحول وجهه عن محاربة

البندقانيين إلى قتال النمسا فسار بجيوشه وشن الغارة على أملاكها فسيرت لقتاله جيشاً عظيما للغاية ومقدمه البرنس أوجين دى سافوا وهو من أكبر قواد ذلك العصر وأعظمهم خبرة بفنون الحرب والقتال فاشتبكت الحرب بين الفريقين واشتد القتال فانتصر النمساويون نصرة مؤزرة فى موقعة بتروارديين وقتلوا الصدر الأعظم فى ساحة الحرب ثم سار قائد الجيوش النمساوية إلى مدينة طمشوار فافتتحها بعد حصار أربعة وأربعين يوماً ثم نزل على مدينة بلغراد وحاصرها وشدد فى حصارها وكان قد تولى مسند الصدارة العظمى خليل باشا فحضر فى عسكر عظيم لاستخلاص المدينة ورفع الحصار عنها فلم يفلح وتغلب عليه العدو ودخل المدينة عنوة وأعمل فيمن بها من عساكر المسلمين السيف ووصلت الأخبار بذلك إلى القسطنطينية فعمدوا إلى طلب الصلح وأرسلوا إلى النمسا فى ذلك وكان الذى قد تولى هذا الأمر إبراهيم باشا نائب الركاب الهمايونى فاستكبر الجند هذا الأمر جداً وقالوا لا نترك طمشوار الجميلة فى أيدى الأعداء فأخذ الناس بقولهم ووافقوهم على استدامة القتال وتبعهم فى ذلك أيضاً طلبة العلم فسقط إبراهيم باشا فى يده وانفرد برأيه وبقى الكلام فى الصلح نسيا منسياً وأعيدت الحرب ثانية فانهزم العسكر الهمايونى هزيمة أشد من الأولى وانفشلوا وركبهم النمساويون بحد السيف فعادوا إلى طلب الصلح وكان إلى هذا الحين قد تولى إبراهيم باشا مسند الصدارة فعقد النمساويون الصلح بعد أخذ ورد فكانت شروطه شديدة على الدولة إذ تركت للنمسا ولاية طمشوار ومدينة بلغراد مع جزء عظيم من بلاد الصرب وآخر من بلاد الفلاخ وتركت لجمهورية البندقية ثغور شاطئ دلماسيا واسترجعت هى بلاد المورة ليس إلا. قال بعض الكتاب: ولو أظهرت الدولة يومئذ للعدو علامات القوة مع عزة النفس لتم عقد الصلح على وجه أليق بشرفها. فلما تمت شروط الصلح على هذه الصورة طمع الأعادى فيها واستخفوا بقدرها فتحركت دولة الروس إلى نكث العهود وسيرت سفيرها إلى دار السلطنة فى طلب إلغاء بعض الشروط المأخوذة على الروس فى معاهدة الصلح الأخيرة والتقى السفير بالصدر وكلمه فى الأمر وشدد عليه فى الطلب وقال إن لم تعجلوا بتعديل الشروط وإلا نقضناها بسيوفنا وكان الصدر الأعظم يكره الحرب ميالاً إلى الترف والراحة فخاف سوء العاقبة وأجابه إلى جميع ما طلب فلم يبق للدولة بعد ذلك شيء من الامتيازات والحقوق التى أريقت بسببها الدماء الكثيرة وقاتلت الأشهر والأعوام الطوال. قال بعض الكتاب: ومع أن المتاركة بين الدولة وخصومها

كان لأجل أن تتمكن الدولة من لم شعث جنودها لتقوى بهم على قمع الأعداء وإيقاف كل عند حده فقد كانت سبباً فى إدخال عوائد جديدة على الناس مالت بطباعهم إلى السفاهة وما شاكلها من نتائج الطيش فأصبح السواد الأعظم أسيرا للملاهى وعبدا للملاذ ففسدت الآداب وانحلت الرابطة الطبيعية القائمة بين الأزواج وزوجاتهم وبالغ الناس فى السرف والترف واندفعوا إلى تشييد المبانى الفاخرة والقصور العظيمة وأنشئوا القاعات الفسيحة المزينة بأنواع النقوش والرخام وغرسوا فى أطرافها الأزهار وأوقدوا فيها المصابيح وجعلوا ظهور السلاحف منائر لها فكانت تلك السلاحف تتجول فى طرق القاعات والجنائن والأنوار تسطع على ظهورها وتنبث مرتبة على أحسن نظام فكانوا لذلك يطلقون عليها اسم جراغان ومعناها الشموع. قال: وقد بنى إبراهيم باشا الصدر الأعظم قصراً جميلاً بجوار بشكطاش سماه بقصر جراغان فكان يأدب فيه فى كل سنة مأدبة حافلة للسلطان وأولاده فيأتى إليها للتفرج على تلك السلاحف الحاملة للأنوار فكان يقيم على هذه الحال أياما وكان هذا الدور فى دار السلطنة محسوباً من أحسن الأدوار صفاء وذوقاً إلا أنه قد أورث الدولة خللا والأمور خطلا والناس كسلا وذهب بكثير من حقوقها وامتيازاتها العظمى.

وانتبه الصدر الأعظم من رقدة ذلك الترف وسكرة تلك الملاذ فرأى أن دولة فارس قد انحلت أو كادت وأن الأفغانيين قد تغلبوا عليها واستولوا على أصفهان فخاف شر العاقبة واستعد لإرجاع ما كان فى حوزة الدولة العثمانية قديماً من البلاد والإيالات ودخلت فى يد فارس قبل أن يبتزها غيرها وسير لذلك جيشاً عظيماً فرافقه النصر وتغلب على عدة إيالات كهمذان وكنجه وروان وشروان وكورجستان وقام كذلك الروس واحتلوا ضاغستان وكافة سواحل بحر الخزر فلم تلبث تلك الإيالات تابعة للدولة حتى قام نادر شاه وتولى ملك فارس واستردها جميعها واسترد كذلك ما كان بيد الروس بعد حروب هائلة جداً كادت تخرب بسببها الأناطولى وغيرها وجعل نادر شاه من هذا الحين يشن الغارة على الحدود العثمانية ولا ينكف عن السلب وإراقة الدماء فكبر أمره على أصحاب الحل والعقد وأنكروا هذه الأحوال على إبراهيم باشا الصدر الأعظم ورموه بالمروق عن جادة العمل وتبعهم العامة فى ذلك فطعنوا فى الصدر وقالوا إنه ترك ما كان عليه أسلافه من الاعتناء بتدريب الجند وتنظيم أحوال المقاتلين وأنه منغمس فى الملاذ واللعب وقد عوّد السلطان على اللهو

والخلاعة وجعل مراتب الدولة ورتبة الوزارة فى أيدى الندامى بعد أن كانت لا تعطى إلا لأهل الخبرة والدراية بجميع الأمور والمستعدين للقيام بها من المجاهدين وأنه ترك لنادر شاه ما كان قد استولى عليه بالحرب والجهاد فلما أنس إبراهيم باشا منهم ذلك أخذ يستعمل الحيلة فضرب السرادقات الهمايونية فى إسكدار لإرهاب نادر شاه المذكور وأذاع السفر إلى بلاد فارس للانتقام منه ولبث على هذه الحال عدة أيام فاشمأزت من ذلك النفوس وتكدرت خواطر الناس وظهرت الفتنة فى القسطنطينية وتأججت نارها وارتفع لهيبها وكان بعض محبى الصدر الأعظم قد حذروه أمر الفتنة فلم يلتفت لقولهم وكذلك تقدم بعضهم إلى كتخدا بك وحذره وقال: إن الخطب شديد والفتنة قائمة فأنكر عليه ذلك وأنبه . واجتمع جماعة من أركان الدولة وأبلغوا السلطان ما كان عليه الناس عليه من الهياج والفتنة إن طال بقاء الصدر فى منصب الصدارة فلم يلتفت لقولهم نظراً لعلو مكانة الصدر عنده فانكمش أهل النصح ولبثوا ينتظرون ما يظهره القضاء وقد اتسع الخرق واشتدت نار الفتنة فرسم الصدر عند ذلك بإخراج البيرق الشريف. وهو بيرق صاحب الشريعة المحمدية، ونادى بالاجتماع حوله فلم يلتفت أحد للنداء وطاف العامة يفسدون وينهبون كل ما وصلت إليه أيديهم وكان زعيم هذه الفتنة رجلاً اسمه بطرونا خليل.

فلما كان خامس عشر ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية سير بطرونا المذكور إلى السراى السلطانية جماعة يطلبون قتل الصدر الأعظم والمفتى وقبطان باشا السفن الحربية فامتنع السلطان من إجابة الطلب فشددوا وهددوا وتوعدوا بما لا خير فيه فخاف السلطان شرهم ورسم لهم بقتل الصدر وأمير سفن الحرب ومانع عن المفتى فقتلوهما وألقوا جثتهما فى البحر على مشهد من جميع الناس. ولم تغرب شمس ذلك اليوم حتى عاد أهل الثورة إلى الهياج والجلبة والتطواف فى شوارع القسطنطينية .وهم ينادون بخلع السلطان وتنزيله عن منصب الخلافة وتولية ابن أخيه السلطان محمود الأول بدله ثم ساروا إلى السراى السلطانية وأبلغوه ذلك فأسرع إلى إجابتهم وخلع نفسه وبايع ابن أخيه بالملك وذلك فى ليلة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية وبقى معزولا إلى أن توفى فى أول المحرم افتتاح سنة اثنتين وخمسين ومائة وألف هجرية فكانت سلطنته زهاء سبع وعشرين سنة.



(الفصل السابع عشر)

(فى سلطنة السلطان محمود خان الأول)

ثم قام بالأمر بعد السلطان أحمد ابن أخيه السلطان محمود خان الأول ابن السلطان مصطفى بويع بالملك فى الليلة التى خلع فيها عمه ليلة التاسع عشر من ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وقد تولى الأمور فى اضطراب والأحوال فى اختلال ولا كلمة فوق كلمة البطرونا خليل فإنه منذ خلعه للسلطان أحمد وقتله للصدر الأعظم وأمير سفن حرب الدولة بسط يده على جميع الأمور وصار يتصرف فى أعمال الدولة كيف شاء فأكثر من العزل والتولية وسام الناس الخسف ولم يفرق بين الجليل والحقير فأمر ونهى وجار وظلمّ وكان إذا رأى من طوائف الانكشارية تذمراً بالغ فى التضييق عليهم وشدد وأوقع بكبارهم فيخافون ويخلدون إلى السكون صاغرين فلما ضاق بهم الخناق ونفد منهم الصبر اجتمع كبارهم حول السلطان وحببوا إليه قتل البطرونا خليل المذكور وكان السلطان يتمنى حصول ذلك فوافقهم فقاموا وركبوا عليه فقتلوه وتأهبوا لقتال أصحابه إن هم قاموا للأخذ بثأره فلم يقو أصحابه على الخروج وأوقعت بهم طوائف الانكشارية وأعملوا فى كبارهم السيف فعادت الأمور إلى سابق مجراها من الهدو والسكينة وأمن الناس على أرواحهم وأموالهم وانطلقت كلمة السلطان فتصرف ودانت له الأمور فسير الجيوش لقتال ملك فارس واسترجاع ما أخذه من الإيالات على أيام عمه السلطان أحمد فوقعت بينه وبين العسكر السلطانى عدة حروب كان النصر فيها لعسكر السلطان ثم أقام عثمان باشا الأعرج أحد مقدمى العسكر الموصوفين فى المعامع والحروب سر عسكر لجيوش الشرق فقاتل ملك فارس وظفر به فى صحراء كركوك ومزق شمل عساكره ففر ملك فارس مجروحاً ثم عاد فى جيش جرار للقتال ثانية فكانت الحرب بين الفريقين سجالاً وطالت أيامها فمات فى خلالها السر عسكر عثمان باشا وأرسلت الدولة إلى ملك فارس فى طلب الصلح فأجابها إليه بشرط رد جميع ما أخذته الدولة من مملكته وإرجاع حدود الدولتين إلى ما هو مذكور فى معاهدة إبراهيم باشا فتم الصلح على هذا الوجه وبطلت الحرب وارتفعت أوزارها.

ورأت النمسا أن الدولة بعد عقد الصلح مع فارس تفرغت أو كادت ولابد من أن تنوبها الشرور فخافت ولم تمهلها وحشدت فى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف جيشا عظيما واتفقت معها أيضا حنة قيصرة الروس على هذه الحرب فساقت عسكرها على عسكر الدولة تحت قيادة الجنرال مونيخ فجعل القائد المذكور يذيع الخبر بأنه سيجيء بهذه الغزوة دولة الروم القديمة ويعيد لها مجدها الأول ففرح بذلك الروم وأشرابت نفوسهم إلى هذا المأمول وتلقى أهالى البغدان عساكر الروس عند دخولهم إلى بلادهم بالفرح والقبول وسهلوا أمامهم السبل والعقبات فاشتبك القتال بين الروس والعثمانيين وتمزق جمع العثمانيين وأبلى فيهم الروس بلاء حسنا وأخذوا إقليم البغدان واحتلوا مدينة ياسى عاصمة الإقليم المذكور وانتصرت عساكر النمسا أيضا وأغارت على بلاد البوسنة والصرب والفلاخ فكبر كيد الدولة وكادت تسقط فى يدها، واتفق أنه تولى فى هذه الأثناء مسند الصدارة الحاج محمد باشا وهو من نخبة السياسيين المشهورين بالكياسة وحسن التدبير فرأى من تقهقر عساكر الدولة وانتصار الأعداء عليهم ما أدهشه فأسرع في حشد الجيوش وإعداد المعدات وسار لمنع تقدم العساكر الروسية وإيقافهم عند حدهم وسير فريقا آخر لقتال عساكر النمسا فظفروا بهم وانتصروا عليهم وانهزموا شر هزيمة وتقهقروا إلى ماوراء نهر الدانواب ثم ساق الحاج محمد باشا بعسكره فرافقه النصر وقيض الله له الظفر فركنت النمسا عند ذلك إلى طلب الصلح ووافقها أيضا على طلبه حنة قيصرة الروس وخابروا الحاج محمد باشا في أمره وسعت الرسل بين الفريقين وبعد أخذ ورد تمت شروطه على تنازل النمسا للدولة العثمانية عن مدينة بلغراد وجميع ما أعطى لها من بلاد الصرب والفلاخ بمقتضى المعاهدات السابقة لهذه الحرب وتعهدت كذلك قيصرة الروس بهدم قلاع وحصون مينا أزاق وعدم إعادتها مرة ثانية وبعدم إنشاء سفن حربية أو تجارية بالبحر الأسود أو ببحر أزاق وبأن ترد للدولة العثمانية جميع ما أخذته من الأقاليم والبلدان . قال أحد الكتاب: وسميت هذه المعاهدة معاهدة بلغراد ولما تم الصلح على ما ذكر بطلت الحرب وسكنت القلاقل أياما كثيرة .

(مطلب)

عزل أحمد باكير باشا وولاية عبد الله باشا التكفويرلي

وما كانت هذه الحروب المتابعة والخطوب المتواصلة لتشغل رجال الدولة عن

كثرة العزل والتولية فى ولاة مصر فإنه لما تولى السلطنة محمود خان كان الوالى على مصر من قبل السلطان أحمد باكير باشا فجاءه الأمر بالعزل وتولاها عبد الله باشا التكفويرلى فدخل القاهرة فى سنة ثلاث وأربعين ومائة وألف هجرية . قال أصحاب التاريخ : وكان من أرباب الفضائل وأصحاب المعارف العالية والعلم والشعر وله ديوان شعر جيد على حروف المعجم ومدحه شعراء مصر لفضله وميله إلى أهل العلم والأدب فقال بعضهم.

ولما جاء مصرا أرخوه لقد سعدت بعبد الله مصر

٣٣٠ ٦٦ ٧٨ ٥٣٤ ١٣٤

سنة ١١٤٢

وكان خيرا صالحا منقادا للشريعة أبطل المنكرات وحانات الخمارين ومواقف المومسات والبوظ من بولاق وباب اللوق وطولون ومصر القديمة وجعل للوالى والمقدمين عوضا عما كان مرتبا لهم على تلك المحال فى كل شهر كيسا من كشوفيات الباشوات وكتب بذلك حجة شرعية ولعن فيها من تسبب فى إعادة تلك المحال ولم يحدث فى أيامه شىء يذكر إذ كانت قصيرة جدا حيث عزل فى أواخر سنة أربع وأربعين ومائة وألف هجرية.

(مطلب)

عزل عبد الله باشا وولاية محمد باشا السلحدار

وتولى بعده محمد باشا السلحدار والى البصرة فدخل القاهرة فى أوائل سنة خمس وأربعين ولبث يتصرف إلى سنة ست وأربعين ولم يعمل فى أيامه عملا يذكر وجاء الخبر بعزله وتولية عثمان باشا الحلبى فحضر إلى مصر عن طريق العريش ونزل بالعادلية ولاقته أرباب العكاكيز وأصحاب الوظائف فصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل ونزل منها محمد باشا المعزول وسافر إلى الديار الرومية فأخذ عثمان باشا يتصرف وجاءه فرمان السلطان باحصاء اليهود والنصارى وجمع ما عليهم من الجزية فى كل بلد العال أربعمائة نصف وعشرون نصفا والوسط مائتان وسبعون والدون مائة نصف فاهتم عثمان باشا بالأمر وقيد بذلك عمالا فطافوا البلاد كافة وأحصوا أهلها وفعلوا من الجور والعسف بأهل البلاد ما لا يكيف فضج الناس وشكوا فلم يلتفت إليهم وظل الحال على ذلك حتى دخل شهر رمضان واشتغلوا بظهور رجل

تكرورى بالجامع الأزهر يدعى النبوة وقد ذاع خبره وكادت تعم شهرته فأحضروه بين يدى الشيخ أحمد العماوى فسأله عن حاله فأخبره أنه كان فى شربين فنزل عليه جبريل وعرج به إلى السماء ليلة سابع عشرى رجب فصلى بالملائكة ركعتين وأذن له جبريل فلما فرغ من الصلاة أعطاه ورقة وقال له أنت نبى مرسل فأنزل وبلغ الرسالة وأظهر المعجزات فلما سمع الشيخ كلامه قال له أنت مجنون فقال لست بمجنون وإنما أنا نبى مرسل فأمر به فضربوه وأخرجوه من الجامع فجعل يطوف الأزقة والحارات ويكثر من الجلبة والصياح فسمع عثمان كتخدا بخبره فأحضره وسأله فقال مثل ما قاله للشيخ فبعث به إلى دار المجانين فاجتمع الناس وكثرت حوله العامة رجالا ونساء وكادوا يصدقونه ويدفعون عنه الإيذاء فخاف الوالى شر العاقبة وأمر فأخفوه عن أعين الناس لتسكن الفتنة ثم طلبه الباشا وأمر بحبسه فحبسوه ومنعوا من دخول أحد إليه أياما، فلما كان النصف من رمضان اجتمع العلماء وأحضروه بين أيديهم فسألوه فلم يتحول عن كلامه فعالجوه فشدّد فأمروه بالتوبة فامتنع وصمم على ما هو عليه فأمر الباشا بقتله فقتلوه فى حوش الديوان وهو يقول : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل. ثم أنزلوه وألقوه بالرميلة ثلاثة أيام فكاد الناس يفتنون ولم تهدأ الخواطر حتى شاع بين الناس بالقاهرة ومصر القديمة أن القيامة قائمة يوم الجمعة سادس عشرى ذى الحجة من السنة أى سنة سبع وأربعين وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والأرياف وودع الناس بعضهم بعضاً وهم بين راغب فى التوبة وداع بطلب المغفرة وباك على ما فات من أيامه ومنهم من كان يقول لرفيقه بقى من عمرنا يومان فقد كانت هذه الأشاعة فى يوم الأربعاء رابع عشرى الحجة. وانتشر أهل الخلاعة فى الجنائن والمتنزهات ليودعوا الدنيا كما كان يقول بعضهم لبعض وخرج أهل الجيزة نساء ورجالا وصاروا يغتسلون فى النيل ومن الناس من علاه الحزن والوهم واعتقدوا صحة الإشاعة ووقع صدقها فى نفوسهم موقعا عظيما وكثر فيها الهرج واشتد بهم الخوف فتعطلت الأعمال وكادت تقفل الأسواق وما زالوا على هذا الحال إلى يوم الجمعة فلم يقع شىء مما كانوا يتوقعون ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت فلم يقع كذلك شىء. قال صاحب عجائب الآثار: فانتقلوا يقولون فلان العالم قال: إن سيدى أحمد البدوى والدسوقى والشافعى تشفعوا فى ذلك وقبل الله شفاعتهم فيقول الآخر اللهم نفعنا بهم فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا وشارعون فى عمل حظ ونحو ذلك من الهذيانات أهـ.

(مطلب)

عزل عثمان باشا وولاية باكير باشا الولاية الثانية

وأقام عثمان باشا يتصرف فى الولاية إلى سنة ثمان وأربعين ومائة وألف هجرية ثم عزل وتولى بعده باكير باشا وهى ولايته الثانية فكانت مدة تصرف عثمان باشا سنة وخمسة أشهر وحضر باكير باشا من جدة إلى السويس إذ كان واليا بجدة بعد عزله من ولايته الأولى على مصر وكان دخوله القاهرة فى يوم السبت رابع عشرى شوّال سنة سبع وأربعين ومائة وألف وصعد إلى القلعة فى موكب حافل للغاية وخلفه من الحشم والأتباع زهاء الثلاثين على ظهور الخيل الملبسة بالزروخ المذهبة وله من الأولاد خمسة ذكور ركبوا أيضا أمامه فلما مر من وسط المدينة صاح الناس فى وجهه وعلا صراخ العامة من ثقل المغارم والكلف وفساد العملة فلم يلتفت لصراخهم وسار حتى صعد القلعة ولم يلبث حتى جعل يدس الدسائس بين الأمراء وصار يعمل على فساد أمورهم وتفريق كلمتهم ومازال حتى كاد يتم له ما أراد ولكن ظهر فى غضون ذلك الطاعون وفشا فى المدينة وانتشر فى البلاد قاطبة وفتك بالناس فتكا ذريعا لم يسبق له مثال فسماه العامة طاعون كو وسموه أيضا الفصل العائق يأخذ على الرائق ومات به خلق كثير للغاية وكان فعله كثيرا فى الأعيان فكانت الناس تدفن الموتى فى ضوء المشاعل حتى كاد لا يوجد من يدفن الموتى التى كانت تقع فى الشوارع والحارات واشتد شدة بالغة جدا وطالت أيامه. وبينما الناس على هذا الحال من الشدة وهم يضجون ويعجون إلى الله من كثرة الموات إذ اضطرمت نار الفتنة بين الأمراء وعلا لهيبها واشتد سعيرها. وتحرير الخبر: أن كاشفا اسمه صالح زوج ابنة إيواظ بك كان ملتجئا إلى عثمان بك ذى الفقار وكان صالح هذا من القاسمية فحرضته زوجته على طلب إمارة القاسمية فطلب من عثمان بك أن يساعده على ذلك فوعده وخاطب محمد بك قيطاس المعروف بقطامش وهو إذ ذاك كبير القوم فى ذلك فلم يجبه خوفا من أن يعود القاسمية إلى مظهرهم القديم فيظفروا بالفقارية ويستأصلوا شأفتهم بعد الذى وقع بين الفريقين فبعث عثمان بك بصالح المذكور إلى البحيرة كاشفا نائبا عنه حيث كانت له فلما كملت السنة رجع إلى القاهرة وتحركت همته إلى طلب الإمارة وألحت عليه زوجته فى ذلك فعاود عثمان بك فى الخطاب وهو تكلم مع محمد بك فصمم محمد بك على الامتناع ووافقه على ذلك على بك تابعه وآخر اسمه خليل افندى فذهب صالح

المذكور إلى عثمان كتخدا القزدغلى وشكا إليه حاله وما يلاقيه من قيطاس ثم بكى واستمال عثمان كتخدا المذكور تابعه وخليل أفندى على أن يكونوا معه على قيطاس فقام القزدغلى من ساعته واجتمع برضوان بك أمير الحاج سابقا وسليمان بك الفراش وتكلم معهما فى أمر قتل المذكورين فوافقاه على أن يكون قتلهم فى بيت محمدبك الدفتردار على علم من باكير باشا الوالى وأخبروا محمد بك بذلك فرضى وكتب يطلب اجتماع الأمراء كافة فى بيت الدفتردار للمداولة فى أمور الخزينة فركبوا جميعا إلى بيت قيطاس بعد العصر ومن هناك توجهوا معه إلى بيت الدفتردار فلما تكاملوا ولم يبق منهم أحد أمر محمد بك قيطاس بتحرير عريضة وأملى الكاتب بصورة ما يكتب فخرج الكاتب وكان قد دخل الغروب فأراد القوم الانصراف فوقف الدفتردار وقال: مهلا هاتوا لنا شربات وكان هذا القول هو الإشارة مع صالح المذكور وعثمان كاشف وآخر من مماليك سليمان بك ففتحوا باب خزانة كانت بالمكان الجالسين فيه فخرج منها جماعة على رؤوسهم طرابيش وبأيديهم الأسلحة فوقف عند ذلك محمد بك قيطاس على أقدامه مذعورا فأطلق عليه أحدهم طبنجة فى صدره ووقع الضرب وهاج من كان فى المكان وامتلأ المكان بدخان البارود وظلام الليل فلم يعلم القاتل من المقتول وألقى على الترجمان بنفسه من شباك مطل على الجنينة وأصاب عثمان بك ذا الفقار ضربة سيف قطعت شاشه وقاووقه فأخذ بيده صالح صاحب هذه الفتنة وأنزله فنجا بنفسه وركب حصان أحد الطوائف وخرج من باب البركة وأصيب مستحفظان البرلى بجراح عظيمة فحملوه إلى بيته ثم أوقدوا الشموع ونظروا إلى الأموات وإذا هم محمد بك قيطاس وعلى بك تابعه وصالح بك وعثمان بك كتخدا القازدغلى وأحمد كتخدا الخربطلى ويوسف كتخدا البركاوى وخليل افندى وأغات الجملية وعلى صالح جربجى والأسباهى فكانت عدتهم عشرة غير مستحفظان البرلى الذى مات بجراحه بعد ثلاثة أيام فعرفوا المقتولين من ثيابهم واحتزوا رؤوسهم وأتوا بهم إلى جامع السلطان حسن فوجدوه مغلقا فأحرقوا الباب الذى جهة سوق السلاح ووضعوا الرؤوس العشرة على الدرج ووضعوا عند كل رأس شيئا من التبن ولما شاع الخبر بما جرى سار صالح كاشف رأس هذه الفتنة إلى باكير باشا ليلا من باب الميدان وأعلمه بما جرى فخلع علية رتبة الإمارة فطلب منه مالا يفرقه على العسكر المجتمعين إليه فوعده بأن يرسل إليه ما طلب فنزل صالح إلى جامع السلطان حسن فوجد محمد كتخدا الداودية وأتباعه وجماعة آخرين فلبث معهم ينتظر المال وصعد عمر جلبى بن على

بك قيطاس بطائفة من قـومه إلى باكير باشا يطلب بثأر أبيـه وكان وصوله بعد نزول صالح كاشف فـخلع عليه الباشا إمـارة أبيه قيطاس ورسم له بقتـال قاتلى أبيه ومن معهم وكان يود لو أنهم يقطـعون بعضهم بعضا فنزل ابن قيطاس وأصـحابه وأمامهم بيرق مـن المحجر خلـف جامع المحمـودية وبيت الحصـرى وزاوية الرفاعى وعـملوا متاريس على باب الدرب قـبالة باب جامع السلطان حسن وجعـلوا يطلقون بنادقهم تباعًا على كل من يمر بهم من الخصوم وعلى من هم بجامع السلطان حسن وكذلك من باب العزب وبيت الأغا.

(مطلب)

عزل باكير باشا وولاية مصطفى باشا أميراخور

أما صـالح كاشف رأس هذه الفـتنة فإنه لبث ينتظر حـصول المال للنفـقة على الجند فلم يرسل له الباشـا شيئا فخاف وخـشى العاقبة ونزل إلى خـان الخليلى ومعه رضوان بك وعثمان كاشف ومملوك من مماليك سليمان بك واختفوا وظل ابن قيطاس وأصحابه يوالون الرمى على الجامع حتى انقطعت أصوات بنادق من كانوا به فاقتحم هو وأصحابه باب الجـامع فلم يجدوا به أحدا فرجعوا وبـاتوا ليلتهم خلف المتاريس فلما أصبحوا ذهبوا إلى بيت الدفتـردار ونهبوه ونهبوا بيت رضوان بك ودخلوا على سليمان بك فـقتلوه واحتزوا رأسـه ونهبوا ما فى بيتـه فلما رأى كبار الوجـاقات ما بلغت إليه هذه الفتنة وأنها إنما هى بإيعاز من باكـير باشا قاموا على قدم رجل واحد وأحاطوا بالقلعة وأنزلوا باكير باشا ذليلا مـقهورا وسجنوه وكتبوا إلى دار السلطنة بما وقع وطلبوا إرسال وال آخر فـأرسل السلطان الأمير مصطفى باشا أمـيراخور لضبط أموال من قتلوا فى هذه الفتنة فلبث شهرين ثم ورد الأمر بولايته فتولاها فكانت مدة تصرف باكير باشا سنة وبضعة أشهر .

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية سليمان باشا الشامى المعروف بابن العظم

وجعل مـصطفى باشا المذكور يتـصرف إلى سنة اثنتين وخمسـين ومائة وألف هجرية ثم عزل ولم يقع فى أيامه شىء يذكر وتولاها سليـمان باشا الشامى المعروف بابن العظم فلمـا استقـر به المنصب عمد إلى إيقـاد نار الفتنة ثانيـة بين أمراء الوقت

وجعل يدبر لذلك فاستمال إليه عمر بك ابن على بك قطامش واختصه لنفسه ثم كاشفه بما فى ضميره واتفق معه على قتل عثمان بك ذى الفقار وإبراهيم بك قطامش وعبد الله كتخدا القزدغلى وعلى كتخدا الجلفى وهم إذ ذاك أصحاب الرئاسة ووعده إمارة مصر والحاج إن هو أنفذ ذلك فجمع عمر بك أربعة من أخصائه وأطلعهم على ما وقع الاتفاق عليه مع الباشا فتعهد كل واحد بقتل واحد منهم فكان أول من قتل منهم على كتخدا قتله رجل اسمه لاظ إبراهيم عند بيت اتبرى وهو صاعد إلى الديوان وشاع خبر قتله ففرح الباشا بذلك ظنا منه أن قد قضى الأمر فهم بضبط باب العزب وسير لذلك مائتى جندى فمنعهم جند الباب من العبور وطلب متولى الباب اثنين من كبارهم يسألهما عن مرادهم فقالا: إننا أتينا لتشفع لنا عند الباشا فإنه لم يعطنا علائفنا فأرسل معهم من يشفع لهم فلم يفلحوا فى هذه المرة ثم انكشف أمر الباشا وانفضح سره فقام حسين بك الخشاب وصعد إلى باب العزب ومازال بمتوليه حتى أنزله وتولى هو أشغال الباب وجمع إليه جميع أصحابه بالمكان الذى كان فيه الباشا وأرسلوا يقولون له انزل إلى قصر يوسف بك فركب من ساعته وأراد العبور من باب الانكشارية فوجهت أصحاب الباب أفواه البنادق نحوه فعاد ودخل قصر يوسف بك ثم نزل بعد أيام إلى بيت البيرقدار ومازال به حتى سافر إلى الديار الرومية فكانت مدة تصرفه إلى شهر جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف هجرية وكانت أيامه كلها قلاقل واضطرابات.

(مطلب)

عزل سليمان باشا وولاية على باشا حليم أوغلى

وتولى بعده الوزير على باشا حليم أوغلى وهى الولاية الأولى على مصر فدخل القاهرة فى جمادى الأولى سنة ثلاث وخمسين وأقام إلى عاشر جمادى الأولى سنة أربع وخمسين فكانت أيامه كلها هدأ واطمئنانا والفتن فيها راقدة.

(مطلب)

عزل على باشا وولاية يحيى باشا

ثم جاء الأمر بخلعه فنزل من قلعة الجبل وأقام فى بيت القازدغلى ولبث ينتظر الوالى الجديد. فجاء إلى القاهرة يحيى باشا وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد

وصعد إليه على باشا المخلوع فلاقاه وأكرمه ثم نزل هو كذلك فسلم عليه وسرحه فسافر إلى الديار الرومية وأخذ يحيى باشا يتصرف فى الأمور إلى أن جاءه الأمر بالعزل مستهل رجب سنة ست وخمسين ولم يقع فى أيامه شيء يذكر.

(مطلب)

عزل يحيى باشا وولاية محمد باشا اليدكشى

وتولى بعده محمد باشا اليدكشى فلما استقرت به الولاية لم يأت عملاً ما سوى النهى عن تعاطى الدخان فى الشوارع والدكاكين والجلوس على أبواب البيوت وشدد فى ذلك جدًا فكان يطوف الأغا والوالى وهما فى التبديل كل يوم ثلاث مرات وشدّدا فى الإنكار والنكال بمن يفعل ذلك وكان الوالى إذا رأى فى يد أحد أنبوبة الدخان عاقبه وربما أطعمه حجر الأنبوبة الذى يوضع فيه الدخان بالنار وكذلك كان يفعل الأغا ولم يات من أعماله شيئا غير ما ذكر حتى جاءه الأمر بالعزل سنة ثمان وخمسين فكانت مدّة تصرفه نحو سنتين ففرح الناس بخلعه فرحا لا يوصف.

(مطلب)

عزل محمد باشا اليدكشى وولاية محمد راغب باشا

وتولى بعده محمد راغب باشا وحضر إلى الإسكندرية فذهب لملاقاته أصحاب العكاكيز وأرباب الرتب العالية فلما استقرت به الولاية أخذ يدبر الحيلة لقتل من بقى من الأمراء أصحاب الوقت واستمال إليه حسين بك الخشاب واستخلصه ثم كاشفه بما فى نفسه ثم أقسما الأيمان على أن لا يخونا بعضهما وأعلمه أن السلطان محمود إنما يريد قطع دابر بيت القطامشة والدمايطة وهم أصحاب الكلمة يومئذ فأجابه إلى مرغوبه وهون عليه الأمر وأخذ من يومه يدبر الحيلة ويتبين أنفع الوسائل وأحسن الطرق حتى اجتمع بمن يعتمد عليه من أصحابه وأخبرهم بما علمه من الباشا فاتفقوا على قتل كبارهم بالديوان عند صعودهم إليه وتحالفوا على ذلك وأغلظوا فى الأيمان. فلما كان يوم الديوان أخذ الأمراء فى الحضور جماعة بعد جماعة وحضر بينهم خليل بك وعلى بك الدمياطى ومحمد بك وجلسوا فى أماكنهم فبرز شخص اسمه عثمان أغا أغات المتفرقة وجلس بجانب خليل بك وقال: له لماذا لم تدخل

على الباشا وقد مضى عليك أيام ولم تفعل ذلك؟ فقال خليل بك: دعنا فإنا لسنا ممن يهتم بأمره وقد تركناه لك فأظهر عند ذلك عثمان أغا المذكور الغيظ وصاح فى وجه خليل بك وكأنك تهزأ بى وجرد خنجره فى الحال وطعن خليل بك فسقط ميتا لا حراك به وكان بقية المتؤامرين مختفين فلما سمعوا الصياح خرجوا جميعا والسيوف بأيديهم مسلولة فضربوا عمر بك بلاط واحتزوا رأسه ورأس خليل بك فهرب من كان بالمجلس ودخلوا بالرأسين على الباشا وهرب على بك الدمياطى ومحمد بك ونزلا إلى نوبة الجاويشية واختفيا فيها فأرسل الباشا يطلبهما وقال: إن السلطان رسم بذلك فأتوا بهما إليه فأمر بهما فقطعت أعناقهما أيضا وعم خبر ماجرى الآفاق فخاف من بقى من الأمراء وتجرد إبراهيم بك وعمر بك وسليمان بك الألفى للمقاومة فرسم الباشا بقتالهم وأمر العسكر بالتأهب لذلك فاجتمعوا وأخذوا ما لزمهم من آلات الحرب والمدافع والمكاحل وساروا إلى القاهرة ونصبوا بعض مدافعهم على قنطرة سنقر وكان بها بعض أولئك المشاغبين فلم يقووا على القتال مع العسكر وتفرقوا إلى الأقاليم القبلية فدخلت العساكر بيت إبراهيم بك ونهبوه وكذلك نهبوا بيت خليل بك وذهبوا إلى بيت على بك فوجدوا فيه صنجقا قد احتله وامتلكه بما فيه فلم يتعرضوا له وكذلك لم يتعرضوا ليوسف بك ناظر الجامع الأزهر بسوء.

ولم تكد تجف دماء الذين قتلوا بالديوان حتى طلب الباشا من حسين بك الخشاب أن يعمل على قتل إبراهيم جاويش القازدغلى ورضوان كتخدا الجلفى وأطمعه فى ولاية الأمر والانفراد بالكلمة فتعهد له بذلك وقام لساعته يدبر أمره مع أصحابه الذين عليهم معتمده فاتضح أمره وانكشف سره وعلم إبراهيم جاويش ورضوان كتخدا بالمكيدة فقاما وقامت معهما الجند والعسكر وامتلأ باب الإنكشارية وباب العزب بطوائف الجند واجتمع أمراء العسكر كافة بسبيل المؤمن والأسباهية بالرميلة وأرسلوا يطلبون من الباشا مرسوما بالركوب على بيت حسين بك الخشاب وقتله فلم يرض وامتنع فبعثوا له طائفة من كبار العسكر يطلبون ذلك فإن أبى أنزلوه من القلعة فامتنع فأنزلوه هو وجميع عياله وأتباعه من قراميدان إلى أن صار بالرميلة فأراد أن ينزل على شيخون إلى بيت حسين بك الخشاب وإذا بالعزب المرابطين فى جامع السلطان حسن أطلقوا عليه البنادق لرده فقتل أحد اتباعه فنزل على بيت آق بردى إلى بيت ذى عرجان تجاه المظفر فأرسلوا إليه إبراهيم بك بلقية صحبة كتخدا

الجاويشية فلم ير بدا من أن يوليه النيابة وعاد إبراهيم بك إلى بيته فأخذوا منه مرسوما بجر المدافع إلى ناحية الصليبة وسار أمراء الجند يتقدمهم عمر بك أمير الحاج وآخرون أمثاله واحتاطوا ببيت حسين بك الخشاب وبيت محمد بك أباظة من الجهات الأربع فحاربهم من داخل البيت من الصباح إلى الظهر وكان فى أثناء المناوشة يخرج أمتعته وأمواله وأثقاله وهم لا يشعرون فلما لم يبق فى البيت شىء خرج بمن معه من أصحابه وأتباعه إلى ناحية زين العابدين وسار إلى الإقليم القبلى وكذلك هرب عمر بك ابن على بك فى طائفة من أصحابه إلى أرض الحجاز ودخل العسكر بيت حسين بك الخشاب بعد انقطاع أصوات البنادق والمدافع فلم يجدوا فيه شيئا وكان ذلك فى أواخر سنة إحدى وستين ومائة وألف فعاد كل إلى مقره وسكنت الفتنة قليلا وجعل إبراهيم بك بلفية يتصرف ومحمد راغب باشا محجور عليه إلى أن سافر إلى الديار الرومية فكانت مدّة ولايته سنتين ونصفا .

(مطلب)

ولاية أحمد باشا كوروزير

وجاء الخبر بولاية الوزير أحمد باشا المشهور بكوروزير ووصل إلى الإسكندرية فنزل إليه الملاقون وأرباب العكاكيز وأصحاب الخدم فدخل القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فى غرة المحرم افتتاح سنة اثنتين وستين ومائة وألف وعمل الديوان وخلع الخلع على الأمراء والأعيان والمشايخ ولكنه لم يتمكن من التصرف إذ كان مغلوبا على أمره والكلمة يومئذ لإبراهيم بك جاويش ورضوان كتخدا وهما صاحبا العقد والحل فأقام فى المنصب إلى عاشر شوّال سنة ثلاث وستين ومائة وألف .

(مطلب)

عزل أحمد باشا وولاية عبد الله باشا

وجاء الخبر بعزله وولاية عبد الله باشا فكانت مدة تصرفه سنة وعشرة أشهر وكان عالما مدققا فاضلا كريما محبا للعلم والعلماء مقربا إليهم وكانت أيامه هادئة

مطمئنة لم يقع فيها شيء من الحوادث والفتن. قال بعض الكتاب : وكان مولعا بالرياضيات وعمل عدة منحرفات على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفراً وعمل له تاريخا منظوما نقشه عليها وهو:

مزولة متقنة	نظيرها لا يوجد
راسمها حاسبها	هذا الوزير الأمجد
تاريخها أتقنها	وزير مصر أحمد
٥٥٧	٢٢٣ ٣٣٠ ٥٣

سنة ١١٦٣

ونصب من هذه المنحرفات واحدة بالجامع الأزهر فى ركن الصحن على يسار الداخل بالركن فوق رواق معمر وهى لفضل دائر العصر وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعى وفيها خيط مساترة وفضل دائرة وقسى عصر وفضل دائر الغروب وأخرى بمشهد السادات الوفائية وهى بشاخص للظهر والعصر أهـ.

(مطلب)

عزل عبد الله باشا وولاية محمد أمين باشا

وحضر الشريف عبدالله إلى الإسكندرية ونزل أحمد باشا من قلعة الجبل إلى بيت البيرقدار وسافر الملاقون إلى عبدالله باشا فدخل القاهرة فى رمضان سنة أربع وستين فأقام إلى سنة ست وستين. ثم عزل عنها ولم يقع في أيامه شيئ من الحوادث والفتن وولى حلب فنزل إلى القصر بقبة العزب وهاداه الأمراء وسار إلى حلب فتولى بعده محمد أمين باشا فكانت ولايته سنة وبضعة أشهر لا شئ فيها من الحوادث أو الإحن ودخل محمد باشا المذكور القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل وهو مريض فلبث شهرين على فراش الأوجاع ومات فى خامس شهر شوال سنة ست وستين ومائة وألف ودفن بجوار قبة الإمام الشافعى فبقيت مصر بلا وال سنة وخمسة أشهر والكلمة يومئذ لإبراهيم بك ورضوان بك، وفى خلال هذه الحوادث حضر إلى القاهرة من دار السلطنة بطرك الروم ومعه مرسوم سلطانى بمنع نصارى الشوام من الدخول إلى كنائس الفرنجة فإذا دخلها أحدهم عوقبوا جميعا بدفع غرامة قدرها ألف كيس لخزينة السلطنة واستفاض الخبر بذلك بين الشوام ثم أعقب ذلك أن سير إبراهيم كتخدا فى طلب أربعة من قسيسى الفرنجة فجاءوا بهم فحبسهم وأخذ منهم مالا كثيرا ومع ذلك لم تنكف الشوام عن الدخول إلى كنائس الفرنجة فانكشف

الغطاء وبرح الخفاء عن أنها حيلة من بنات أفكار إبراهيم بك لحصوله على المال من قسيسى الفرنجة. واتفق عقب هذا الحادث بقليل أن قصد القبط بمصر الحج إلى بيت المقدس وكان عظيمهم يومئذ المعلم نيروز كاتب رضوان كتخدا فكلم الشيخ عبدالله الشبراوى فى ذلك وقدم له هدية سنية وألف دينار فكتب له فتوى وجوابا يتضمن أن أهل الذمة لا يمنعون من القيام بشعائرهم الدينية وزياراتهم فشرعوا فى قضاء أشغالهم ثم خرجوا فى هيئة وأحمال ومواهى وتختروانات فيها النساء والأولاد ونصبوا خيامهم عند قبة العزب وأحضروا العربان ليسيروا فى خفارتهم وشاع أمر خروجهم بعد أيام فاستعظم المسلمون ذلك وأنكروه واتفق ذهاب الشيخ عبدالله الشبراوى إلى حيث الشيخ البكرى: لزيارة أخي البكرى حيث كان مريضا فلما استقر به المكان قال له البكرى متهكما: ما هذا الحال يا شيخ الإسلام كيف ترضى وتفتى النصارى وتأذن لهم بهذه الفعال هل كان ذلك لأنهم أرشوك وهادوك؟ فقال: إن ذلك لم يكن. قال: بل أرشوك بألف دينار وهدية وعلى ذلك تصير لهم سنة ويخرجون فى العام القابل بأزيد من هذا ويصنعون لهم محملا. ويقال حج النصارى وحج المسلمين وتصير سنة عليك وزرها إلى يوم القيامة قال صاحب عجائب الآثار : فقام الشيخ الشبراوى وخرج من عند البكرى وهو مغتاظ وأذن للعامة فى الخروج عليهم ونهب ما معهم وخرج عليهم كذلك طائفة من مجاورى الأزهر فاجتمعوا عليهم ورجموهم وضربوهم بالعصى والمساوق ونهبوا ما معهم ونهبوا أيضا الكنيسة القريبة من دمرداش. قلت: وهى كنيسة رويس. قال: وانعكس النصارى فى هذه الحادثة عكسة بليغة وراحت عليهم وذهب ما صرفوه وأنفقوه فى الهباء انتهى قوله.

(مطلب)

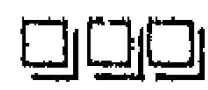
ولاية مصطفى باشا

وتولى بعد محمد باشا أمين الذى مات كما تقدم القول مصطفى باشا فدخل القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل ثالث عشر ربيع الأول سنة سبع وستين ومائة وألف هجرية واستمر على الولاية إلى أن جاء الأمر بالعزل كما سيذكر فى محله .

ورأى السلطان محمود بعد تقرير الصلح مع خصومه شرقا وغربا أن لابد من قيام الروس يوما على دولة السويد وابتلاعها مضغة لينة ثم لا يمنعها بعيد ذلك مانع من شن الغارة على بلاده وأخذ كل ما يمكن أخذه منها فجعل يتدبر الأمر فحسن

له سفير الفرنسيس بدارالسلطنة يومئذ تعضيد دولة السويد وعقد محالفة دفاع وهجوم معهيا ضد الروس وكشف له عـما فى ذلك من الفائدة للدولة وكبح جـماح الروس ورد كيدهم فوافق السلـطان على ذلك وعقد محالفة مع السويـد فكانت حدا فاصلا بين الروس وبين مطامعهم السياسـية وهدأت الأحوال وسكنت الخواطر وتفرغ رجال الدولة للإصلاح داخـلا وخارجا ودبر الصدر الأعظـم أمور الدولة فأحسن التـدبير وأمـضى الأحكام وأزال بعض الخلل ومـا زال الحـال فى هدو وسكون حـتى مـات السلطان فى يوم الجمـعة السابع والعشـرين من صفر سنة ثمان وستـين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمسـين وسبعمائة وألف ميلادية فكانـت سلطنته نحو خمس وعشريـن سنة. قال بعض أصحاب التـاريخ: وهو آخر ملوك بنى عثمـان فى حسن السيـرة والشهامـة والحرمة واستـقامة الأمـور والمآثر الحسنة وله كثـير من المزايا التى خلدت فى بطون التـواريخ. وخلفه على سـرير الملك السلطان عـثمان الثـالث ابن السلطان أحمد خان.

ومات فى سلطنته يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام اثنين وأربعين سنة وكان ورعا تقيا عـالما فاضلا مسموع الكلمة وهو من بلدة طوخ وكانت أكـثر أيامه شدائد وخطوبا متراكمة بعضها فوق بعض كادت بسببها تتعطل شعائر الدين لولا لطف الله فأقيم بـعد موته بطرس وهو الرابع بعد المائة واسـمه مرجان من رهبـان دير انبابولا فأقام سبع سنين ومات ولم يقع فى أيامه من الحوادث شىء يذكر فأقيم بعده يوحنا وهو الخـامس بعد المائة واسـمه عـبدالسـيد من رهبـان انبابولا ووقع فى أيامـه من الحوادث ما سيذكر فى محله.



(الفصل الثامن عشر)

(فى سلطنة السلطان عثمان الثالث

ابن السلطان أحمد خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمود السلـطان عثمان الثالث ابن السلطان أحمد وقيل ابن مصطفى بويع بالملك فـى اليوم الذى مات فيه السلطان محـمود فى السابع والعشـرين من صفر سنة ثمـان وستين ومـائة وألف هجرية أى سنة أربع وخمـسين

وسبعمائة وألف ميلادية، وجاءت بذلك الأخبار إلى مصر فدقت البشائر ودخل الأمراء والعلماء والمشايخ على مصطفى باشا الوالى يهنئونه .

(مطلب)

عزل مصطفى باشا وولاية على باشا حكيم أوغلى

ثم ورد بعد أيام إلى مصطفى باشا فرمان التثبيت فبقى يتصرف فى الأمور إلى أن جاءه الأمر بالعزل فى أوائل ربيع الأول سنة تسع وستين ومائة وألف فكانت مدة تصرفه سنتين إلا أياما ولم يقع فيها من الحوادث شئ يذكر وتولى بعده على باشا حكيم أوغلى الولاية الثانية وقدم إلى الإسكندرية فنزل إليه الملاقون وأرباب المناصب ثم دخل القاهرة فى يوم الاثنين غرة جمادى الأولى من السنة وجعل يتصرف فسار فى الرعية سيرة حنسة ودبر أمورهم أحسن تدبير وأسكن الفتن وطمن القلوب فلم يقع فى أيامه شئ من الخطوب والمحن واستمر على الولاية معززا محبوبا من الرعية وكان قريب الاعتقاد بالخرافات ميالا إلى الزايرجات وأصحابها وكان له تعلق بالشيخ على بن تاج الدين محمد بن الحسن بن محمد بن سالم القلعى الحنفى المكى لغزارة معرفته بهذه العلوم وكان أول اجتماعه به فى الديار الرومية قيل إنه أخبر على باشا بأمور فوقعت كما قال فازداد عنده مهابة وأنزله فى منزل بالقرب من جامع أزبك بخط الصليبة وصار يركب فى موكب حافل مثل موكب الوزير وكان فيه الكرم المفرط والمروءة وسعة الصدر فى إجازة الوافدين مالاً وشعراً ومدحه شعراء عصره بمدائح جليلة جدا وكان على باشا لا يفارقه قيل ولا يعمل عملاً إلا بإشارة منه فله كثير من المزايا ومع ذلك فقد كان حسن التدبير موفقاً محبوباً من الرعية.

وسار السلطان عثمان فى الرعية سيرة رديئة للغاية وكثر تحجبه عن الناس وتجسسه على أحوال الرعية فكان كثير الأخذ بالشبهات ظلوماً غشوماً عسوفاً فظاً غليظًا سفاكا للدماء قيل إنه قتل فى أيام سلطنته ستة وزراء فثقلت أيامه على الرعية وأبغضوه بغضاً كبيراً وابتهلوا إلى الله تعالى وعجوا إليه وظل على هذا الحال من الجور والعسف إلى أن مرض واشتدت به علته فمات وجاء الخبر إلى القاهرة خامس عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى نحو سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة سلطنته أربع سنوات غير كوامل فخلفه فى الملك السلطان مصطفى الثالث.

(الفصل التاسع عشر)

(في سلطنة السلطان مصطفى الثالث

ابن السلطان أحمد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان عثمان السلطان مصطفى الثالث ابن السلطان أحمد بويع بالملك يوم موت السلطان عثمان خامس عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية أى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وألف ميلادية فاستقرت به الخلافة وكان المتولى الصدارة العظمى الوزير محمد راغب باشا فأقره على منصبه وسلم إليه مقاليد جميع الأمور واعتمد عليه في تدبير مهام الدولة فأحسن التدبير وأحكم السياسة وكان عالماً عاقلاً رزينا كيسا حازما محبا لنجاح الأمة فبالغ فى إصلاح الأحوال الداخلية وأحدث كثيرا من النظامات المألوفة ورتب الأمور على ما فيه المصلحة فزهت أيامه وسعدت ثم مات فتبدلت بعد موته الأحوال وتغير مجرى الحوادث وتحركت دولة الروس إلى نكث العهود وتجردت إلى الشر وطلبت كاترينة الثانية قيصرة الروس يومئذ التداخل فى شئون مملكة بولونيا فأقامت ستاسلاس بونياتوسكى ملكا على بولونيا بدل ملكها الذى مات خلافا للعهد المتفق عليه بين الروسية والعثمانية. قال أصحاب التاريخ : وقد قصدت كاترينة بذلك العمل بما أوصى به بطرس الأكبر من إزالة الموانع الثلاثة الحائلة بين أملاك الروس وأروبا الغربية وهذه الموانع هى مملكة السويد ومملكة بولونيا والمملكة العثمانية. قالوا وقد تمت إزالة المانع الأول منها بوضع يد الروس على جميع الإيالات السويدية وكاد يتم لها زوال الثانى بتولية ستانسلاس عشيق كاترينة ملكا على بولونيا فلم يبق منها سوى الدولة العثمانية فتنبهت الدولة لذلك وحضت خان القرم على قتال الروس فزحف بخيله ورجله وقاتلهم وانتصر عليهم عدة نصرات وخرب الكثير من أملاكهم وسار البرنس جالتسين بعساكر الروس إلى مدينة شوكزيم فحاصرها وضيق عليها فسير السلطان الصدر الأعظم محمد باشا البرشنجى لنجدتها فى عسكر عظيم فلم يفلح فاستعظم السلطان هذا الأمر وأكبره وسير إلى الصدر المذكور من قتله وأتى برأسه إلى القسطنطينية وانهزمت العساكر السلطانية مرة ثانية عند نهر دينستر بسبب فيضان النهر المذكور عند عبور العساكر السلطانية له فأعمل فيهم الروس القتل والتفريق وتمكن البرنس جالتسين من الدخول إلى شوكزيم واحتل إيالتى الفلاخ والبغدان.

وكانت المراكب السلطانية فى هذه الأثناء تتجول فى عرض البحار فلاقتها مراكب الروس فى المضيق الواقع ما بين جزيرة ساقص وساحل آسية فاقتتلوا قتالا عنيفا للغاية ثم افترقوا ودخلت المراكب السلطانية مينا جشمه فتبعهم حراقتان من مراكب الروس والتحما بالمراكب السلطانية وألقيا عليها النيران فاشتعل ما بها من البارود واحترقت جميعها فكان المنظر مريعا للغاية والخطب عظيم جدا وطال الأخذ والرد بين الدولتين وطالت أيام الحرب والقتال برا وبحرا ثم تخابر الفريقان فى أمر الصلح فشطت الروسية في الطلب واشترطت على الدولة شروطا مهينة مزرية فأبت الدولة إجابتها إلى ذلك وعاد الفريقان إلى ما كانا عليه من الحرب والقتال فخرجت من يد الدولة مدينة بندر وعدة من جزائر الأرخبيل ودست الروس إلى اليونان والأرنؤد فثارا وأشهرا الحرب وخرجا عن طاعة السلطان ونهض أيضا على بك الكبير أحد أصحاب الكلمة بديار مصر يريد الاستقلال بملك مصر والخروج عن طاعة السلطان وقام أيضا أحد مشايخ عربان الشام المسمى ظاهر العمر وتملك بعض مدن الشام وأخذ يتصرف فى أمورها تصرف المالك المطلق حتى اختل نظام المملكة وسقطت كلمة السلطان وذهبت هيبته أو كادت واستخف به على بك واستصغر شأنه وهمّ بالخروج وشق عصا الطاعة وجعل يتأهب لذلك. وبينما هو على هذا الحال من التأهب والاستعداد إذ ظهر الطاعون بمصر والقاهرة وكان ظهوره عقب أن أمطرت السماء مطرا غزيرا جدا سالت منه السيول وامتلأت الأودية واشتد الطاعون شدة بالغة فكثر الموات وصارت الموتى تلقى فى الطرق والحارات لكثرتها وعدم وجود من يدفنها وكثرت الجيف واجتمعت حولها الكلاب تنهشها وطالت أيام الوباء فسمته العامة (قارب شيحة الذى يأخذ المليح والمليحة)واهتم الأمراء عند ذلك بدفن الموتى وأعملوا الجهد حتى خف الموت فى أواخر رمضان من السنة ولكنه لم يرتفع تماما إلا فى أوائل سنة اثنتين وسبعين.

(مطلب)

عزل على باشا حكيم أوغلى وولاية محمد باشا سعيد

وجاءت الأخبار عقب ذلك بعزل على باشا حكيم أوغلى وتولية محمد باشا سعيد فدخل القاهرة فى أواخر رجب سنة إحدى وسبعين وصعد إلى قلعة الجبل فى الموكب المعتاد فلم يكن لقدومه رونق ولا بهجة بأسباب الطاعون واشتغال الناس بدفن موتاهم ولم يكن لولايته أثر يذكر عند على بك الكبير إذ كانت الكلمة

والرياسة يومئذ له لا سيما بعد موت حسين بك القزداغلى على ما تقدم لك بيانه وكان لما أن بسط يده على جميع الأمور وقبض على زمام الأحكام ودانت له الرغائب استقدم أصحابه الذين كانوا مبعدين وولاهم المناصب العالية فاتسعت من ذلك الحين كلمته وبعدت شهرته ولكنه كان فى شاغل من جانب عبدالرحمن بك كتخدا المتولى مشيخة البلد فكان لا ينكف عن إعمال الحيلة فى قتله ولا تفتر له همة حتى اتفق مع بعض أعوانه على أن يقتلوه بعد قيامه هو بركب الحاج إلى المدينة وأن يولوا بعد قتله على مشيخة البلد خليل بك الدفتردار وبقى الأمر مكتوما بينهم حتى قام بركب الحاج فجعل أصحابه يعملون على قتل عبد الرحمن بك فأحس عبد الرحمن بك بالمكيدة واستكشف السر وعلم بخفى أمرهم فأسرع هو إلى عمل الحيلة والتدبير فى تبعيدهم وأغرى بهم على بك بلاط فتمكن من تبعيد خليل جاويش المعروف بحيضان مصلى وأحمد جاويش إلى الأقطار الحجازية وحسن كتخدا الشعراوى وسليمان بك الشابورى إلى فارسكور فتمزق جمعهم وتفرقت كلمتهم. فلما نزل على بك بالعقبة وهو راجع بالحاج علم بما جرى لأصحابه فكتمه وأمر الجند بعمل بعض الأشكال الحربية ليوهم الناس أن الذى جاءه من القاهرة أخبره بخبر يسره ثم سار بركب الحاج إلى قلعة نخل فانحاز إلى القلعة وسلم الحاج والمحمل إلى بعض أمرائه وركب فى خاصته وسار إلى غزة ولبث بها زهاء ثلاثة أشهر وكاتب دار السلطنة ووشى لها فى حق الكثير من الأمراء بالديار المصرية وبالغ فى الوقيعة بهم فجعل رجال الدولة يوعدونه ويعللون منه الآمال بنيل أغراضه ومازالوا حتى استصفوا ما معه من مال ومتاع ولم يتم له أمر فعاد إلى القاهرة بوساطة صهره فلما دخل القاهرة لم يقم بها سوى ثمانية أيام ومات كمدا وقيل بل أطعمه بعض أصحابه سما فاطمأنت القلوب بموته فقد كان داهية قرما عنيدا كثيرا الصبر عظيم الجلد .

(مطلب)

عزل محمد باشا وولاية مصطفى باشا الصدر الأعظم وعزله أيضًا وولاية أحمد باشا سبيلان

وجاءت الأخبار من دار السلطنة بعزل محمد باشا عن الولاية وتعيين مصطفى باشا الصدر الأعظم بدله فدخل القاهرة فى أواخر السنة وأقام يتصرف فى الأمور إلى سنة أربع وسبعين ومائة وألف هجرية ثم نزل إلى القبة متوجها إلى جدة ليقيم بها

ولم يقع فى أيامه شىء يذكر وحضر بدله أحمد باشا كامل المعروف بسيلان ودخل القاهرة فى أواخر سنة أربع وسبعين فلما استقرت به الولاية صار يشدد فى الأحكام وينزل فى كل يوم لمعرفة أخبار الناس وأحوالهم ويكشف على أرزاق الأمراء ومصادر أموال الخزينة السلطانية وغير ذلك وكان شهما شديد العناد فخافه الأمراء وخشوا عاقبة أعماله فاجتمعوا وتشاوروا فى أمره فاتحدت كلمتهم على خلعه وصاروا يراقبون الفرص حتى دبروا أمرهم وركبوا عليه يوما فخلعوه وكان مصطفى باشا الوالى المعزول لم يزل بالقاهرة يتأهب للسفر إلى جدة فساروا إليه وأصعدوه إلى قلعة الجبل وسلموه زمام الأمور وشكوا إلى دار السلطنة ما وقع وسيروا بشكواهم الشيخ عبدالباسط السنديونى.

(مطلب)

عزل أحمد باشا كامل وولاية بكير باشا وموته وولاية حسن باشا

فلما وصلت شكواهم إلى صدر الدولة وهو يومئذ محمد راغب باشا سير أحمد باشا المذكور إلى ولاية كاندية وسير مصطفى باشا إلى ولاية حلب ووجه بكير باشا والى حلب واليا على مصر فحضر إلى القاهرة وصعد إلى قلعة الجبل فلم يتصرف إلا زهاء شهرين ومات مبطونا سنة خمس وسبعين ومائة وألف ودفن بالقرافة فجاءت الأخبار بولاية حسن باشا وقدم إلى القاهرة فى أواخر سنة ست وسبعين فكان محجورا عليه لا كلمة له والأمر يومئذ لعلى بيك بلاط فإنه بعد موت على بيك الكبير وتشريد كبار عصابته كما سبق ظهر شأن على بيك بلاط وارتفعت كلمته فجمع أصحابه وأعطاهم المناصب العالية وسلمهم زمام الأمور كغيره من الأمراء الذين تقبل عليهم الرياسة مسرعة وشاع ذكره ونما صيته فلما رأى عبدالرحمن بيك كتخدا الذى هو ابن أستاذ على بيك بلاط ما ناله على بيك من الشهرة ورفعة القدر انطوى على ممالأته ومال إلى مصادقته ليقوى به على أرباب الرياسة وكل منهما يريد تمام الأمر لنفسه وجعل على بيك من هذا الحين يمهد الأمور ويذلل العقبات ثم استكثر من شراء المماليك وبدأ فى مصادرة الناس وأعمل الحيلة على أخذ الأموال من أصحاب البيوتات والأعيان لأقل سبب. وكان يخشى جانب بعض من بيدهم الرياسة مثل عبد الرحمن كتخدا ابن أستاذه وعلى كتخدا الخربطلى وعمر جاويش الداورية ورضوان جربجى الرزاز وغيرهم فلما استتب قدمه فى المنصب

وتمكن وقوى جأشه ركب يوما فى مماليكه وأتباعه وهجم بهم على أبواب القلعة وأجلوا عنها من كانوا بها من أصحاب وأتباع من ذكروا فامتلكوها واحتل قومه بها فخاف الأمراء عند ذلك وانكمشوا فلم يمكنهم من عمل شيء وقبض فى الحال على عبد الرحمن كتخدا وأبعده إلى الأقطار الحجازية وأبعد باقيهم جميعا إلى الأقاليم البحرية فأخاف الناس خروج عبدالرحمن بيك كتخدا إلى منفاه فإنه كان ذا هيبة ووقار وحرمة كبيرة وقد ارتفعت به كلمة الإنكشارية وظهروا على طائفة العزب وكان له عز وأبهة ومماليك وأتباع وجند وغير ذلك من الأخلاط حتى ظن الناس وقوع فتنة عظيمة فى ذلك اليوم فلم يحصل شيء من ذلك سوى ما نزل بالناس من الدهشة والتعجب وأبعد بعد ذلك صالح بيك إلى مدينة غزة فلم يقم بها إلا أياما حتى أرسل إليه بعض الجنود فحملته من غزة إلى رشيد فبقى فيها ثم رتب له ما ينفقه بحسب الحاجة فلبث برشيد مدة فلما جاء الخبر بعزل حسن باشا الوالى وتعيين حمزة باشا بدله أرسل على بيك جماعة من أتباعه ليحملوا صالح بيك المذكور من رشيد إلى دمياط كى لا يجتمع بحمزة باشا إذا حضر إلى رشيد فوصلت إلى صالح بيك الأخبار بقيام أولئك الأتباع فأسرع وركب فى نفر قليل وأسرى ليلا إلى جهة البحيرة فأقام بها ما شاء الله ثم ذهب من خلف جبل الفيوم إلى الأقاليم القبلية فوصل إلى منية ابن خصيب فأقام بها واجتمع عليه خلق كثير ممن شردهم على بيك بلاط فابتنى له أبنية وعمل متاريس ومحال للدفاع وكان له معرفة وصداقة مع شيخ عربان تلك النواحى وطوائف الهوارة وسكان أكثر البلاد الجارية فى أقطاعاته فاجتمع عليه الكثير منهم وقدموا إليه التقادم والذخيرة وما يحتاج إليه وترس فى منية ابن خصيب وهو آمن مما يخشى فلم يجسر على بيك على قتاله ولم يناوشه الحرب خوفا من اتساع الخرق واستفحال الخطب .

(مطلب)

عزل حسن باشا وولاية حمزة باشا

ودخل حمزة باشا الوالى الجديد القاهرة فى أخريات سنة تسع وسبعين ومائة وألف هجرية وصعد إلى قلعة الجبل فنزل حسين باشا قاصدا السفر فكانت ولاية حسين باشا المذكور نحو ثلاث سنين. ولما استقر بحمزة باشا المنصب وأخذ يتصرف فى الأمور بقدر الاستطاعة شكوا إليه أمر صالح بيك وترسه فى منية ابن خصيب وإضراره بالناس ومنعه لورود الغلال وأموال الخزينة السلطانية وبالغوا فى الشكوى

وعظموا فى البلوى فرسم بقتاله فبعثوا له طائفة من الجنود مع أحد الأمراء المدعو حسين بيك كشكش وولوه أيضا الإمارة على إقليم جرجا وسافر معه عدة أمراء أخر فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا شديدا فانهزم صالح بك وهرب إلى شرقى أولاد يحيى فأقام حسين بيك كشكش بالمنية أياما يتأهب للمسير إلى جرجا مركز إمارته فبينما هو على أهبة الرحيل إذ ورد عليه مرسوم من على بيك بلاط بالتبعيد إلى جهة قد عينها له فكاد حسين بيك يتميز غيظا وركب من فوره فى مماليكه وأتباعه وأمرائه وحضر إلى القاهرة فوصلها ليلا فوجد الباب الموصل إلى قناطر السباع مغلقا فطرقه فلم يفتحوا له فكسره ودخل بمن معه وذهب إلى بيته وبقى الأمر بينه وبين على بيك بلاط على المسالمة أياما. واتفق لحظ على بيك بلاط أن حسين بيك المذكور طلب فى غضون هذه الأيام من عبدالله الحكيم طبيب الأمراء أن يصنع له معجونا صالحا للباه فأخبر الطبيب بذلك على بيك بلاط فأمره بأن يدس له فيه سما ففعل وذهب به إلى حسين بيك وبالغ له فى فوائده فقال له: لا بأس به ولكنى أحب أن تأكل أنت منه أولا فتلجلج الطبيب واضطرب فأمر به حسين بك فقتلوه بين يديه وعلم أنها من عزيمة على بيك بلاط فتأكدت بينهما الوحشة وأضمر كل منهما لصاحبه السوء وتوافق على بيك مع أصحابه على الغدر بحسين بيك أو إخراجه فوافقوه ظاهرا واشتغل حسين بيك أيضا بإخراج على بيك أو الغدر به وجمع إلى كلمته كثيرا من قومه فلما كان ذات يوم ركب وركبوا ومعهم المدافع والبنادق وساروا إلى بيت على بيك فصوبوا أفواه المدافع نحوه، فأرسل على بيك لأصحابه يستنجدهم فلم يأته أحد وخذلوه فشق عليه الأمر واستعظمه جدا وأرسل إلى أصحاب حسين بيك يسألهم عن مرادهم فحضر إليه منهم من يأمره بالركوب والخروج من الديار حالا فقام لساعته وركب وخرج من بيته فسلموه إلى من يوصله إلى منفاه بالديار الشامية ومعه مماليكه وأتباعه وكان ذلك فى أواخر رمضان سنة تسع وسبعين فأنزلوه بالعادلية ثلاثة أيام حتى حاسبوه وحاسبوا أتباعه على ما هو عليهم وهم محاطون بالجند والسلاح والمدافع حتى فرغوا واستخلصوا ما بقى وسافروا إلى غزة، وكانت العادة فيمن ينفى من الأمراء بديار مصر أنه إذا خرج من الديار لم يخلوا سبيله حتى يستصفوا ما عليه وسار صحبة على بيك المذكور جميع أصحابه وكبار قومه وعزلوا من لم يسافر منهم من منصبه. وما كادت تستقر الأمور وتسكن الفتنة حتى جاء الخبر برجوع صالح بيك من شرق أولاد يحيى إلى منية ابن خصيب واستقراره فيها وتحصينها فجيشوا لقتاله جيشا عظيما فبرز بعضه إلى جهة البساتين وبينما هم على هذا الحال من

تجييش الجيوش وإعداد آلات الحرب والاشتغال بأمر القتال مع صالح بيك إذ رجع علي بيك بلاط وأصحابه من غزة فلم يشعر أحد برجوعهم ودخلوا القاهرة ليلا ونزل على بيك ببيت حسين بيك كشكش ونزل باقى من كانوا معه فى بيوت أخر فلما علم حسين بيك بقدومه على هذه الصورة جمع إليه أصحابه بجهة الآثار المعروفة بأثر النبى وشاورهم فى الأمر فاختلفت كلمتهم وتباينت أغراضهم فمنهم من أشار بتبعيده إلى جدة ومن أشار بقتله ومن أشار بغير ذلك ثم عادوا فاتحدوا على أن يرسلوه إلى جدة وأرسلوا إليه من يلزمه بالخروج والسفر فقال لا أخرج أبدا من بيت سيدى إلا إذا كان إلى الجهة البحرية فرضوا بذلك واتفقوا على أن يعطوه النوسات أقطاعا وأن يذهب إليها فرضى وذهب إلى النوسات وأقام بها وأرسلوا أصحابه والذين كانوا معه إلى أسيوط وجهاتها وكان بها خليل بيك الأسيوطى فتعرفوا به وتقربوا إليه وصادقوه فأعانهم ومدّ لهم يد المساعدة فتيسرت أمورهم وراجت أحوالهم ولبثوا هناك ما شاء الله .

وعاد حسين بيك بعد تبعيد على بيك وأصحابه إلى تدبير أمر الجيش وإرساله لقتال صالح بيك كما تقدم القول فسار إلى منية ابن خصيب والتقى الجمعان واقتتلا فانهزمت العساكر وانفشلت فأرسلوا له جيشا آخر وأميره حسن بيك جوجو وكان حسن بيك المذكور ميالا فى الباطن إلى خذلة حسين بيك وأصحابه فلم يقاتل إلا بالأمر الخفيف ورجع بالعسكر كأنه مهزوم مذعور فأرسلوا جيشا آخر فكانت الحرب بينهم سجالا ثم رجعوا فلم يروا بدا من مصالحة صالح بيك فخابروه فى الصلح واستقرت القاعدة بينهم على أنه يذهب بمن معه إلى جرجا فتكون له التزاما ويقيم بها بشرط أن يدفع الأموال ويرسل الغلال فى حينها ويقوم بجميع المطاليب وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ثمانين ومائة وألف. أما على بيك بلاط فإنه لم يمض عليه بالنوسات إلا القليل من الأيام حتى تخيلوا أن حسن بيك الأزبكاوى يراسله ويطلعه على عوراتهم فقاموا عليه فى ثانى شعبان من السنة وقتلوه بقصر العينى ورسموا بنفى أصحابه إلى الأقاليم البحرية. وخشوا عاقبة بقاء على بيك بلاط بالنوسات فأرسلوا إليه خليل بك المعروف بالسكران فحمله إلى مدينة السويس ليسيره إلى جدة من القلزم وأنزله بإحدى السفن وسلمه إلى ربانها فكانت الريح غير صالحة فبقيت السفينة تنتظر اعتدال الريح فرجع خليل بك إلى القاهرة .

وجاءت أيام عيد الإفطار فركب الأمراء فى ثانى يوم شوال إلى قراميدان ليهنئوا حمزة باشا بالعيد وكان معتاد الرسوم فى مثل هذه الأعياد والمواسم أن كبار الأمراء

يركبون بعد الفجر من يوم العيد وكذلك أرباب العكاكيز فيصعدون إلى قلعة الجبل ويسيرون أمام الباشا على الأقدام من باب السراى إلى جامع الناصر بن قلاوون فيصلون صلاة العيد ويرجعون كذلك ثم يقبلون طرف ثيابه وينزلون إلى بيوتهم فيهنئ بعضهم بعضا على رسمهم واصطلاحهم وينزل الباشا ثانى يوم إلى كشك بقراميدان وقد هيئت مجالسه بالفرش والمساند والستور والطنافس واستعد فرّاشو الباشا بالقهوة وأطباق الحلوى والقماقم والمباخر ورتبوا جميع الاحتياجات واللوازم من الليل واصطفت الخدم والجاويشية والسعاة والملازمون وجلس الباشا بذلك الكشك وحضرت أرباب العكاكيز والخدم قبل كل أحد ثم يأتى الدفتردار وأمير الحاج والأمراء والصناجق والاختيارية وكتخدا الإنكشارية والعزب أصحاب الوقت والمقادم والأودة باشية والجربجية ويعيدون عليه بالترتيب على قدر مراتبهم ثم ينصرفون. فلما حضروا فى ذلك اليوم وهنئوا الباشا وخرجوا إلى دهليز القصر يريدون الانصراف إلى بيوتهم برز لهم طائفة من الجند وسيوفهم بأيديهم مسلولة وآخرون يحملون البنادق واندفعوا عليهم وأطلقوا البنادق وأعملوا فيهم السيوف فأصيب عثمان بيك الجرجاوى بضربة سيف فى وجهه وأصيب حسين بيك كشكش بطلق نارى فى خاصرته وجرح كثيرون جراحا بليغة فعند ذلك ارتفعت الأصوات وعلت الجلبة وصاح الأمراء بمماليكهم وأتباعهم لنجدتهم فاقتحموا الدهليز والسيوف بأيديهم وحالوا بينهم وبين المتؤامرين حتى تسلقوا من حائط البستان وركبوا خيولهم وهم لا يصدقون بالنجاة وأركبوا عثمان بيك وهو يصيح إلى باب العزب وقد قطع السيف وجهه وفمه فذهبوا به إلى باب العزب وأنزلوه فلم يلبث إلا هنيهة ومات فحملوه إلى بيته وجهزوه ودفنوه ولم يمت ممن جرحوا أحد غيره وباتوا على ذلك وأصبحوا فاجتمعوا وصعدوا إلى الأبواب وأرسلوا إلى حمزة باشا يأمرونه بالنزول من القلعة على عجل فنزل من ساعته إلى بيت أحمد بيك كشك بقوصون ومر بباب العزب فوقف له حسين بيك كشكش وسبه سبا فاحشا وخاطبه بيذى القول وفحش الكلام فلم يجبه بشىء ثم رتبوا أمورهم وسلموا بعض الوظائف المهمة لمن يعتمدون عليه واستكشفوا خفى هذه الحادثة فتبينوا أنها كانت بإغراء من حمزة باشا وقيل بل هى خليقة على بيك بلاط فإنه ما برح منذ تبعيده إلى النوسات يراسل حسن بيك جوجو ويكاتبه سرا ومازالا على هذا الحال حتى تم التدبير لحسن بيك واستحضر طائفة من الجلفية وأطلعهم على ما فى نفسه فوافقوه فأخفاهم فى بيته أياما كثيرة وقد دبروا أن يكون إيقاعهم بالأمراء فى أول يوم العيد وذهبوا إلى

الكشك بقراميدان فى ذلك اليوم وكانوا نحو الأربعين فاختلفت عندئذ كلمتهم وانتقضوا ثم عادوا فاتفقوا على أن يتمو الأمر فى ثانى يوم بدهليز بيت القاضى وتفرقوا على ذلك وقد انحلت رابطتهم إلا أربعة فإنهم ثبتوا على هذا الاتفاق وساروا فى ثانى يوم إلى الدهليز وضربوا من صادفوه بالسيوف والبنادق، وبطل من هذا اليوم أمر العيد من قراميدان وتهدم القصر وخرب وكذلك البستان وذهبت نضارته وبعد وقوع هذا الحادث سيروا من يستكشف خبر على بيك بلاط وهل أقلعت به السفينة إلى جدّة فوجدوه بالسويس فردّوه وأركبوه مع أتباعه ومماليكه إلى القاهرة ومروا به من طريق الجبل وذهبوا إلى جهة شرق إطفيح ثم إلى أسيوط. فلما استقر به المقام اجتمع عليه المبعدون كافة وطوائف الهوارة وأخلاط أخر كثيرة فراسل صالح بيك بمنية ابن خصيب يريد الانضمام إليه بمن معه من هؤلاء الأخلاط فلم يرض صالح بيك ونفر منه فجعل يخادعه ويسايره وأرسل إليه خليل بيك الخربطلى أحد المبعدين يكلمه فى ذلك ومازال به حتى جنح لطلبه واجتمع به بكفالة شيخ العرب همام وتحالفا وتعاقدا وتعاهدا على الكتاب والسيف وكتبت بذلك حجة وكان العهد بينهما أنه إذا تم لهما الأمر أخذ صالح بيك الأقاليم القبلية بتمامها قيد حياته وأرسلوا بما وقع الاتفاق عليه إلى شيخ العرب همام قيل فسرّ بذلك ورضى به إرضاء لصالح بيك وأمدّهما بالعطايا والمال والرجال واجتمع عليهم جميع المتشردين من الغز والأجناد والهوارة والأبطال فصار لهم جيش عظيم فساروا إلى منية ابن خصيب وكان بها خليل بيك السكران عاملا فلما علم بقدومهم رحل عنها وجاء القاهرة هاربا فاستقر على بيك بلاط وصالح بيك ومن معهما بالمنية و بنوا حولها الأسوار والأبراج وركبوا عليها المدافع وقطعوا الطرق على المسافرين بروا وبحرا وأرسل على بيك بلاط إلى ذى الفقار بيك وكان مبعدا بالمنصورة ومعه جماعة من الكشاف يستقدمه إلى المنية بمن معه فارتحل من المنصورة ليلا إلى المنية فلما وردت الأخبار إلى القاهرة بما فعله على بيك وصالح بيك وأنهما فى عدة عظيمة جدا خافوا شرهما وخشوا عاقبة فعلهما فاجتمعوا جميعا وبينهم الشيخ الحفناوى شيخ الوقت يومئذ وتشاوروا فى الأمر وطال بينهم الأخذ والرد ثم اتفقوا على أن يرسلوا لهما عسكرا لقتالهما فقام الشيخ الحفناوى وخطأ رأيهم واستنقصه وأطال الكلام على ما أصبحت فيه البلاد من الضنك والاضمحلال بأسباب توالى الفتن وتعاقب الحروب والمحن وقال: ماذا عليكم لو أرجعتم على بيك وصالحتموه فيأتى ويقيم فى بيته آمنا مطمئنا؟ فقالوا إن لم نذهب لقتاله أتى هو لقتالنا بخيله ورجله

قال: لا تأتوا شيئا حتى أكاتبه ويأتى منه الجواب وقام وكتب له يوبخه ويزجره تارة وينصحه أخرى وينهاه عن فعل ما لا تحمد عاقبته وبعث إليه بالخطاب فلم يلبث الشيخ بعد ذلك إلا أياما ومرض ورمى بالدم ومات فشاع يومئذ أنهم أعطوه سما لينالوا أغراضهم من قتال على بيك وصالح بيك.

(مطلب)

عزل حمزة باشا وولاية محمد باشا راقم

ووردت فى هذه الأثناء الأخبار بعزل حمزة باشا وهو فى سجنه لا كلمة له كما تقدم القول وتولية محمد باشا راقم فقام إليه الملاقسون ودخل القاهرة فى غرة ربيع الثانى سنة إحدى وثمانين ومائة وألف هجرية فسافر حمزة باشا إلى بلاد الروم فكان لبثه بمصر سنتين وشهرا. .

وعاد الأمراء بعد دخول محمد راقم باشا إلى جمع الجموع وتجهيز معدات القتال للحمل على على بيك بلاط وصالح بيك وكلموا محمد باشا فى أمرهما وأعلموه بأسباب خروجهما وموّهوا عليه الحال وأخذوا منه مرسوما بالقتال وسيروا حسين بيك كشكش ومعه عسكر جرار فطلب حسين بيك النفقة فلم يجدوا فى الخزينة شيئا من الأموال فجعلوا يصادرون التجار ويستصفون أموالهم وطلبوا أمراء البهارّ المعروفين بالتواخيد وألزموهم بدفع مال البهار معجلا فادّعوا الإعسار فهددوهم وأخذوا جميع ما عندهم من مال ومتاع ثم سار حسين بيك بعسكره والتقى الفريقان بناحية بياضة تجاه بنى سويف فاقتتلا قتالا عنيفا فانهزمت عساكر حسين بيك شر هزيمة وانفشلوا وقتل كثير من أمراء العسكر ورجع المنهزمون إلى القاهرة يوم السبت سابع عشرى الشهر وهم فى أسوأ حال، وأصبح يوم الأحد فطلعوا إلى أبواب القلعة وطلبوا من الباشا مرسوما بإعادة القتال وبأخذ مائتى كيس من مال الخزينة السلطانية نفقة للجند فامتنع الباشا من ذلك فراجعوه فلم يرض، وبينما هم ينازعونه فى ذلك إذ جاء يوم الاثنين الخبر بوصول على بيك وصالح بيك ومن معهما إلى ناحية غمازة وكان حسن بيك جوجو ومن معه من الأمراء نازلين بخيامهم جهة البساتين فارتحلوا ليلا وهربوا وانزعج خليل بيك وحسين بيك ومن معهما من الجند والعسكر وتحققوا أن لا قبل لهم بقتال على بيك بلاط وأن لابد من زوال دولتهم. وأرسل الباشا إلى أصحاب الوجاقات بملازمة كل وجاق لبابه فوصل على بيك وأصحابه إلى البساتين فلم يروا فيها أحدا وتسلل خليل بيك وحسين بيك وأصحابهما وطلعوا إلى

الأبواب فوجدوها مقفلة فرجعوا إلى قراميدان وأقاموا بها ساعة ثم رجعوا على أعقابهم وقد خرج الكثير فى تلك الليلة من الأمراء هاربين إلى حيث على بيك وصالح بيك وفى مقدمتهم حسن بيك جوجو ومن انضم إليه من الأمراء والأجناد وهرب خليل بيك شيخ البلد يومئذ وجميع أتباعه وأعوانه ومماليكه وحسين بيك كشكش وأتباعه وأعوانه وكانوا عدة كبيرة. وأصبح يوم الخميس فخرج الأعيان وغيرهم لملاقاة على بيك وصالح بيك ومن جاء معهما من الأمراء فدخلا القاهرة فى ذلك اليوم ومعهما جميع الذين كانوا مبعدين ولبثا إلى يوم الأحد ثم طلعا ومعهما باقى الأمراء المبعدين والذين تخلفوا عن الذاهبين إلى الديوان بقلعة الجبل فخلع الباشا على علىّ بيك خلعة الرضا وقرره شيخا للبلد وخلع على صناجقه خلع الاستمرار أيضا فى إماراتهم واستقر المنصب بعلى بيك فى إمارة مصر ورياستها وظهر نبله وعلت كلمته حتى ساعدته الأقدار وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية والبلاد الشامية كما سيأتى بيان هذا كله فى محله إن شاء الله تعالى .

وتاقت نفسه ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾ إلى الانتقام من بعض الأمراء وأعيان البلد وتبعيدهم فرأى أن لا قبل له بذلك خوفا من حسن بيك جوجو وأنه مادام حيا لا يصفو له الحال فأخذ من هذا الحين يدبر على قتله وأطلع بعض خواصه على ما فى سره فهوّنوا له الأمر وتعهدوا له بالعمل فلما كانت ليلة الثلاثاء ثامن رجب سنة إحدى وثمانين ومائة وألف حضر حسن بيك جوجو ومعه آخر اسمه على بيك جن وآخر اسمه محمد بيك أبو الذهب وأيوب بيك إلى بيت على بيك بلاط لزيارته فلبثوا عنده برهة من الليل يتحادثون ثم قام حسن بيك ومعه على بيك جن وركبا ومعهما الأمراء المذكورون ونفر من أصحاب على بيك يسايرونهم وهم المتكفلون بالقتل فلما صاروا فى الطريق التى عند بيت الشابورى خلف جامع قوصون جردوا سيوفهم وطعنوا حسن بيك فقتلوه وقتلوا معه على جن وتركوهما ورجعوا فأخبروا على بيك بلاط بما جرى فسرّ سرورا عظيما وبات وأصبح على بيك المذكور مالكا لجميع الأبواب لا رادّ لكلمته ولا يد فوق يده فلما صفا له الوقت ودانت له الأمور أبعد كثيرا من الأمراء والأعيان والوجهاء وشردّهم فى الأقاليم القبلية والبحرية وضيق على كل من كان يتوسم فيه سمة الإنكار فخافه الناس وهابه الأمراء وعمت شهرته واتسعت صولته وجعل يتصرف في الأمور كما يشاء. وبينما هو على هذا الحال من تتبع الخصوم وقطع دابر المخالفين إذ جاءه الخبر برجوع حسين بيك كشكش وخليل بيك من جهة غزة وهما فى جموع كثيرة للغاية وأخلاط من الجند والعسكر

يريدون القتـال والزحف على الديار المصرية فأكبـر هذا الأمر جدا وجيش لقـتالهم جيشا ضخما للغاية فى البـر والبحر واجتمع الفريقان عند الديرس والجراح من بلاد المنصورة وكـان حسين بيك كشكـش وأصحابه قد عـرّجوا أولا إلى دمياط فنهـبوا وسلبوا شيئا كثيرا ثم حضروا إلى المنصورة ففعلوا كذلك فلما التقى الجيشان واقتتلا انهزم أصحـاب على بيك بلاط وانفشلوا وولوا راجعـين وقتل منهم عدة كبـيرة من الأمراء والجاويشية ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى أن وصلوا دجوة فلما جاء الخبر بذلك اهتم له على بيك ونزل البـاشا من قلعـة الجبل وخـرج إلى قبـة باب النصـر خارج القاهرة وجمع أمراء العسكر كافة والعـلماء وأرباب السجاجيد ورسم أن كل من كان من الجند وأصحـاب الوجاقات يبـادر بالتأهب للخروج أو يخـرج بدلا عنه واحدا واهتم كذلك على بيك بجمع العـسكر وإعداد معدات الحرب فجمع جيـشا عظيما وسلم لواءه إلى محـمد بيك أبى الذهب فسار أبو الذهب من فـوره والتقى بمن بقى من العساكر المتشردين فضـمهم إلى عسكره وسار بهم فى طلب حسين بيك وخليل بيك وكانا قـد نزلا بإقليم الغربيـة وساروا سيـرا حثيثا يريدون القاهـرة ليدخلوها فلاقـتهم جيوش أبى الذهب بمـدينة طنتدا وهم معسـكرون فيها فـأحاط أبو الذهب وعسكره بالمدينة من كل جانب فوقع الحرب بين الفريقين ولم يزل القتال قائما حتى فرغ ما عنـدهم من الذخيرة وقلت الأزواد فأرسلوا إلى أبى الذهب يطـلبون الأمان فأمنهم وبطل القتـال وكاتبهم أبو الذهب وخادعهم وتعهد لهم بـاسترضاء على بيك فانخدعوا وانحلت عزائمهم وتفرقت كلمتهم وباتوا ليلتهم تلك على بساط الطمان.

فلما كان ثانى يوم أرسل أبو الذهب إلى حسين بيك كشكـش يستدعيه إلى معسكره ليتكـلم معه فى أمـر الصلح فسـار إليه وليس مـعه سوى خليل بيك الـسكران أحد أتباعه فلما وصلا ودخلا مجلسه لم يجداه فجلسا برهة لطيفة ينتظرانه وإذا بجماعة من العسكر قد دخلت عليهما وضربتهما بالسيوف حتى ماتا وجاء فى أثرهما حسن بيك شبكة ولم يعلم بما جـرى لأستاذه حسـين بيك فلما اقتـرب من العسكر داخله الخوف وشعـر برجفة فأراد الرجوع فعـاقه رجل سائس اسمه مـرزوق وضربه بنبوت فوقع إلى الأرض فلحقه أحد الجند واحتز رأسـه. وجاء الخبر إلى خليل بيك الكبير ومن معه بما جرى على حسين بيك وأتباعه فـخافوا خوفا عظيما وذهبوا إلى ضريح السيـد أحمد البدوى والتـجئوا إلى قـبره وأيقنو أنهم لاحقـون بإخوانهم وأرسل أبو الذهب إلى على بيك بلاط يستشيره فى أمر خليل بيك ومن مـعه فرسم بتبعيده إلى الإسكندرية فقبض عليـه وبعث به إليها فلم يلبث بها إلا أيامـا وقتلوه خنقا ورجع

أبو الذهب ومن معه ودخلوا المدينة من باب النصر فى موكب عظيم وأمامهم رؤوس القتلى محمولة فى صوان من الفضة والخدم أمامهم يقولون« صلوا على محمد » وكانت عدة تلك الرؤوس ستا وهى رأس حسين بيك وخليل بيك السكران وحسن بيك شبكة وحمزة بيك وإسماعيل بيك أبو مدفع وسليمان أغا الوالى وكان دخولهم على هذه الصورة فى يوم الجمعة سابع عشرى المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية .

واشتد على بيك بلاط على ما بقى من الأمراء المخالفين وأبعد منهم عدة كثيرة إلى الصعيد الأعلى وأخرى إلى الأقطار الحجازية وقبض على أولاد سعد خادم ضريح السيد أحمد البدوى وصادرهم وأخذ أموالهم وكانت كثيرة وأبعدهم عن طنطا وأرسل آخر بدلهم اسمه الحاج حسن عبد المعطى وشرع فى بناء الجامع والقبة والسبيل والقيسارية العظيمة وأبطل عنها مظالم أولاد الخادم والحمل والنشالين والحرامية والصيادين وضمان المومسات وغير ذلك من أنواع المغارم التى كانت مفروضة عليها وبلغ على بيك شهرة عظيمة وكبر اسمه فى دار السلطنة العثمانية فأرسل إليه السلطان هدية قفطانا وسيفا صحبة رسول مخصوص بمرسوم سلطانى فتقاطر الأمراء لتهنئته ونزل الباشا إلى بيته وتزاحمت على بابه أقدام المهنئين فداخل صالح بيك من ذلك بعض الحسد وآنس منه على بيك بعض الوحشة فأصر له على بيك السوء وعزم أن يعجل به قبل أن تستحفل الوحشة فيعجل هو به وكاشف بعض رجاله على ما يريده بصالح بيك فهون عليه الأمر وتعهد له بالعمل فلما جاء صالح بيك إلى بيت على بيك ليهنئه بهدية السلطان وقفل راجعا إلى بيته ركب معه محمد بيك تابع على بيك وآخرون من الأمراء أتباع على بيك وساروا فى ركابه وخلفهم بعض الجند والأتباع فلما صاروا فى مضيق الطريق عند المفارق بسويقة عصفور تأخر محمد بيك ومن معه قليلا عن صالح بيك وصاح محمد بيك بخادمه ونهره وسبه وجرد سيفه بسرعة غريبة كأنه يريد قتله وطعن به صالح بيك فاخترط بقية من كانوا معه سيوفه وضربوه فسقط عن جواده إلى الأرض ميتا وتركوه وصعدوا من فورهم إلى قلعة الجبل فلما استقر بهم المقام أخذتهم نشوة الظفر بصالح بيك فجعلوا يتحدّثون فى أمر قتله وما فعله كل منهم وعابوا أحدهم أحمد بيك بشناق حيث لم يسرع فى إخراج سيفه وأحجم عن الطعن والضرب كما فعلوا هم فقال: إنى ضربته كما فعلتم فكذبوه وقالوا: أرنا سيفك إن كنت صادقا فلم يفعل وخاف أن يخبروا على بيك بلاط بما وقع منه فيقتله ثم انصرفوا وبات هو ليلته يدبر أمر

الخلاصه فلم ير له سبيلا غير الفرار إلى أرض الله الواسعة وأصبح فأخبر زوجته بما عزم عليه وشدد عليها أن لا تخبر بخبره أحدا حتى يصل إلى الإسكندرية ثم قام وتزيا بزى المغاربة وسار من ساعته وجدّ فى السير من ناحية شلقان فأتت السعاة وأخبرت على بيك بخبره فرسم لحاكم الإسكندرية بالقبض عليه فلم يتمكن من ذلك حيث كان قد نزل بإحدى السفن القاصدة بلاد الروم وكان من أمره بعد ذلك ما كان مما سيذكر فى حينه وأحمد بيك هذا هو أحمد باشا الجزار الشهير الذى ملك عكا وتولى الشام وإمارة الحاج الشامى وطار صيته فى الممالك شرقا وغربا فساء على بيك فراره وخشى عاقبة أمره.

واتسعت كلمة على بيك وكبرت هيبته فسقطت حرمة محمد باشا الوالى فى جانب حرمته وذهب اعتباره وصار مغلوبا على أمره ليس له من الولاية سوى الاسم فخاف على نفسه وأخذ يدبر على قتل على بيك وأعمل فى ذلك جهده وكاشف كتخداه عبدالله بيك بما فى خاطره فلم يكتم سره بل أعلم على بيك به وكشف عما ينويه له محمد باشا فلما علم على بيك بذلك أصبح فملك الأبواب والرميلة وحوالى قلعة الجبل والمحجر وأرسل إلى الباشا يلزمه بالنزول من القلعة فنزل من باب الميدان إلى بيت أحمد بيك كشك ولبث فيه محجورا عليه تخفره العسكر وتولى على بيك النيابة وجعل يتصرف فكثرت مصادرته للناس فى أموالهم ومتاعهم بلا فرق ولا تمييز فكانت هذه السنة السيئة من مبتكراته فى يوم نشأته ثم صارت سنة لمن يأتى بعده، وتاقت نفسه بعيد ذلك إلى الولاية على الشام أيضا فعمل على ذلك وهيأ هدية نفيسة للغاية وخيولا مصرية جيادا وبعث بها إلى السلطان وبعض رجال الدولة وكتب يشتكى من عثمان بيك ابن العظم والى الشام ويطلب من دار السلطنة عزله لقبوله المنفيين من أمراء مصر وانضمامهم إليه والأخذ بقولهم فى جميع أعماله وبالغ فى الشكوى واستفاض الخبر بذلك فى القاهرة ومصر وعلم محمد باشا الوالى به فكان يتحزن ويتوجع ولا قبل له على عمل شىء ومازال على هذا الحال من الحجر والضيق حتى مات فى المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية بقصر عبدالرحمن كتخدا بشاطئ النيل حيث كان مسجونا لم يخرج منه منذ أنزل من قلعة الجبل وقيل كان موته مسموماً فدفن بالقرافة الصغرى عند مدفن الباشاوات بالقرب من الإمام الشافعى ولم يحتفلوا بجنازته .

واجتمع الأمراء المبعدون إلى الأقاليم القبلية على اختلاف درجاتهم بشيخ العرب همام لعله يعاونهم على العود إلى ديارهم فأشار عليهم بالترفع إلى أسيوط

وأخذها عنوة وأن يقيموا بها ولم يسمح لهم بالمقام عنده خوفا من على بيك بلاط ووفاء بما بينهما من العهد فارتحلوا جميعا من عنده وترفعوا نحو أسيوط وكانوا عدة كبيرة واجتمع عليهم أيضا طوائف الهوارة وأخلاط من الناس ممن لا شاغل لهم وكان بمدينة أسيوط فى هذا الحين من قبل على بيك بلاط عبد الرحمن كاشف وذو الفقار كاشف وقد رمموا أسوار البلد وحصنوها تحصينا عظيما فلما وصلوا إليها ووجدوها على هذه الحال من المنعة والتحصين جعلوا يتلصصون إلى أن اتصل قوم منهم فى جنح الليل ببوابة البلد ومعهم خرق ملوثة بالقار والكبريت والزيت وأوقدوا فيها النيران فاشتعل الباب فهجموا على المدينة هجمة رجل واحد فلم يكن لهم بهم طاقة لكثرتهم وملكوا أسيوط وتحصنوا بها وهرب من كان فيها من العساكر والكشاف وجاءت الأخبار بذلك إلى على بيك فهاله الأمر واستعظمه وجيش لهم جيشا عظيما وسيره مع إبراهيم بيك بليفية ومحمد بيك أبو شنب وعلى بيك الطنطاوى وبالغ فى إرسال الذخيرة والميرة وغيرها فلما صاروا على مقربة من أسيوط خيموا عند جزيرة منقباط وعلم من بأسيوط بحضورهم فخافوا وتشاوروا فى الأمر فاتفقت كلمتهم على أن يركبوا ليلا ويدهموا عسكر على بيك فركبوا فى ساعة معلومة بينهم وسار بهم الدليل فى طوق الجبل فضلّ بهم وأسرى وإياهم حتى تجاوزوا المكان المقصود بنحو الساعتين فخافوا وعلموا فوات الوقت وأن القوم متى علموا بخروجهم ملكوا المدينة من غير ممانع قبل رجوعهم فما وسعهم إلا الذهاب إلى المعسكر ومصادمتهم على أى حال كان فلم يصلوهم إلا بعد طلوع الشمس وتيقظ القوم واستعدّوا لهم والتطموا معهم وهم قليلون فوقع القتال واشتد الجلاد وبذلوا جهدهم فى الطعن والضرب وبرز رجل منهم يريد محمد بيك أبو شنب فبرز له محمد بيك وهو يقول: لبيك ها أنا ها أنا فقصده جماعة منهم وقاتلوه وقاتلهم حتى قتل وحمى الوطيس وكثر الصياح وارتفع الغبار وانكشف عن هزيمة أهل الثورة ونصرة أصحاب على بيك وكانت هذه الوقعة الهائلة عند جبانة مدينة أسيوط فتمزقوا وتفرقوا أيدى سبأ ثم عاد من بقى وانضم إلى كبار الهوارة وملك أصحاب على بيك مدينة أسيوط واحتلوها ولبثوا بها أياما ثم ترفعوا لقتال شيخ العرب همام وكبار الهوارة ومن انضم إليهم من المهزومين فاتحد كبار الهوارة مع الأمراء المهزومين واستعدوا للقاء عسكر على بيك فراسل محمد بك إسماعيل أبو عبد الله ابن عم همام واستماله ومناه ووعده برياسة الصعيد عوضا عن عمه همام إن هو خذل قومه وتخلى عن القتال معهم ومازال به حتى ركن لقوله وصدق تمويهاته وتثاقل عن

القتال وخذل قومه ومن كان معهم من الأمراء فانفشلوا وتمزقوا كل ممزق وخاف شيخ العرب همام شر العاقبة فارتحل عن فرشوط وانحدر على بعد ثلاثة أيام منها ثم مرض أياما قلائل ثم مات كمدا وحزنا على ماجرى وسار محمد بيك بالجند إلى فرشوط فدخلها من غير ممانع ونهب ما فيها وأخذوا جميع ما كان بدور همام وأقاربه وأتباعه من ذخائر وأموال وغلال فزالت دولة همام المذكور من الأقاليم القبلية من ذلك الحين ثم سار محمد بيك بعد ذلك من فرشوط يريد القاهرة فحضر إليه درويش ولد همام بعد موت أبيه مستجيرا فأحضره معه إلى القاهرة فلبث بها أياما حتى رضى عنه على بيك وأعاده إلى فرشوط تحت عهود عاهدها له قبل السفر، أما محمد بيك أبو الذهب فإنه لم يلبث بالقاهرة إلا أياما قلائل بعد عوده ظافرا منصورا حتى وقعت بينه وبين أستاذه على بيك وحشة فخرج منها مغضبا إلى الأقاليم القبلية ولحق بدرويش بن همام وأقام عنده فخلت البلاد شرقا وغربا لعلى بيك ومماليكه واستتبت كلمته وعمت الآفاق شهرته وتفرغ لقطع شأفة المنفيين فى الثغور كدمياط ورشيد والإسكندرية والمنصورة وغيرها ووكل جماعة من قومه بذلك فكانوا يذهبون إلى تلك الجهات واحدة فواحدة فيقيمون بها أياما ويقتلون من بها من أولئك المبعدين خنقا ثم ينتقلون لغيرها حتى أفنوهم ولم يبقوا منهم أحدا وخاف الناس على بيك خوفا عظيما فاتفق أنه دخل يصلى يوما بجامع الداودية فعصد خطيب الجامع وخطب ثم دعا للسلطان ولعلى بيك بالنصر والتأييد فلما انقضت الصلاة وقام على بيك يريد الانصراف استدعى الخطيب وقال له: من أمرك بالدعاء باسمى على المنبر أقيل لك أنى سلطان؟ وكان الخطيب يغلب عليه البله فقال: نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك فأظهر على بيك الغيظ وأمر به فضربوه بالعصى وتركوه فركب حمارا لشدّة ما أصابه من الضرب وسار إلى بيته وهو يصيح فى الطريق «بدأ الإسلام غريبا وسيعود كما بدأ» وأكثر من الصياح على هذا الحال فتبعه العامة إلى أن دخل بيته فلما علم على بيك بذلك خاف العاقبة فأرسل إلى الشيخ كسوة سنية وبعض دنانير واستعطفه لما وقع منه.

مطلب)

ولاية محمد باشا الأورفلى ثم عزله وولاية الوزير أحمد باشا

وبعد أيام جاء الخبر بولاية الوزير محمد باشا الأورفلى بدلا من محمد باشا راقم الذى مات كما تقدم القول فحضر على البر فى أبهة وكبكبة عظيمة وقصد إلى قلعة الجبل وذلك فى آواخر سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف هجرية وجعل يتصرف

بقدر الاستطاعة إلى سنة ثلاث وثمانين ثم عزل وتولى بعده الوزير أحمد باشا فأتى من الأقطار الحجازية إلى السويس بالقلزم ودخل القاهرة فى موكب حافل وهو متوعك ولم يصعد قلعة الجبل وسكن بدرب الحجر أشهرا ثم اشتد به مرضه فمات فى السنة المذكورة .

واشتدت رغبة على بيك بلاط فى الغزو وفتح المدن والأمصار لاسيما الديار الشامية والحجاز وقد تقدم القول أنه كتب إلى دار السلطنة يشتكى من ابن العظم ويرميه بالسوء فكانت رسله لا تنكف عن استطلاع أخبار الشام والحجاز وكان يتمنى لو أن الله ييسر له فتحهما فبينما هو على هذا الحال بين الرجاء والتمنى واستطلاع أخبار تلك الأصقاع إذ قدم إلى القاهرة فى المحرم افتتاح سنة أربع وثمانين ومائة وألف هجرية الشريف عبدالله من أشراف مكة وكان من أمره أنه وقع بينه وبين ابن عمه الشريف أحمد أخى الشريف مساعد منازعة فى إمارة مكة بعد وفاة الشريف مساعد فتغلب على الشريف أحمد واستقل بالإمارة وخرج الشريف عبدالله هاربإلى دار السلطنة مستنجدا فرسم السلطان إلى على بيك بلاط بمساعدته وإعادة الإمارة إليه كما كانت فأنزله على بيك منزلا رحبا وأكرم وفادته وفرح فرحا عظيما ورتب له المرتبات من مأكول ومشروب وأمر بتجهيز الذخائر ومعدات الحرب وملأ بيوت الأمراء الذين قتلوا بالذخيرة وآلات القتال والمؤن واستعرض أصناف العسكر من ترك ومغاربة وشوام ومتاولة ودروز وحضارمة ويمانية وسودان وحبشان ودلاة وغير ذلك وأرسل معهم طوائف فى المقدمات وأنزل المشاة منهم إلى القلزم فى السفن وسار بقية الجند فى صفر من السنة بعد دخول الحاج فى تجمل زائد وكبكبة عظيمة ومعهم محمد بيك أبوالذهب وبعض كبار الأمراء وسار معهم الشريف عبدالله وقد ودعه على بيك وطيب نفسه فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا على الينبع فانتصر المصريون على العرب نصرة مؤزرة وهزموهم شر هزيمة وقتلوا خلقا كثيرا من الأشراف وقتلوا والى الينبع العامل عليها من قبل الشريف ثم سار محمد بيك بعسكره حتى اقتربوا من سواد مكة فخرج عليهم قوم الشريف أحمد وأصحابه فقاتلهم وانتصر عليهم ودخل مكة عنوة فخرج الشريف منها هاربا فأباحها ثلاثة أيام فنهبوا ما فيها ونهبوا بيت الشريف وبيوت أصحابه وأخذوا شيئا كثيرا للغاية من متاع وأموال وجواهر وحلى ونفائس وغير ذلك وأجلس الشريف عبدالله فى منصب إمارة مكة وولى حسين بيك أحد الأمراء المصريين على ولاية جدّة عوضا عن واليها من قبل الدولة وأقام أبو الذهب أياما بمكة حتى استتب قدم الشريف عبدالله ثم سار

بعسكره يريد القاهرة ووصلت الأخبار بذلك فخرج لملاقاته الملاقون بالعقبة، فلما جاء الخبر بوصوله إليها خرج الأمراء إلى بركة الحاج والدار الحمراء لانتظاره فدخل فى أوائل شهر رجب من السنة وقدم القاهرة فى ثامنه فى موكب عظيم للغاية وأتى إليه العلماء وأعيان البلاد وقصده الشعراء بالقصائد والتهانى فعلت شهرة على بيك بالأقطار الحجازية وطار صيته فى الآفاق، ولما تكامل ورود عسكره من غزوة الحجاز عزم على أن يوجه بهم لغزو الشام فبدأ بأن أرسل يمهد الطرق أمامهم وكان بغزة شيخ لعربانها اسمه طيط طاغية شديد المراس وكان يكره على بيك ويتمنى خذلانه وزوال دولته فسير إليه على بيك رجلا من أعوانه اسمه عبدالرحمن أغا ورسم له بقتله فسار إلى غزة فى نفر من الجند ولم يزل يتحيل حتى ظفر به وقتله هو وإخوته وأولاده وقد كان عقبة كبرى فى طريق الشام ثم استكثر على بيك من جمع طوائف الجند وإعداد معدات القتال والمؤن والذخائر وجيش جيشا ضخما وسلمه إلى إسماعيل بيك ومعه عدّة من الأمراء فبرزوا إلى العادلية بالآلات والأحمال والخيام وأقاموا بها أيامًا ثم ارتحلوا إلى الشام وسار خلفهم جيش آخر بحرا ومقدمه سليمان بيك والتقى الجمعان فقامت الحرب على ساقها بين الطرفين واشتدت وحمى وطيسها فتابع على بيك إرسال المدد من جند وسلاح ومؤن وذخيرة فى البر والبحر وحتي نفد ما عنده والطلب متواصل فعمد إلى مصادرة الناس وأخذ أموالهم بأرذل الطرق وأخس الوسائل وفرض على القرى أموالا وقرر على كل طائفة مائة ريال وثلاثة ريال حق الطريق فضج الناس وتعطلت أسباب الرزق وهاجر البعض وطلب من قبط مصر مائة ألف ريال ومن يهودها أربعين ألفا وضيق . وشدد وهدد وبالغ فى الوعيد فأخذها جميعها.

وسير بعد ذلك جيشا آخر كامل العدد والعدد إلى يافا فحاصرها وضيق عليها ومازال منع الواصل إليها متتابعا حتى فتحت وأخذت عنوة ثم ركبوا على باقى المدن والقرى وقاتلوا من بها من النواب والولاة وهزموهم ففروا من وجوههم واستولى المصريون على جميع الديار الشامية إلى حلب وطار صيت على بيك وملأ الآفاق فداخله الغرور وتاقت نفسه إلى الغزو والفتوح فأرسل إلى محمد بيك أبى الذهب يأمره بتولية الأمراء الذين معه المناصب والولايات على البلاد التى ملكوها وأن يستمر على الغزو والفتوح ويتجاوز الحدود ويستولى على كل ما يصادفه من الممالك والبلدان إلى حيث شاء الله وهو يتابع إرسال المدد إليه من مال ورجال فجمع أبو الذهب من معه من الأمراء والأقران وكبار الجند وشاورهم فى الأمر أخبرهم بما

يريده على بيك فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وطال الجدال بينهم ثم اتفقوا على الرجوع بجميع العسكر إلى مصر وتحالفوا على أن يكونوا على قلب رجل واحد وساروا من يومهم فجاءوا القاهرة فى رجب من السنة ودخلوها على خلاف ما رسم به على بيك فساءه فعلهم واستعظمه جدا وبقى الأمر على السكوت أياما ثم تكلم على بيك مع أبى الذهب فى أمر رجوعه إلى الديار الشامية لفتح كل ما تيسر له فتحه من مدنها وأمصارها وشدد عليه فى ذلك فأظهر محمد بيك عين السخط وعدم الرضا وعارض فى الأمر كثيرا فصمم على بيك وقال لابدّ من السفر فبدأت بينهما الوحشة باطنا من هذا الحين وأخذت فى الازدياد يوما عن يوم وجعل كل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها، فلما كانت ليلة الرابع من شوّال من السنة دس على بيك بلاط إلى على بيك الطنطاوى وآخرين معه أن يغتالوا محمد بيك أبو الذهب ويقتلوه على كل حال فركبوا عليه فى تلك الليلة وأحاطوا بداره ووقفت العساكر بأسلحتها فى الطريق فلما أحس محمد بيك بحضورهم ركب من فوره وخرج من بينهم راكبا والسيف بيده وخلفه خواصه وبعض الأتباع وذهب إلى البساتين ثم ارتحل منها إلى الصعيد وعلم من بالأقاليم القبلية من الأمراء المبعدين بحضوره على هذا الحال فساروا إليه وقدموا له ما عندهم من مال ورجال وقدم له أيوب بيك أحد رفاقه هدايا من خيل وأقمشة وخيام وغيرها وقد وضع محمد بيك المذكور بالطريق عيونا وأرصادا لتأتى له بأخبار القادمين عليه من مصر فأحضروا له يوما رجلا يحمل مكاتبة من على بيك بلاط إلى أيوب بيك يأمره بها ويستحثه على سرعة قتل أبى الذهب على أى حال كان ويعده بإمارته وبلاده وغير ذلك فلما قرأ المكاتبة أكرم الرجل وناوله إياها وقال له: اذهب وائتنى بجوابه ولك عند غاية الإكرام فذهب الرجل وغاب ثم عاد بالجواب وناوله إلى محمد بيك فقرأه فإذا هو يذكر فيه أنه باذل ما فى الوسع وهو يراقب الفرص لينتهزها فتحقق محمد بيك خبث طوية أيوب بيك فجمع إليه خاصته وأمراءه وأعلمهم بالخبر وأمرهم بالاستعداد والتأهب وأنه إذا حضر أيوب بك إليه أخذ الأمراء نظراءهم من قوم أيوب بيك وتحفظوا عليهم، فلما حضر إليه أيوب بيك جلس معه فى خلوة فقال له أبو الذهب: بدا لى أن أسألك هل نحن مقيمون على الإخاء والمصافاة والصداقة والعهد الذى تعاهدنا عليه بالشام؟ قال نعم وزيادة قال: ومن نكث وخان اليمين ونقض العهد؟ قال يقطع لسانه الذى حلف به ويمينه التى وضعها على المصحف فقال له: بلغنى أنه أتاك كتاب من عند أستاذنا على بيك فقال لا. فقال لعل ذلك صحيح

وقدكتبت له الجواب أيضا قال لم يكن ذلك أبدا ولو أتانى منه خطاب لأطلعتك عليه ولا يصح أن أكتمه عنك أو أرد له جوابا فأخرج واستحضر له ذلك الرسول فسقط فى يده وأخذ يتنصل ببارد العذر فقال له أبو الذهب لا يصح أن تكون من رفاقى فقم واذهب إلى أستاذك واهنأ به فلما خرج قبضوا عليه وأنزلوه إلى مركب وأحاطوا بوطاقه وأسبابه فتفرقت عنه جموعه ثم أمر محمد بيك أحد رجاله فذهبوا وقطعوا يده ثم وضعوا صنارة فى لسانه وجذبوه ليقطعوه كما حكم هو بذلك فأفلت منهم ورمى بنفسه إلى الماء فغرق ومات فأخرجوه وغسلوه ودفنوه.

ولما فاض الخبر بما وقع لأيوب بك تحقق الناس استفحال الوحشة بين أبى الذهب وأستاذه على بيك وأقبل الأمراء والأجناد المنفيون إليه ودخلوا تحت لوائه واجتمع إليه جميع أتباع القاسمية والهوارة الذين شرّدهم على بك وسلب نعمتهم فأكرمهم وأنعم عليهم وواساهم وقلدهم الخدم والمناصب فتقيدوا بخدمته وبذلوا جهدهم فى طاعته وأخلصوا له النية، فلما وردت الأخبار بذلك إلى القاهرة نزل بعلى بيك بلاط من القهر والغيظ المكظوم ما لا يوصف وجعل يجيش الجيوش ويعد المعدات وسير إسماعيل بيك أحد أتباعه بجيش عظيم فى البر والبحر وذلك فى أواخر ذى القعدة من السنة فلما التقى الجمعان لم يقع بينهما من القتال إلا شىء خفيف جدا ثم انضم إسماعيل بيك بأكثر جنده إلى جند محمد بيك وصاروا جميعا على قلب رجل واحد فاشتد الأمر بعلى بيك ولاحت عليه لوائح الغم وكاد يموت قهرا وغما وعاد إلى جمع العساكر والإكثار من السلاح ومعدات الحرب وسير سبعة من الصناجق. قال أحد الكتاب: وكلهم مزلقون أى مترفهون متنعمون وضم إلى كل منهم عساكر وطوائف ومماليك وأتباعا وبرز بنفسه إلى جهة البساتين ورسم بعمل المتاريس من النيل إلى طريق الجبل ووضع عليها المدافع وسارت العساكر ومعها على بيك الطنطاوى وبقية الأمراء فى منتصف المحرم افتتاح سنة ست وثمانين ومائة وألف فالتقى الجمعان فى الطريق حيث كان أبوالذهب وقومه منحدرين إلى القاهرة واقتتلا عند بياضة أمام بنى سويف ووقعت بينهما مقتلة عظيمة انجلت عن هزيمة عسكر على بيك فساق أبوالذهب خلفهم بأصحابه وهم يمانعون عن أنفسهم حتى عبروا النيل ووصلوا إلى دير الطين وكان على بيك بلاط مقيما به فلما رأى أصحابه مقبلين على هذا الحال من الهزيمة والفشل اشتد قهره وتحير فى أمره ولكنه أظهر التجلد وأمر بالاستعداد وترتيب المدافع وأقام إلى الغروب على هذا الحال وقد تفرقت عنه عساكره من المغاربة وغيرهم ووصل محمد بيك إلى شاطئ النيل المقابل لدير

الطين ونصب صيوانه وخيامه تجاه صيوان وخيام على بيك فنظر إليها على بيك وقلبه يحترق بنار الغيظ ثم ركب عند الغروب ودخل من باب القرافة وطلع إلى باب العزب فلبث برهة من الليل ثم نزل إلى بيته وقد عقد النية على الفرار فحمل أحماله وأمواله وعياله وخرج سائرا إلى الشام وذلك فى ليلة خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثمانين وسار معه على بيك الطنطاوى وجميع صناجقه ومماليكه وأتباعه وطوائفه، وأصبح يوم الخميس سادس عشرينه فعلم محمد بيك أبوالذهب بخروج على بيك ومن معه فعبر محمد بيك النيل إلى الجانب الشرقى وأمر فأوقدوا النار فى دير الطين ودمروه تدميرا بعد نهبه ثم دخل المدينة بلا ممانع ونادى أصحاب الشرطة على أتباع على بيك بلاط بأن لا يؤويهم أحد فكانت مدة غيبة محمد بك عن مصر سبعين يوما، فلما استقر به المنصب أرسل فقتل عبدالله كتخدا الباشا ونادى بإبطال السكة التى كان ضربها على بيك باسمه وكانت قروشا وأنصاف قروش وكلها من النحاس قد صنعها المعلم رزق أحد قبط مصر وجعل يتصرف فى الأمور وينظر فى مصالح البلاد ويعطى المناصب ويفرق الوظائف وغير ذلك، وبينما هو على هذا الحال من النقض والإبرام إذ جاءه الخبر بخروج على بيك بلاط من الشام فى جيش عظيم يريد قتال محمد بيك فتهيأ محمد بيك للقائه وبرز بخيامه جهة العادلية ونصب صيوانه فأقام يومين حتى تكامل خروج العسكر وجاء الخبر بوصول على بيك بجنوده إلى الصالحية فارتحل محمد بيك فى خامس صفر سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية فى جيش عظيم للغاية فالتقيا بالصالحية واقتتلا قتالا عنيفا جدا فكانت الدائرة على عليّ بيك وأصحابه وأصابته جراحة فى وجهه فسقط عن جواده فاحتاطوا به وحملوه إلى مخيم محمد بيك فخرج إليه محمد بيك وتلقاه بأحسن لقاء وقبل يده وأخذ بيده حتى أجلسه بصيوانه وجلس بين يديه وكان القتلى فى هذه الموقعة كثيرين للغاية وقد قتل بينهم على بيك الطنطاوى وسليمان كتخدا وعمر جاويش وغيرهم من كبار جند عليّ بيك بلاط وكانت هذه الموقعة فى يوم الجمعة ثامن شهر صفر من السنة ثم قفل محمد بيك راجعا بعسكره إلى القاهرة ومعه أستاذه على بيك بلاط وأنزله فى بيته الكائن بالأزبكية بدرب عبدالحق وحضر الأطباء لعلاجه فلم يلبث إلا سبعة أيام ومات. قيل: إنه سم فى جراحته ودفن عند أسلافه بالقرافة وزال وزالت دولته العظيمة. قال أصحاب الأخبار: كان شهما شجاعا مقداما فى الحروب داهية طاغية شديد البطش صعب المراس ثابت الجنان سريع الخاطر والانتقام فخلا الجو لمحمد بيك أبى الذهب واتسعت من هذا الحين شهرته وعلت كلمته واستتبت قدمه فى منصب الرياسة أو كادت.

(مطلب)

ولاية الوزير خليل باشا

وجاء الخبر بعد هذا الحادث بقليل بولاية الوزير خليل باشا على ديار مصر فدخل القاهرة فى تاسع عشر ربيع من سنة سبع وثمانين[1] وصعد إلى قلعة الجبل فى موكب حافل للغاية وكان وصوله من طريق دمياط فجلس فى ثانى يوم للناس فدخل عليه أرباب الديوان وأصحاب الوظائف فخلع عليهم الخلع المعتادة وجعل يتصرف فى الأمور كما سيذكر مفصلا فى محله.

قال بعض أهل التاريخ: واشتدت رغبة السلطان مصطفى فى ردّ ما أخذه المحاربون من المدن والأمصار وجيش لذلك جيشا عظيما وعزم على الخروج به إلى الدانوب فلم يتمكن لمرض أصابه ولازم الفراش فاشتدت به علته فلما أحس بقرب أجله استدعى إليه أخاه عبدالحميد وأوصاه بولده سليم وكان قاصرا ثم مات فى سنة سبع وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية فكانت مدة تصرفه ست عشرة سنة وقيل سبع عشرة سنة وكانت له عناية ومعرفة تامة بالعلوم الرياضية محبا لأهل العلم وله مؤلفات فى الرياضة تعرف باسمه وكان شهما حازما مهيبا أعماله مشهورة للغاية.

ومات فى أيامه يوحنا بطرك الإسكندرية بعد أن أقام ثمان عشرة سنة واشتد فى أيامه على بيك بلاط على النصارى شدة عظيمة وضيق عليهم جدا وصادر الكثير منهم ثم ضرب عليهم غرامة قدرها مائة ألف ريال كما تقدم القول فانبث أعوانه لجمعها وقد عاثوا وأفسدوا وفعلوا ما لا خير فيه وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر والأحجار الكريمة بأبخس الأثمان وبموته أقيم بعده مرقس السادس بعد المائة وهو من رهبان دير انبا بولا واسمه سمعان من بلدة قلوصنا وكان فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

ولما مات السلطان مصطفى تولى الملك بعده أخوه السلطان عبدالحميد ابن السلطان أحمد .

---

(١) لم أجد فيما راجعته من مذكرات أصحاب التاريخ التي جمعت منها هذا المؤلف اسما لمن تولى مصر من الباشاوات بعد الوزير أحمد باشا الذي قدم من الحجاز فى سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف هجرية إلى ولاية خليل باشا هذا التى هى سنة سبع وثمانين فصارت المدة الخالية زهاء خمس سنين والله أعلم أ.هـ مؤلفه.


Bibliotheca Alexandrina
1240035